

من علماء الأزهر الشريف

نفحات القرآن

جمع وإعداد وتقديم:
الشيخ أحمد مصطفى فضلية
خادم العلم والعلماء

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات القرآن

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٢٨٠٨	
الترقيم الدولى: 977-253-462-2	

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

نور من القرآن

- ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ [سورة الفاتحة].

- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

- ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

* * *

نور من السنة

- «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه».

- «إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب».

- «من قرأ القرآن واستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه، أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت عليهم النار».

- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة» رواه ابن ماجة.

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» [رواه البخارى ومسلم].

- وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس قالوا من هم يا رسول الله قال: أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته» [رواه النسائى وابن ماجة والحاكم].

* * *



إهـــداء

إلى الدعـــاة المصلحين..

والوعـــاظ المرشـــدين..

لهداية الحياة للتى هى أقوم..

فى مشارق الأرض ومغاربها..

هذا النور من القـــرآن..

لعلهم يهـــتدون.

الكاتب والكتاب

بقلم الشيخ: أحمد مصطفى فضلية

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. قيما لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنا، ماكثين فيه أبدًا.. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ القائل فى محكم كتابه العزيز: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله القائل: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنتى**».

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله؛ عبدك ورسولك، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

١ - من فضائل القرآن العظيم:

فالقرآن الكريم آخر الكتب السماوية إلى أهل الأرض كافة، أنزله الله على خاتم رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهو المعجزة الكبرى. والنعمة العظمى التى أنعم الله بها على عباده إلى يوم الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فهو المرجع الأكبر لهم فى شئون دينهم ودنياهم، والصالح لكل زمان ومكان، ولكل عصر ومصر.

وحسبنا ما وصفه الرسول الكريم به، حيث قال: «**كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم**

والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم».

وقد شاء الله العظيم بكرمه وفضله وجوده ومنته أن يظل القرآن العظيم مأدبة الله الخالدة، مصداقًا لقوله ﷺ: **«القرآن مأدبة الله فى الأرض فخذوا من مأدبة الله ما استطعتم»**.

وأن يبقى دستور الله فى الأرض محفوظًا عن التبديل والتحريف ومرجع الناس إلى يوم القيامة.

وأن يكون معين العلم ومورده، تنهل منه النفوس العطشى إلى المعارف والعلوم، وتطلب المزيد من معينه الصافى الذى لا ينضب.

٢- القرآن فى حياة الرسول ﷺ وصحابته:

وقد حث النبى الكريم على تدارس القرآن والاجتماع عليه فى المساجد ومجامع الناس. يقول ﷺ: **«ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»**.

* وقال أيضًا: **«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»**.

* وعن على رضى **الله** عنه أنه قال: قال رسول **الله** ﷺ **«من قرأ القرآن واستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت عليهم النار»**.

* وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»** [رواه مسلم].

* وعن عبد **الله** بن عمر رضى **الله** عنهما أن رسول **الله** ﷺ قال: **«من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه»**.

* وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إن لله أهلين من الناس. قالوا من هم يا رسول الله. قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»** [رواه النسائى وابن ماجة والحاكم].

* وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»** [رواه البخارى ومسلم].

* وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آيه من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة»** [رواه ابن ماجة].

* وكان من دعاء الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه وأرضاه: «اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر فى عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت.. إنك على كل شىء قدير».

ورحم الله الإمام الجاحظ فهو يقول عن القرآن: «القرآن حجة على الملحد، وبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجو إليه العالم والجاهل، وإمام تُقام به الفروض والنوافل، وشهاب لا يُطفأ نوره، وبحر لا يُدرك غوره، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار».

٢- الشيخ معوض على الطريق:

وعلماء الأمة المصلحون، ووعاظها المرشدون، جاءت حياتهم فى رحاب القرآن، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وتقوى الإيمان وتنمية، فعاشوا حياتهم فى رحاب القرآن ينفخون فى الأمة هذه الروح ويذكرونها بالقرآن ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] رفعوا راية القرآن، ليستظل الناس بظلها الوارف، بعيدًا عن قيظ الجاهلية ونار شهواتها المحرقة.

ومن علماء الأمة وهداتها هذا الشـيخ الجليل «معوض عوض إبراهيم» الذى أوشك أن يتم قرنًا كاملاً من عمره المديد تحت راية القرآن، داعيًا إلى الله على بصيرة وهدى.

والقليل الذى جـمعناه من مـقالاته وأسـميناها «نفـحات القـرآن»، تشف عن وجدان الشيخ العامر بالقرآن، وتكشف الكثير من ملامح إيمانه الحى الوطيد، وهذا فى الحق ديدن الشيخ فى رحلته مع القلم واللسان، فـهو فى كل ما كتب يضع من يتلمح كـلامه أمـام ظاهرة اشتـرك فيهـا علمـاؤنا المبدعـون فى مجال الـدراسات القرآنيـة، هى عمق النظر، ودقة التدبر، وصـدق الفهم، والإيمان الحى، والإدراك البصير، والتعبير الذى يملك أزمَّة القـلوب، والاستيعاب والإحاطة الشاهدين بسعة العلم وتباعد جوانب المعرفـة، والذهاب مع القرآن إلى غايات لا تتاح إلا لمثل هذا النموذج من العلماء الربانيين.

•• أهمية الكتاب ومكانته:

فهذا الكتاب سداه ولحـمته وخواطره، تأملات ونظرات قرآنية صـائبة ومفيدة، تفيد الوعاظ والمرشدين فى ملء القلوب إيمانا، وهداية الحياة للتى هى أقوم، وهى فى نظرنا من لمعات الشيخ البراقة، ورشحة من رشحات إيمانه، وشعاع من شمس القرآن المشرقة، وحقيقـة ملهمة من حقائق الدين الحق، وترجمـة معنوية نابعة من فيوضاته فى ساحة الدعوة والبلاغ المبين.

إن هذه النظرات القرآنية كتبها قلم سيـال ينم عن كاتب مؤمن بعقيدته، عصرى، مثقف العقل تثقـيفًا علميًا، واقف على أسرار الاجتماع وعلوم النفس، وقـد كتبها بلغة عربية فصيحة جمعت إلى جزالة اللفظ، جمال الديباجة وسمو الأسلوب.

•• أصل الكتاب:

وهذا الكتاب جـمعنا مادته من مقـالات الشيخ الداعية معـوض عوض إبراهيم التى نشرها فـى أمهات المجـلات والصحف الإسلامـية، يثبت بهـا للمسلم دينه، ويقوى إيمانه ويقينه، ويحامى عن كتاب الله، ويزود عن رسول الله، ويدعو الناس جميعًا إلى هدى الله.

•• منهج الشيخ فى الكتاب:

منهج الشيخ لحمته وسداه: قراءة بالتدبر والتفهم لمعانيه وتفطن مراد الله.

جاء إيمان الشيخ المؤلف بأن الحياة فى رحاب القرآن نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وتقوى الإيمان وتنميه، ونفحة من نفحات الله عليه ونعمة مباركة جليلة الأثر فيما كتب وأذاع ونشر. ويؤكد الشيخ الداعية أن علوم الأدب والشعر واللغة تثرى الإفادة من القرآن، ويطل فيها المؤمن على مراد الله من كلامه. وقد استفاد الشيخ بمحصوله الثرى فى اللغة والأدب فى بيان هدايات القرآن.

وقد أدرك الشيخ منذ شبابه المبكر -وهو يطلب العلم فى الأزهر المعمور على يد جهابذة العلم واللغة والفكر والأدب- أن اللغة العربية هى وعاء القرآن، فاستظهر كثيرًا من آدابها، وجل الله الذى قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، فاللغة العربية ترجمانه، وبها بيانه، فهى لسان هذا الدين الحقّ.

وقد استعان الشيخ بالله وبإيمانه الحى، فى مد شعاع أنوار القرآن الميمونة المباركة فى النفس والمجتمع. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

هذا وقد أجاد الشيخ المؤلف عرض نظراته -قلمًا ولسانًا- فيما كتب وأذاع، ووفى بما يُطلب من عالم بصير بمرافى كتاب الله، لإيمانه الصادق وفهمه الثاقب.

إن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى دعوة مهذبة وصادقة، مستقيمة، واضحة المعالم والأهداف، بعيدة عن الكذب والرياء والخداع وعما يطلق عليه البعض «السحر الحلال»!! من اللعب على أوتار الكلمات. والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تقتضى العلم، والإيمان الصادق المخلص الواعى، وتقتضى العمل بهذا العلم.

وحياة الشيخ فى رحاب الدعوة ترجمان صادق للداعية المؤمن بدعوته، الصادق مع نفسه، فجاهد بالكلمة المؤمنة الواعية لدفع الاحتمالات السيئة، وتحقيق ما نؤمن به من المبادئ والقيم فى حياتنا وحياة سائر البشر ومن لم يتسلح بالمعارف القرآنية وقصصه وعبره، لم يستطع أن يستشرف المستقبل، وأن يتجنب فيه المزالق، والمهالك، وأن يكون له دوره المرموق، وموقعه الكريم، وأثره الحميد.

ويدعونا الشيخ معوض بهذا الإيمان إلى أن نجعل القرآن إمامنا فيقول: إن خير ما ينبغى أن يشغل به الناس أنفسهم، ويرصدوا له وسعهم، ويحرصوا أن يستعينوا بالله على أن يبلغوا منه المدى، إنما هو كتاب الله تعالى حفظًا لكلماته وفهمًا لمعانيه وطلبًا لمراد الله عز وجل من إيحائه لنبيه ومصطفاه ﷺ، ليبلغ للناس ما يصح عقيدتهم ويصلح عبادتهم ويقيم لهم منهجه سبحانه فى السلوك والتعايش والأخلاق؛ التى هى ثمرة الإيمان الوثيق والعبادة الحقة.. قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١- ٣].

والشيخ فى نظراته وتأملاته القرآنية مؤمن عميق الإيمان بأن القرآن جدير بالاهتمام به، حفظًا وتلاوة ودراسة وائتمارًا بأوامره، وانتهاءً عن زواجره وانتفاعًا بعظاته، وإفادة من معطياته وتوجيهاته.. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن الشيخ يدعو أهل القرآن ليجعلوه منهل العقيدة، ومنهج العبادة، ودستور السلوك، وكتاب الأزل والأبد وجماع أمر الدنيا والآخرة، يرشد الحاكم، ويؤنس العالم، ويحفز العامل، ويحفظ بناء الأسرة، ويقدم حوافظ المجتمع ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

ويدعونا إلى مائدة القرآن فيقول:

«القرآن مائدة الله الكبرى وحبله الموصول بينه تعالى وبين عباده، وهو يده الرحيمة التى امتن بها سبحانه ونوه بأنه علمه قبل أن يمتن بنعمة خلقه -جلت آلاؤه- للإنسان فقال ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١- ٤].

والقرآن هدى ونور وشفاء لما فى الصدور، وهو كتاب الأزل والأبد وسجل الدنيا والآخرة وهو نعمة الله على من استبصر ورشد وغدا وراح فى سراجه الوضاء، وحجته على الذين وضعوا أصابعهم فى آذانهم دونه، وقالوا للرسول وهو

يتلو آياته عليهم، يسـديها إليهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥].

ويؤكد الشيخ أنه ما من أحد ممن ينصـفون إلا وقد أخذه صدق القرآن، وسطوع براهينه وظهور شواهده. إنه كلام الله ووحيه وتنزيله وسبيله لعز الدنيا وصفو الحياة وجميل العقـبى، يوم نصير إلى الله بما ائتلف من منهج الله عقيـدة وعبادة وسلوكًا وتوجيـهات وتزكية للأنفس وعـرضًا يستلين الأفئـدة بأخبار من بروا عبـر التاريخ وفجروا ومن آمنوا ومن كفروا».

●● حق القرآن:

ولأن الشيخ صحب القرآن منذ طفولته الباكرة وصبـاه اليافع؛ مصاحبة عمر وحياة، فقد نعم بآثاره الميمونة المباركة، وظهر ذلك في قوة إيمان، وتزكية نفس، وصلاح حال، وطلاقة لـسان، وعلم وحكمـه، مما جعله حـريصًا حرصًـا شديدًا وهو العـالم المربى والداعية المرشد والواعظ والناصح، على دعوتنا لننصف القرآن من أنفسنا فكتب يقول:

«القرآن الكريم بهـداياته وتوجيـهاته وأسرار عظمـة موحيـة فيه والكلام صـفة المتكلم -كمـا قالوا، حق لكل ذى عقـل أن يتأمله وينعم فـيه النظر، ويعمل فـيه العقل حتى يـنطلق بنور منه، رشيدًا إلى حقـيقة الإيمان، وبسواء العـبادة والسلوك الحسن، وأخبار من تقدم، من آمن منهم ومن كفر، ومن استقام منهم على صراط الفطرة ومن اتبع هواه وخالف أمر مولاه ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن حق القـرآن الكريم على أهلـه وهو سجل مـفـاخـرهم، وينبـوع عـزهم وكرامتهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ومن حقـه على غير أهله وهو يخـاطب الناس جميـعًا ويشد عـرى أخوتهم، ويحكم وثاقهم على سـواء بأبى الناس آدم وأم البشرية حـواء عليهمـا السلام، ألا يصد عن سبيله أحد، أو يبتغى غير طريقه منصف. أو يقـبل عاقل فيه اتهام متهم أو ظن متظنن، أو ريب مرتاب ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ

اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

وحين ينصف أهل القـرآن وغـير أهله، كـتـاب الله من أنفسـهم، وينسـجون سلوكهم على منواله، سيجدون الحياة وقـد أشرق وجهها، واستقـامت مناهجها، واكتملت مـباهجها، وأعطى كل إنسان أخاه مـا توجبه الإنسانيـة من تعاون وإيثار وتواصل وتسـاند فى ميادين الحـياة كلهـا فى المنشط والمكره، وفى الحرب والسلم وعلى كل حال، فيسدون بذلك كل ثغرة تنفذ منها نفرة، وكل باب يمكن أن يتسلل منه عدو بمكروه، فالقرآن يوصى المؤمن بحسن المعاملة، وكريم المداخلة، والرفق فى المجادلة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ....﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وحق هذا القرآن ألا تحيف الدعوة إلى الإنصـات له، والإصغاء إليه قلب إنسان واحد، بعـد أن أعـطى القـرآن المخـالف والموافق، والمخاصم والمسـالم، والعدو والصديق حـقوقهم، وأدبنا الله فيـه بقوله ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

•• هل وفينا بحق القرآن؟

يرى الشـيخ أنه لا يوجد بشـر وفى بحق القرآن غـير مـحمـد وأصحابه بـقدر بشريتهم فيقول: «ومـا يوفر بعض حق القرآن من التنويه والإشارة بشر، مهما كد قريحته، العلمية، ويتواصل جدهم فى هذا السبيل، لن يبلغوا عشر معشار ما ينبغى للقرآن الكريم من عـرفان وتقدير، ولكنهم -لا ريب- سيشـعرون وهم يتعاهدونه ويتدارسـونه ويرون به شجرة الإيمان بين أضـالعهم- بالشرف الذى يضـفى عليهم مطارفه، ويسبل ثيابه، ويرخى جلبابه، ويضىء من حولهم المكان والزمان جميعًا، ويحكون وحيـه إلى خلقه ويشغلون أنفـسهم بحفظ مـا أوحاه سبحـانه من الذكر الحكيم إلى مصطفـاه صلوات الله عليه، فأداه كمـا بلغه، وكانت أعمـاله وأقواله تفسيرًا وتطبيقًا لوصـايا الله وتوجيهاته فى الكتاب الخالد، ومضت أعمال الصحابة

والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، مجال قدوة طيبة وأسوة حسنة بالرسول الذى قال له مولاه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال للمسلمين والوحى ينزل وإلى قيام الساعة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد كان ذو النورين عثمان بن عفان -رضى الله عنه- يديم النظر فى المصحف ويكثر من التلاوة فيه بعد أن جمع المسلمين فى شتى أقطار الإسلام يومئذ على المصحف الإمام، فلما سُئل فى ذلك التعاهد والتدارس الموصول للقرآن قال:

«إنه كتاب سيدى، وحق على العبد إذا جاءه كتاب من سيده أن يكثر قراءته ويطيل النظر فيه».

هكذا تعاهد أصحاب رسول الله القرآن كما أمرهم الصادق المصدوق، وكانت قلوبهم له أوعية، وألسنتهم به رطبة، وعقولهم له فاهمة واعية، لا يستأخرون عنه قيد شعرة ولا يستقدمون، كانوا بذلك أعلام الهدى وأئمة الخير، عن أمرهم يصدر الناس، وإليهم يحتكمون، فكل ما عرفت الدنيا من قوانين وقيم وأعراف تختلف من عصر إلى عصر، وتتباين عند أقوام وأقوام، ويبقى القرآن -كتاب الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ويعلم من خلق- ظاهر الحجة سوى المحجة، لا يزيغ عن سبيله راشد، وكانوا يستمسكون بحبال القرآن ويعطونه الولاء والإذعان وهو يعطيهم أمره فى كل اتجاه، فى طاعة الولاه الراشدين، وحب المؤمنين والإحسان إلى من تجمعهم بهم فرصة زمان، وإن لم يعطفهم إلى دين الله إنصاف، والترفق فى الدعوة إلى الله، والحرص على ذلك بالسلوك والعمل قبل الأمر والتوجيه، فإذا أمرهم بغير ما فى كتاب الله آمر، قالوا: «لقد جاءنا كتاب الله قبل أن يأتينا كتاب الأمير» فقد سمعوا الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

●● دعوة كريمة:

هذا هو القرآن العظيم فى كتاب الشيخ الجليل. مـا يزال بحفظ منزله وموحيه، يفيض النور ويشفى الصدور ويهدى للتى هى أقوم، ويقص علينا فى صدق وأمانة أنباء ما قد سبق، وهو قادر اليوم وغداً وإلى آخر الزمـان على أن يجعل أهله كما كان أوائلهم، خير أمة أخـرجت للناس، فصلوا أنفسكم به، وامضوا بهداياته إلى النصر على الأعداء والإمامة فى الأحياء، والدعة والسعة والرخاء.. والله المسئول أن يصلنا بكتابه، وأن يؤدبنا بآدابه، وأن يجعلنا من عباده ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨].

محلة دياى -دسوق
الجمعة -فى ١٧ ربيع ثان ١٤٢٨ هـ
٤ من مايو ٢٠٠٧م

كتبه الفقير إلى عفو الله،
أحمد مصطفى فضلية
خادم العلم والعلماء

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

حمدًا لله وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد، رحمة الله المسداة ونعمته المهداة إلى الناس أجمعين، ورضى الله عن آله وصحبه ومن جعل القرآن شغله، واستجاب على كل حال لأوامره وزواجره وتوجيهاته وبعد..

فالمستعان الله جل جلاله على جلاء «مبادئ من القرآن»... راجين أن نبرز حاجة الحياة والأحياء جميعًا إلى كتاب الله فى جانب من جوانبه الكثيرة التى استوعبت أمور الدنيا والآخرة، واسترعت الأنظار معالى الأمور، وجعلت فى موضع الاعتبار مسائل العقيدة والعبادة والأخلاق ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إن القرآن الكريم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] وهو ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥] ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

ورعايتنا المستوعبة لهذا الجانب الذى يتعلق بالسلوك، محاولة لوضع المنهج الإسلامى الراشد أمام فريقين من الناس، هم المؤمنين وغير المؤمنين، الأبرار والفجار على سواء، ليزداد الذين آمنوا إيمانًا وليعلم الذين فى قلوبهم على الإسلام كحز المدى فهم يحقدون عليه ويضيقون ذرعًا به، ويقولون فيه بالباطل. إن

حقـيقتـهم لا تخفى، وأن القرآن صـمام أمن لعقـيدة التوحـيد وجلاء العـبادات والتكاليف، ومنهاج خلقى كامل هو في دين الله إحـدى خصائصه، وبعض سماته الفارقة المميزة، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وإذا وضع اليوم أقوام أصابعـهم فى آذانهم وقالوا مقالة أوائلهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] فإننا نكشف الطريق أمام الذين يريدون أن يكونوا مع الله على صراط مـستقيم، والذين يبتغون لأنفسهم الفـلاح والهدى باتباع رسول الله صلوات الله وسلامه عليـه وبالاقتداء به جهـد استطاعـتهم. فـالله تعالى يـقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]. ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

إن القرآن الكريم يجلو أخـلاق رسول الله ﷺ، فلقد سُئلت أم المـؤمنين عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله فقالت: «كان خلقه القرآن».

أجل فلقد تأدب ﷺ بآدابه، وتحلى بأوامره، وكف عن زواجره كقـوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقـمان: ١٧]. وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]. وقـوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمـران: ١٥٩]. وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلـت: ٣٤]. وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. فأوصاف خلقه الكريم صلوات الله عليه لا تتناهى، كما أن معانى القرآن لا تتناهى ومقاصده الرفيعة لا يغيب عنها شيء مما جعله الله قوامًا للحياة والأحياء.

ولقد كان أصحاب رسول الله أحرص ما يكونون على أخذ القرآن الكريم علمًا وعملاً وفهمًا وتطبيقًا، قال أبو عبد الرحمن السُلمى: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهما حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا».

وكانوا يعرضون أنفسهم فى كل موقف، وقبل كل تصرف، على كتاب الله تعالى، فما أمر به مضوا معه، وما نهى عنه تحرزوا منه ولم يقربوه، وبقى ذلك سلوكًا متبعًا بعد عصر النبوة ونهجًا راشدًا فى عصور النور بعده حتى قال صاحب الاستيعاب بسنده عن الحسن: «كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى وهو على خراسان: إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أن تُصَطَفَى له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة».

فكتب إليه الحكم: بلغنى أن أمير المؤمنين كتب أن يصطفى له الصفراء والبيضاء، وأنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه -والله- لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبدٍ ثم اتقى الله، إلا جعل الله له مخرجًا. والسلام».

ثم قال للناس: «اغدوا على مالكم، فغدوا، فقسمه بينهم، قال: اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى إليك، واستجاب الله دعاءه، فلبى نداء ربه راضيًا مرضيًا».

ولقد قرأ قتادة رضى الله عنه قول الله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقال: «هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأنهم تقشعر جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشية عليهم، فذلك من عمل الشيطان بأهل البدع».

وقد روى الإمام الشوكانى بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتى أسماء كيف كان يصنع أصحاب النبى ﷺ إذا قرأوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال: فإن ناسًا ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية. قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

ولقد كـان أبو بكر رضى الله عنه بكاءً بكتاب الله، وقـد ذكروا أن وفـد اليمن جاءوه مـهنئين بالخلافة فلما قـرئ عليهم القرآن بكوا فـقال أبو بكر رضى الله عنه «هكذا كنا حتى قست منا القلوب».

ولقد سمع عمر بن الخطاب رضوان الله علـيه قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ - ٨] فارتكن إلى جدار كـان قريبًا منه، ثم عاد إلى بيته، وظل الناس يعودونه شهرًا مما ألم به، لا يدرون ما مرضه.

وقد ثبت فى المتـواتر من الحديث أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبـر وقد كان يوم الجمـعة يقف إلى جـانب جذع من جذوع المسـجد، فلما وضع المنبـر أول ما وضع وجاء النبى ليخطب، فجاوز الجـذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع، وجعل يئن أنين الصبى الذى يسكت، لما كان يُسمع من الذكر والوحى عنده. وفى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصـرى بعد إيراده: «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع». والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعـد: ٣١]. أى لكان هذا الـقـرآن. ويقول: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد أخرج عبدُ بن حميد بسنده عن ابن عباس -رضى الله عنهما-: «**إن الحجر ليقع على الأرض ولو اجـتمع عليـه فئام من الناس مـا استطاعوا وإنه ليـهبط من خشـية الله**». هبوطا يعنى التواضع الكائن فيه لعبادة الله عز وجل، وأداء لوظيفته التى خلقه الله لها. ومــن أصدق من الله حديـثًا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولقد سمع أحد المشـركين قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الحشر: ٢١]، ويا ويل من لا تخشع قلوبهم لما تخشعُ له الجبال وتتصدع لو أنها منحت من الفهم ما منحوا.

وكان شداد بن أوس رضى الله عنه يروى عن رسول الله ﷺ قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وهذه الآية ترد إلى ذاكرتى موقفًا للفضيل بن عياض الذى عرف من باكورة عمره بأنه عبد هوى وأسير شهوات، وبينما هو فى بعض الليالى يتسلق جدار بيت للوصول إلى امرأة كان بينه وبينها من شئون الشيطان ما كان، فإذا به يسمع قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ.....﴾ الآية...

لا يدرى مأتاها، فإذا بهذا الذى سمعه من كتاب الله يجاوز أذنيه وينساب إلى قلبه ويبلغ مكامن الحس والإدراك فيه. فيقول من فوره «آن يارب، آن يارب، آن يارب» يكررها، فترك ما كان فيه خاشعًا منيبًا إلى ربه وقال: لو تمثلت لى الدنيا وكانت تحت قدمى لتحاميتها ولتقذرتها وبعدت بثوبى عنها مخافة أن تصيبه.

إن دين الإسلام بما يحتويه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، هو دين الله القويم الذى أنزل على سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام. وخصه بمعجزة أبدية خالدة لا تزول بزوال الأيام وضوحًا وتفسيرًا كلما دارت عجلة الزمان، ألا وهى إعجاز القرآن الكريم- العلمى واللغوى -فالقرآن معجزة أبدية، فهو بين أيدينا كما كان فى عهد جدودنا وفى وقت التنزيل وسيظل أمام أحفادنا يطاول الخلود.

ولن يكون أسطورة فى يوم ما. ولن يصبح موضع الشك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وانتهت معجزات الأنبياء بانتهاء حياتهم فيما عدا الرسول محمد التى ظلت وستظل معجزة خالدة أبد الدهر. فهو كتاب الله الذى لا تخلق جدته ولا تفنى عجائبه ولا تنفد أسراره آثاره ولا يغيض ماؤه، ولا يفل على مر الدهور رواؤه ولكن تأخذ الأسماع منه على قدر الفراغ والهموم.

فكتابنا الكريم لا يزداد على تقدم العلوم إلا بيانًا وعلى كثرة المكتشفات إلا برهانًا، ولذلك يقول جل شأنه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣] وكلما تقدم العلم كان للقرآن دليلاً. ومن عجيب أمر الإسلام أننا لا نرى مسألة خلافية بين العلماء كمسألة الزواج والطلاق أو بين مقررى الآداب والعادات كمسألة استقلال المرأة وحريتها أو بين علماء الاقتصاد كمسألة الربا أو غيرهم من علماء القانون أو التاريخ، إلا وجدناه قد أتى على آخر رأى مما رجع إليه العلماء بعد الخلاف الطويل بينهم، فالقرآن الكريم بين كل أدب من الآداب، وقرع كل باب من الأبواب وأتى على آخر ما يقتضيه العقل السليم فى المعاملات والأخلاق والأحوال الشخصية والاجتماعية. فمدنية القرآن أفضل مدنية وُجدت فى العالم بما جاء به من تشريعات وقوانين إلهية، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهو معجزة علمية وبلاغية ليست للعرب فقط ولكن لكل مخلوق ذى عقل وقريحة، بل هو معجزة الإنس والجن، يقول عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، والقرآن على أنه كتاب دين هو -بإجماع المسلمين- كتاب الكون والحياة، ونقول إن علوم الأولين والآخرين تقف أمام القرآن موقف الخادم له لا الحاكم عليه، إذ لا يتصور أن يحكم المخلوق فى الخالق. وإنه ليحدثنا الرواة أن من حكماء العرب من آمن عندما سمع الآية الكريمة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] وقال: لقد جمعت هذه الآية الطب والحكمة، فهل نقول إن هذه الآية آية تهذيب أو تشريع أو تأمل؟

وعندما يقرر الطب فى أحدث نظرياته عن تشريح الجنين أنه عند تكوينه يكون محاطًا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء لا الحرارة، ويكون القرآن

الكريم قد جاء بتلك الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** ﴾ [الزمر: ٦]، يكون ذلك سبقًا من القرآن الكريم.

هذا هو كتاب الله عز وجل ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

والله عز وجل هو المسئول على أن نلتقى فى صفحات هذا الكتاب على ما يزيدنا يقينًا على يقين. وإيمانًا على إيمان، بأن القرآن وحده سفينة النجاة، وعجلة الإنقاذ وطريق السلام. وعلى نحو لا يسد مسد أيسره كل ما قال العقلاء الذين ما خلا منهم عصر ولا الدخلاء على حقائق الله الذى يقول ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائد: ١٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المطرية- قاهرة المعز
تحريرًا فى - ربيع الأول ١٤٢٧هـ
مارس ٢٠٠٧م

معوض عوض إبراهيم
من علماء الأزهر الشريف

* * *

المجموعة الأولى:

كيف نحيا بالقرآن؟

- القرآن يتحدث عن نفسه
- أمة قدسها القرآن (١)
- أمة قدسها القرآن (٢)
- أمة قدسها القرآن (٣)
- إنه القرآن كتاب الحياة والأحياء.
- القرآن الكريم يهدى للتى هى أقوم.
- هكذا اعتنوا بالقرآن.
- القرآن منهج حياة.
- القرآن والحياة.
- اجعلوا القرآن إمامكم.
- القرآن مصدر مفاخر المسلمين.
- القرآن كتاب الأزل والأبد.
- الإعجاز القرآنى.
- متى ننصف القرآن.
- متى ننصف القرآن من أنفسنا.

القرآن يتحدث عن نفسه

قالوا قديمًا «الكاتب يتمثل خلال سطوره» وهى كلمة فيها كثير من الحق إن لم تكنه، وكثيرًا ما عرفنا ذلك وعرفه غيرنا ونحن نقرأ كتابًا، أو نطالع حديثًا دون أن نشهد غلاف الكتاب أو توقيع الكاتب، ونقاد الأدب قديمًا وحديثًا -إن بقى أحد يوصف بذلك الوصف- يبرزون ملامح كل كاتب، ويرون ألفاظًا وتعبيرات يلازمها وأخيلة تدل عليه.

وهذا كتاب الله القرآن الكريم وكأن عليه خاتم منزله وموجبه تبارك وتعالى إلى خير خلقه صلوات الله عليه، وكل عمل الرسول فيه أنه تلقاه حفيا به، بل إنه كان يسارع فيتلو كل كلمة منه انفرجت عنها شفتا أمين الوحى جبريل عليه السلام شغفا به وكلفا وحرصًا على ألا تفوته منه كلمة، حتى أوحى إليه مولاه بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

فاطمأنت نفس الرسول إلى أن الله جامعه له فى صدره، ومقدره على قراءته بعد أن ينتهى جبريل، فإذا قرأ الرسول كلام الله كأمره، وجهر به وقد ألقى فى صدره مراده من وحيه إليه صلوات الله عليه.

وكان صلوات الله عليه أمينا فى التبليغ، والقرآن الكريم يشهد بذلك، فما زاد حرفًا ولا نقصه، ولا قدم فيه ولا أخر حاشاه.

•• حديث القرآن عن القرآن جدير بالتأمل:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

والقرآن يؤكد هذا الخبر، وهو يتحدى اليوم كل من يتوهم علمًا كما تحدى فرسان البيان وأمة الفصاحة التى نزل بلغتها القرآن فيقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم يرخى لهم الله العنان وهو يقول: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

ثم يقول سبحانه وقد انكشف الخبء من أمرهم: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

والسورة التى عـجزوا عنها تصـدق على سورة الكوثر وهى تمثل فى كـتاب الله سطرًا واحدًا ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ [سورة الكوثر].

والسورة كلها فى مـحمد صلوات الله عليه- وعليه أنزل القرآن- ليـشد الله بها على قلب رسوله وهو يعلم منها أن الله أعطاه الخير الكثـير فى الدنيا، رسالة عامة وفضلاً على جميع من سواه، والخير الكثير فى الآخـرة كذلك بالشفاعة العظمى، والحوض المورود واللواء المعـقود، والشهـادة للأنبياء بأنهم أدوا الرسـالة حين يقول أقوالهم: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩].

والسورة تدعو الرسول إلى الصلاة التى كان يجد الرسول بها ثلج صدره وراحة فؤاده وقرة عينه **«وجُعلتْ قرة عينى فى الصلاة»**، وهى تطالبه بأن يؤدى شكر الله عز وجل بالنحو الذى كان يؤديه عن نفسه وعن أمته صلوات الله عليه.

ويلقى الله غبـار الخزى والمهـانة فى وجوه من كـانوا يشمتـون لموت أبناء النبى ويتربصون به ريب النزف، وحينئـذ لا تكون رسالة ولا يبقى -برغمـهم- إسلام، وتعود العـزة كما توهموا للات والعـزى- وهو تعالى يؤكد للرسـول إن الأبتر هم الشانئون له، أما هو فذكره باق، والشهادة بنبوته ورسالة يرددها الثائر، وتتجدد مع كل ذاكر فى أذان يُقتـرن فيه اسم الرسول، باسم ربه، وصلاة كذلك فى تـشهدها

الشهـادة لله ثم لرسوله، ثم لا يغـيب النبى ﷺ عن خاطر مـؤمن رضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً، كيف والنبى القدوة فى كل ما يقول ونفعل ونأخذ ونترك.

والقرآن الكريم وهو هدى للمتقين، فى قصصه عبرة لأولى الألباب:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ...﴾ [يوسف: ٣].

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١٦].

- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وشتان ما بين قصص ومسرحيـات يزعمون أنها تصلح وترشد من ضل وفسد، وتقدم العبرة، وأى عبرة تقدمهـا وفاقد الشىء لا يعطيه، إن أصحاب هذه السموم التى تُقدم باسم الأشفية والأدوية لا تحقق من المراد بها شروى نقير.

شتـان ما بين هذه وتلك التى يحكيـها القرآن ويرويهـا بحكمها ومـراداتها الله تعالى -وهى فى كتاب الله كما يقول الله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

فهو أحـسن القصص، وأصدق التاريخ، وتمام الأحكام ورى والعقـيدة وسجل الأخلاق وهو كما قال ربنا سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهـو متشابه يشـبه بعضه بعـضًا فى الحسن والإتقان والسمـو والإحسان والوفاء بكل متطلبات الإنســان وهو ينشد رضوان الله وغفرانه:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

ولقد أسفلت أن تلاوة القرآن كانت وكد النبى وهجيراه، فقد أمره الله أن يقول: ﴿ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

فإن تلاوة الـقرآن تذكر من غـفلة، وتؤنس من وحـشة، وتهدى مـن ضلال. والأعداء اليوم يقولون مـقالة قريش فى القديم: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، يقـولون ذلك بأسلوب العصر بالصوارف الكـثيرة التى تتمثل فى غير جهاز وفى غـير آلهية من هذه التى زخرفها الأعداء، وكان من الممكن -وما يزال- أن تكون وسائل إعـلام وبناء وتعمير وتنوير، لكنها وبرامجها ومناهجها من صنع الأعداء الحقـيقيين والأعداء من صفوفنا ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]، لا تجد حتى مجرد المراجعة قبل أن نعرض، وفى كل دور الإعلام جهاز المراقبة الدينية، ولا مراقبة، وللمراقبة الأدبية، ولا مراقبة!

أيكون صحيحًا ما يقال إنك لن تستطيع أن تتحدث عن الإسلام حديثًا منصفًا، يجد طريقه إلى النشر والإذاعة والمطبعة، ولكن أقوامًا يغمزون الإسلام أو يحاولون أن يصيبـوه فى مقتل إذا أرسلوا شيـئًا من الباطل إلى هذه الجهـة أو تلك كانت به حفية، وله وفية، وسارعت فأعلنته فى أول مناسبة وبأبهر أسلوب وأظهره ولكنه لا يلبث أن يرتد سهامًا إلى مقاتل من كتبوه ومن تولوا كبره ونشره..

مـقـالـة السـوء إلى أهـلهـا   أسـرع مـن منحـدر نازل

ولقد كـانت قريش تطلب القـرآن ليثرى من فـقر، ويشفى من داء، ويرفع من طريق الناس العقـاب والعراقيل، ويكون أدوات نسف وتدمير والقرآن الكريم ينفى أن يصنع القرآن، وهو كتاب هدى قبل كل شىء، هذا الذى ذكروه فيقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١].

أى لكان هذا القرآن، لكن القرآن معلوم الغاية، معروف البداية والنهاية، ولقد تحدث القرآن عن الـكتب السماوية فى نبعـها الأصيل وقبل أن تتـغير وتزول، فلا تصلها بما فى أيدى القوم واصلة.

ويتحـدث عن أهل الكتاب كثـيرًا، وهو ينصف منهم من أنصف ويقيم حـجته على من ضل وانحرف، ولا تؤخذ تاريخ من غبـر صادقًا صحيـحًا إلا من القرآن الكريم، وهو يذكر من أخـبارهم ما فـيه معتـبر، ويلقى التراب فى وجـه قصص وأخبار لا يتعلق بإيرادها نفع.

فمتى نصغى قلوبنا وآذاننا معًا للقرآن الكريم..

ولقد يكون لقاؤنا على آيات نستجليـها فى القرآن وهو يقلب الأبصار فى كون الله وملكوته الأعلى، لنعـرف أن الآيات المتلوة سبـيلنا إلى الآيات المجلوة ولنزداد يقينًا فـى أن حاجتنا إلى القـرآن ضرورة حـياة قبل أن تكون الـطريق إلى رضوان الله.

* * *

أمة قدسها القرآن [١]

شهد الله فى كتابه الباقى، شهادات لا يداخلها ارتياب، ولا يدنو منها شك، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [المنافقون: ١].

وشهادته سبحانه للمؤمنين بأنهم خير أمة تجىء على صورة يتضاءل أمامها كل إشادة بأمة من أزل الدنيا وإلى أبدها، قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، إنها شهادة لم يطلقها العليم الخبير إطلاقًا، ولكنه سبحانه اشترط لها شروطها، وألحق بحُكْمه البصير فيها أسبابه وحيثياته، ورضى الله عن الخليفة أبى حفص فهو يقول مع هذه الآية: «من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها».

وصدق عمر، فما يكفى لتكون من قوم أن تتسمى باسمهم، أو تنتسب إليهم حتى ينهض بما تزعم اقتداء وعمل، فالنبى صلوات الله عليه يقول «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن أقوامًا غرتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**».

ودلالة ذلك من القرآن الكريم سور وآيات اقترن فيها الإيمان بالعمل دائمًا، حتى قال على رضوان الله عليه: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل». ولقد شكوا إلى كسرى أن جنديًا فى جيشه يتسمى باسمه ولكنه ينهزم أبدًا ولا يثبت عند لقاء الأعداء، فأرسل إليه كسرى: إما أن تغير فعلك أو اسمك.

أنتم أيها العرب أولئك الذين أنزل الله القرآن بلغتهم وجعل ذلك أمارة شرفهم فقال لمصطفاه ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ..** ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال لأمة الدعوة ﴿ **لَقَدْ**

أنزلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] والمسلمون أحفاد الرعيل الصالح الذى آزر أكرم رسول وظاهر المجددين، ومن الوفاء للآباء أن نرعى غراسهم، وأن نحفظ تراثهم، وأن ننتهج النهج الذى التزموه واسترخصوا فى سبيل إعلاء كلمته المهج والأرواح حتى جاء نصر الله والفتح، وتمت بالإسلام على الدنيا نعمة الله.

وما ينبغى أن يصرفنا عن الحياة بهذا الدين ما يتصارع اليوم من مذاهب ومبادئ وآراء، فإنها بهارج تحمل فى أطوائها عناصر فنائها، ليبقى الإسلام دين الحياة الذى يقول الله فى كتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ويقول لأتباعه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ...﴾ [المائدة: ٥٤] ويقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ويقول: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه «أن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد صلوات الله عليه خير قلوب العباد فاصطفاه وبعثه برسالته، ونظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه».

وصدق الله العظيم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الحسن البصرى: بلغ من تشدد الصحابة على الكافرين أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه- على خلاف بين الفقهاء فى المعانقة.

وأين من قول الله، ومن فقـه السنة، وفهم الحسن، ما يفـعله، فى بعض بلاد الإسلام أقـوام يبسطون بالسـوء أيديهم وألسنتهم لأبناء أمـتهم، ويعطون عهودهم ومواثيقهم لأعداء دينهم ووحدتهم؟

كان أوائلنا خيـر أمة أخرجت للناس بإيمانهم بالله، واهتدائهم بهداه، وجهادهم فى سبيل دينه واستقامة صف ووحدة كلمة، يغدون بها وكأنما نماهم عن كثب أب واحد، فهم كذلك منذ آدم عليه السلام وكأنما آواهم منزل واحد، بعد أن كانوا فى جاهليتهم كما قال عمـر رضوان الله عليه «والله لقد كنا أذل الناس فأعزنا الله بهذا الدين، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال قتادة بن ثعلبة السدوسى «كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شـقيًا ومن مات منهم رُدِّى فى النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم... حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد، ووسع به فى الرزق، وجعلهم ملوكـًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر فى مزيد من الله».

ولقد كان صـحابة محمـد يتحدثون فى أمر الجـاهلية والنبى يسمع فيـضحكون ويبتسم صلوات الله علـيه. ومن الخير أن يذكروا الجـاهلية ومفاسدها ليـعرفوا أية نعمـة أفاءها الله بالإسـلام عليهم، فيـزدادوا على دينهم حرصًا. يقول عـمر «إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية».

ربَّى النبى صلوات الله عليه بالإسلام خير أمة، فأخرجهم من عبادة الناس إلى عبـادة الله وحولهم من جور الأديان إلى عـدل الإسلام، وصيرهم مـوازين عدل وألوية تراحم وإيثـار بعـد أنانيـة وأثره بغـيضـتين، وإسراف فى الحـروب لأوهى

الأسباب وحب للدم لم يتورع عنه حتى نساؤهم اللواتى ما كن يرضين إلا أن يصبغن ثيابهن بدماء القتلى، وما ينعى أحد صنيع هند بنت عتبة وهى فى جاهليتها بجثمان أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وسيعرف القارئ الكريم كيف بدلها الإسلام بعد ذلك خلقًا آخر وردها إلى الفطرة الكريمة، والذين قال الله فيهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] هم الذين قال فيهم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩، ١٠].

إنها أمة قدسها القرآن، وذهب أصحاب محمد فى تاريخ البشرية صورًا جديدة للإنسانية، وأمثلة رائعة للإيمان إعزاز الحق والجهاد فى سبيله، وإن رويت من قلوبهم السيوف وتخطفتهم من مختلف جهاتهم المكارهُ والحتوف، موقنين أن عزة الحر الأبى لا تكتمل إلا حين يسلم له دينه ويتضوأ من وطنه جبينه، وتغدو أمته عزيزة الشأن، عالية البنيان، وترفرف فى دنيا المسلمين رايات الأمن واليمن والرخاء.

ومن مدرسة الوحى سنقدم المثل بعد المثل والعمل الفذ تلو العمل، لتكون نورًا على طريق الأحرار والمجاهدين والقادة الذين يريدون أن يصلوا حاضر أمتهم بماضيها العظيم، ليكونوا بالعمل، لا بالتمنى والأمل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بعد أن رماهم الكفر عن قوس واحدة، وأغرى بهم عدوًا لا تصله بالإنسانية الودود صفة من صفات الإنسان الواصل الرحيم، فراح يقاتل عقيدتنا وإباءنا وعزتنا ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٧]... ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* * *

أمة قدسها القرآن [٢]

يبدو رسول الله صلوات الله عليه فى مدرسة الوحى وفى مجال قيادة خير أمة بحلم يزن الجبال، وشفقة قلما تجد لها شبيهًا بين خلائق الرجال، وحرص على هداية من ضل، وإيمان من كفر، يمتن الله بها على الناس وهو يقول فى مصطفاه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كل ذلك على أساس من رجاحة عقل، ووفرة حكمة، وعلم دعاه مولاه أن يجعله بين ما يسأله إياه قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولقد ربى محمد صحابته بسلوكه وأعماله، أكثر مما رباهم بوصاياه وأقواله، فلقد صلوا كما رأوه يصلى، وأخذوا عنه فى الحج مناسكهم، وكانوا رضوان الله عليهم بالاقتداء به تفسيرًا واعيًا لقوله الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

رأوا رسول الله يواجه بحلمه صلف قريش وعتوها وتشبثها بما كان عليه أوائلهم من عصبية وحمية جاهلية وهم يقولون له ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] وقال الكافرون: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا...﴾ [ص: ٤-٨]، فما يزيده الإعراض واللجج فى التكذيب إلا يقينًا فى سيادة الإيمان وتعفية الحق والعدل على ما وضع

القوم من مبادئ آثمة وقيم ظالمة، ومناهج سلوك تجعل الناس سادة وعبيدًا وعلية ودون ذلك لا كما أرادهم الله إخوانا لا يتفاضلون بغير مجيد الأعمال وشريف الخصال قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال الحسن: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال لحصين بن عتبة -والد عمران بن حصين الخزاعى- **يا حصين: ما تعبد؟ قال**: أعبد عشرة آلهة -قال: **وما هم؟ وأين هم؟** قال تسعة فى الأرض وواحد فى السماء. قال رسول الله ﷺ: **فمن لطلبتك؟** قال الذى فى السماء قال: فمن **لكذا؟** كل ذلك يقول: الذى فى السماء.. قال عليه السلام: **فألغ التسعة!!** قال النبى ذلك فى سكينة ودعة، وفى إدراك الحكيم الفاحص لعقل من يخاطبه حتى استنقذ الرجل من شركه، وقاده قودا رفيقًا إلى الإيمان وتوحيد الرحمن، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وكان حسن تأنى الرسول للأمور، وعمق نظره وسعة صدره وإيمانه بدعوته وإخلاصه فى أداء رسالته بثبات لا يتخاذل ويقين لا يلين، من أفعل وسائل اجتماع الناس عليه وإيمانهم بالحق الذى دعا إليه، ومن ذا الذى لا يمنح ولاءه كله لرسول هو: ﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو لسائر الناس كما قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧]. وهو يحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على ثوابت الحق، ويدع لصحابته مغانمهم ويقاسمهم مغارمهم إن لم ينهض بها وحده كريمًا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ولم يستطع الوعيد ولا الأذى الشديد، ولا حلو الأمانى وخالب الوعود أن تثنيه صلوات الله عليه عن رسالته أو تعدل به عن طريق الوفاء لها والصدق فى النهوض

بتكاليفـها. قـال أبو جهل فى ملأ من قـريش: قد التبس عـلينا أمر محـمد، فلو التمستـم لنا رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسـحر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: «والله لقـد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علمًا، وما يخفى عليَّ، فأتاه فقـال: أأنت يا محمد خيـر أم هاشم؟ أأنت خير أم عبد المطلب؟ أأنت خير أم عبد الله؟ فَلِمَ تشتم آلهتنا؟ وتضللنا؟

فإن كنت تريد الرياسة عقـدنا لك اللواء فكنت رئيسًا، وإن تكن الباءة زوجناك عشـرة نسوة تختـار من أى بنات قريش شـئت وإن كان بك المال جـمعنا لك من أموالنا مـا تستـغنى به. ورسول الله صلى الله عليـه ساكت، فهو ينصـف جليسه ويعطى إصغاءه كله لمحدثه. فلما فرغ عتبة قال ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ . . . حتى قرأ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . .﴾ [فصلت: ١-١٣].

فـأمسك عـتبـة على فيـه، وناشده الرحـم، ورجع إلى أهله، ولم يرجع إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا:

يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبأت.

فغضب وأقسم لا يكلم محمدًا أبدًا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ «صاعـقة مثل صاعقة عاد وثمود» وأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن مـحمدًا إذا قال شـيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

ذلك قول رسـول قريش، فهل يكون تكذيبـهم لنبوة النبى إلا ضـربًا من اللغو الذى يرتد أوسمة فخار إلى صدر رسول الله.

شـهد الأنام بـفضله حـتى العـدا — والفـضل مـا شهـدت به الأعـداء

ومـا أندى مـواسـاة الله لمصطفـاه — . . . .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٥].

وحاش أن يكون قد كبر على الرسول إعراض القوم أو شق عليه تكذيبهم بعد أن قال فى يوم عاصف شديد «**إن لم يكن بك غضب فلا أبالى**».

ولقد كان يتألف أصحابه ويشد بينهم فى مدرسة الوحى عرى أخوة يسبقهم صلوات الله عليه إلى الانفعال بها فيقول: «**سلمان منا أهل البيت**» وهو فارسى، ويقول: «**بلال جلدة ما بين أنفى وعينى**»، ويقول لعمر: «**لا تنسنا من دعائك يا أخى**» .ويشيد بخصائص فى كل فرد منهم ترفع من نفسه ويزداد بها ارتباطًا بالرسول والرسالة التى اختارهم الله ليكونوا قلوبها الواعية وألسنتها الناطقة وأمثلتها الصادقة فى كل ما يشرف الإنسان... فأبو بكر رجح إيمانه إيمان المؤمنين، وعمر لو رآه الشيطان سالكًا فجًا لسلك فجًا غير فجه، وذو النورين يقول له الرسول بعد أن لقيت زوجتاه رقية وأم كلثوم ربهما ولم يبق بعدهما من بنات الرسول من تتزوج «**لو كان لنا ثالثة لزوجناك**»، وما أدل هذه الكلمة المضيئة على المعانى التى جعل الله بها الزواج آية من آياته ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، ويقول فيه الرسول وقد جاء يوم تبوك بمال كثير: «**اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض، ما يضر عثمان ما فعل بعد اليوم**».

ويعرف لعلى قرابته ومصاهرته وعلمه وشجاعته فى الهجرة والخندق وغيرهما.. ويقول لابن مسعود «**اقرأ علىَّ القرآن**»، ويمنحه تقديرًا لا تساويه أكبر المؤهلات العلمية وهو يقول: «**من أحب أن يسمع القرآن كما سمعته من قراءة أخى جبريل فليسمعه من قراءة ابن أم عبد**» أى عبد الله بن مسعود.

ويقول عن أبى عبيدة عامر بن الجراح: «**أمين هذه الأمة**».

ويقول فى أبى موسى الأشعرى: **«لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود»** إشارة إلى حسن تلاوته للقرآن. ويبقى من صور تألفه لأصحابه فى مكة والمدينة زاد وأمداد للذين يريدون تسجيل هذا الجانب الإنسانى من جوانب رسول الله، والحاجة فى ذلك ماسة لكل من يخالط الناس وتشتبك أعماله بأعمالهم.

أعطى صلوات الله عليه أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل، وصنع مثل ذلك بالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وسهيل بن عمرو، فقال الناس: أتعطى هؤلاء وتدع جميل بن سراقة الغفارى؟؟ فقال ﷺ: **«جميل خير من طلاع الأرض من مثل هؤلاء، ولكنى أعطى هؤلاء، أتألفهم، وأكل جميلاً إلى ما جعل الله عنده من الإيمان»**.

إن هؤلاء النفر أسلموا بعد أن أخذت سيوف الحق من أعناق الشرك، ودق الرسول وصحبه أبواب مكة التى أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. وانتظموا فى صفوف مدرسة الوحى بعد أن قال رجل ذكى أريب كأبى سفيان «لو علمت أن مع الله إلهًا غيره لاتبعته ولكنى أشهد أن لا إله إلا الله. ولم يتم الشهادتين حتى أنذره العباس عم الرسول وكان قد أسلم منذ قريب -وهداه الله إلى الإيمان وسوى الرسول بين بيته وبيت الله، وهو يرسل به إلى قومه فى مكة ليقول: **«من دخل البيت الحرام فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن»**.

وكان سهيل بن عمرو مفاوض قريش فى صلح الحديبية بعد أن تيامن به النبى وقال لصحبه **«سهل أمركم»** ولما فتح الله على المسلمين مكة ودخل النبى البيت الحرام ثم خرج فوضع يده على عضادتى الباب فقال **«ما تظنون أنى فاعل بكم؟؟»**.. فقال المشركون: «أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: **«أقول كما قال أخى يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف: ٩٢] ونفع القوم رفقة النبى صلوات الله عليه بالذين لم يدع السيوف تخاطب رءوسهم بعد أن استعرض فى ساعة النصر والقوة تاريخًا عن الظلم الشديد والحقد الأسود لا يغفره ولا يرتفع على التأثر به إلا محمد رحمة الله للعالمين.

روى صاحب الإصابة: «قال سهيل بن عمرو والله لا أدع موقفًا وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت على المسلمين مثلها، لعل أمرى يتلو بعضه بعضًا».

وهكذا يثمر البر بالأنفس الكبيرة برًا وخيرًا وإيمانًا وإحسانًا، وتخرِّج مدرسة الوحى رجالاً يمنحون عقيدتهم الأموال والأنفس، ويهجرون فيها الأهل والوطن، ونرى فقيرهم يربأ بإيمانه أن تدنسه المطامع معتزًا بما وعد الله المؤمنين فى عاجل أمرهم وآجله. ﴿ **فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وإننى أسوق لكل مسلم -والأعداء يتربصون بنا الدوائر فى كل اتجاه على هذا الكوكب -هذا المثل-:

زحف المسلمون إلى المشركين فى اليمامة حتى ألجأوهم إلى الحديقة -وفيها عدو الله مسيلمة- فقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقونى عليهم، فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحمه، فقاتلهم على الحديقة حتى فتحها على العدو ودخل عليهم المسلمون فقتل الله مسيلمة.

يا براء بن مالك، طيب الله ثراك، وحيا ذكراك، فلقد كنت بفدائيتك هذه جيشًا فى فرد.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وما كان البراء رضوان الله عليه -ممن يحرصون على المظاهر ويتهالكون كالفراش الأحمق على الأضواء، وإنما كانت بطولته أثر تربية نبوية استهدفت تهذيب الأرواح، وكبح الجماح، وتقويم التفكير الإنسانى على أساس من تعاليم الله ووصايا مصطفاه، والانفعال بخير ما حفلت به الحياة من كريم المبادئ وروائع المثل. ورحم الله أكثم بن صيفى، فقد عاد إليه رسولاه إلى النبى وأخبراه أن مما أوحى من القرآن قول الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠]، قال لقومه: يا

قوم أطيعـونى واتبعوا ذلك الرجل وأنتم رءوس قـبل أن تكونوا أذنابًا، فوالله الذى لا إله إلا هو إن هذا القرآن لو لم يكن دينًا لكان فى أخلاق الـرجل حسنًا». فقال صلوات الله عليه: «**إنه كلام الله**» فقـال الرجل: «إن هذا لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الرجال حسنًا».

وقـد روى أنس رضى الله عـنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «**كم من ضـعـيف مـسـتـضـعف ذى طمـرين لا يؤبه لـه لو أقـسم على الله لأبره، منهم البـراء بن مـالك**» والرسـول فى حكمه الفـاحص ذلك، كـان كأنما ينظر إلى الغـيب من وراء ستـار رقيق، فلقد لقى البراء زحفًا من المشـركين على المسلمين فقال الصحابة: يا براء إن الرسول ﷺ قـال: إنك لو أقسـمت على الله لأبرك، فـاقسم على ربك. فـقال: «أقسمت عليك يا رب لما منحـتنا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجع المشركون فى المسلمين، فقالوا يا براء اقسم على ربك فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقنى بنبى الله ﷺ، فمُنحوا أكتافهم، وقُتل البراء شهيدًا.

ومستجاب الدعوة أشبه شىء بإخوانه الذين استثاروا فيه معانى الصلاح والخير، وشهروا فى وجوه عدوهم سلاحه من صلته بربه، تلك الصلة التى لابد منها لكل نجاح فى حرب وسلم وشدة ورخاء وإنشاء وبناء.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

* * *

أمة قدسها القرآن [٣]

إن الإسلام ينتظم فى أحكامه المادة والروح معًا، ولا يسمح بطغيان إحداهما على الأخرى فى سلوك المؤمن، وهو بذلك أبعد نظرًا، وأسمى واقعًا من النظريات الجانبية الخاطئة التى يقول فى بعضها «جود» أستاذ الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن:

«إن النظريات المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظريات الاقتصادية، وأصبح البطن أو الجيب عنوانًا لكل مسألة، فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعتنون بها»!

ولقد رد رسول الله صلوات الله عليه إلى الصواب، أبصارَ الذين يؤثرون السمن والذين تتعلق أنفسهم بالدعة والعافية دون أن يقدموا بين يديها من طاعة الله أى ثمن، والذين يتعجلون اللذائذ وتهمهم صوالحهم الخاصة وإن هلك الناس، غافلين عن شؤم الأنانية، ونُذر حب الذات الذى يجتاح الإيمان فى مثل قول الرسول: «**ما آمن بى من بات شبعان وجاره إلى جواره طاو جائع وهو يعلم**».

روى جعدة الجشعى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً سمينًا فأومأ بيده إلى بطنه وقال: «**لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرًا لك**» يريد أن هذا السمن لو كان فى إيمان الرجل وفى نشاطه إلى معالى الأمر لكان خيرًا له وللحياة التى لا تزدهر ولا تشرق إلا بوقود من عرق الأحياء وحرارة حركاتهم البناءة... والمرء لا يرجح فى ميزان الفضل بشحم ولا لحم ولا يكبر بأب ولا أم، ولا يكون بياضه وحمرته وسيلة شىء من ذلك حتى تضىء جبينه فعال صالحة.

وماذا يعنى شرف الآباء بينما الأبناء قد أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم؟. وما جدوى نضرة وجوه أقوام، واستواء خلقهم إذا كانت قلوبهم جرداء خالية من نور الإيمان، وكانت أخلاقهم أبعد الأشياء عن الكرامة التى جمل الله بها الإنسان:

جمال الوجه مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوس

كان أصحاب النبى يتندرون بحموشة ساقى عبد الله بن مسعود ورقة عظامه حتى قال لهم النبى صلوات الله عليه **«الساق عبد الله بن مسعود أثقل فى الميزان من أحد»**.

ويوم قال أبو ذر لبلال يا ابن السوداء وجاء النبى فسلم مرات وأعرض الرسول عنه ولم يرد عليه حتى قال **«أنت الذى تعير بلالا بأمه؟؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، والذى أنزل الكتاب بالحق ما لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى، إن أنتم إلا كطف الصاع»**.

وفى رواية **«مثل بلال كمثل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر ثم هو حلو كله»** ولقد جاء بنو البكير يسألون رسول الله: أيزوجون أختهم من بلال؟؟ وكأنهم تقالوه، فقال صلوات الله عليه: **«أين أنتم من بلال»** فأعادوا سؤالهم فأعاد عليه السلام جوابه... حتى قال فى الثالثة **«أين أنتم من بلال؟؟ أين أنتم من رجل من أهلى»؟؟**

وفى هذا المجال تلتمع كلمة عمر: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعنى بلالا رضى الله عنه.

وكان جليبيب صحابيًا فى وجهه دمامة، فعرض عليه النبى أن يتزوج فقال: إذًا تجدنى يا رسول الله كاسدًا، فقال: **«إنك عند الله لست بكاسد»**، وخطب له ابنة أنصارى، فكره وزوجته هذه الخطبة وسمعتْ ابنتهما ما قال الرسول وما قالا، فقالت: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ثم قالت: رضيت وسلمتُ لما رضى لى به رسول الله ﷺ فدعا لها النبى قائلاً: **«اللهم اصبب عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدا»** فلما قُتل جليبيب فى غزاة مع النبى لم يكن فى الأنصار أيم أيمن وأنفق منها، أى أنها سارع إليها بكثرة طلاب الزواج. وكانت حفاوة الرسول بصاحبه بعد استشهاد امتدادًا لإعزازه له فى حياته.

عن ابن برزة الأسلمى أن النبى ﷺ كان فى غزاة فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه «**هل تفقدون أحدًا**؟؟ قالوا نعم فلانًا وفلانًا، ثم قال: **هل تفقدون أحدًا**؟ قالوا لا، قال «**لكنى أفقد جليبيًا فاطلبوه فى المعركة**. قال فوجدوا إلى جواره سبعة قد قتلهم، ثم قُتل، فقالوا يا رسول الله هو قد قتل سبعة ثم قُتل، فأتاه النبى فوقف عليه فقال: «**قتل سبعة ثم قُتل... هذا منى وأنا منه** -ثلاث مرات- ثم احتمله على ساعديه، ماله سرير غير ساعدى النبى صلوات الله عليه، ثم حفروا له فوضعه فى قبره دون أن يُغسَّل أو يُصلى عليه...».

هكذا ذكر القائد الراشد ﷺ جنديًا غاب عن خواطر صحابته، وصنع له ما يتقاصر دونه ما عرف الناس من صنع المدنيات المادية بشهدائها...

قال عوف بن بشير الجهنى «أصيب أبى يوم أحد فمر بى النبى ﷺ وأنا أبكى فقال «**أما ترضى أن تكون عائشة أمك وأكون أنا أباك**»؟ وما أكرم العوض وأجل البديل وأندى هذه المواساة من الرحمة المهداة، وبهذا الحدب الذى فاض من أعمق أعماق نفس لا ينضب معين برها. كان الصحابة يحبون النبى كما لم يحب أحد أحدًا، ويطيعونه ويأتمرون بأمره لإعلاء كلمة الله، وخذوا مثلاً من أمثلة يندر أن تجد لها فى تاريخ البشرية مثيلاً...

أرسل النبى صلوات الله عليه صاحب سره حذيفة بن اليمان ليتعرف حال قريش يوم الأحزاب، وكانوا كما قال الله ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ [الأحزاب: ١٠].

وفى ليلة عاتية كانت عواصفها تصم الآذان، وكان بردها يدمى الوجوه، تسلل حذيفة إلى حيث تجمع قريش بعد أن خذل نعيم بن قيس بينها وبين بنى قريظة، فسمع حذيفة أبا سفيان يقول محذرًا: **يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه** أى أحذروا العيون. وكان حذيفة قد تعلم فى مدرسة الوحى أن المؤمن كيس فطن لا تباغته الأحداث ولا يؤخذ على غرة، فبادر رضوان الله عليه المشرك الذى يجاوره؛ فأخذ بيده وقال بصوت فيه رنة التهديد: من أنت؟؟؟

قال فلان بن فلان، فتركه، ولم يفكر المشرك أن يسأل بدوره حذيفة من جليسه، وفعل مع مَنْ على شماله، ولبث الصحابى الجليل مستخفيًا حتى سمع من حديث أبى سفيان ومن حدثهم من قريش عرفهم على الإياب والنكوص على الأعقاب إلى مكة بعد أن انخذل بنو قريظة وقل علف الخيل والإبل وواجه المشركون من جند الله ما عظمت به منته فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] وليذهب تقدير المؤمن لجنود الله مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ...﴾ [المدثر: ٣١].

وعاد حذيفة بخبر القوم إلى النبى، فوجده قائمًا يصلى، فأشار إليه بالاقتراب منه وطرح عليه -صلوات الله عليه- حرفًا من ثوبه ليقيه البرد، وسأله الصحابة كيف تحملت هذا الزمهرير؟!! فقال «والله لقد كنت أشعر كأنى أسير فى حمام»...

إنها حرارة الإيمان لا ريب؛ تضاءل أمامها البرد الذى كان يرعش الأفئدة، ويدعو الصحابة إلى الإشفاق الهالع على حذيفة».

وحذيفة بعد حرى أن يكون -كما وصفه صحابة النبى -صاحب سر الرسول- ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن يزيد الخطمى عن حذيفة قال «لقد حدثنى رسول الله ﷺ ما كان وما سيكون حتى تقوم الساعة.

وقد سأله عمر عن الفتن أيها أشد؟ فقال حذيفة «أن يُعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيها تركت».

وليتعرف الذين يلون أمر الناس فى جوانب من العالم أنفسهم فى ضوء حكمة حذيفة... «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها»....

إن تدبر هذه الكلمة يؤكد أن هناك أقوامًا يكمدون وراء ظواهر من الأخلاق والسلوك تخلعها عنهم شمس الحقيقة، وتتركهم عراة من فضائل الإخاء والفداء والتضحية، فهم إذا دعاهم الحق إلى شىء من مواجهة الأخطار تركوا الباطل

يستطيل أمره ويتفاقم شره حتى يجدوا من غفلة الشعوب ما يمكنهم -مرة أخرى- من الوثوب إلى السيادة والتسلل إلى سلطان لا يرشحهم له عمل ولا كفاية.

ونسيان الشعوب إساءة المسيئين وصغار الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، ذنوب جسام يسلط الله بها عليهم من لا يرحمهم، وفى الحديث: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليهم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم**».

ونسيان الشعوب أنفسهم فى قول الله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩]، إنما هو جزاء خفة عقل وبلاهة التبس بها الحق والباطل واختلط الحابل بالنابل، وتشابه المعروف والمنكر، وبذلك تهون الكرامات وتسقط القيم، ويتقدم الدون، وتؤذن الدنيا بزوال. وقد روى ابن القيم أن الله عز وجل أوحى إلى بعض أنبيائه كلامًا منه: «ومن لم يعتصم بى فإننى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض فأدعه معلقًا فى الهواء ثم أكله إلى نفسه. وصدق الله العظيم ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

والسيادة فى الناس شرف ينبغى ألا تتطاول إليه الأعناق إلا بحقه...

كان سعد بن معاذ سيد الأوس قبل أن يهديه الله للإسلام، ثم سوده بعد ذلك دينه وعمله وبلاؤه فى مشاهد الحق وإعلاؤه حكم الله على هوى قومه حين حكمه الرسول فيهم، فلما جاء على حماره قال الرسول لهم «**قوموا لسيدكم**»، ولما دفنه رسول الله ﷺ وانصرف من جنازته، جعلت دموعه تحادر على لحيته، ويده فى لحيته، وندبته أمه، فقالت:

ويل أم سعد سعدًا ... براعة ونجدًا

ويل أم سعد سعدًا ... صرامة وجدا

فقال النبى ﷺ: «**كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد**» وقد سأل رسول الله ﷺ بنى سلمة: من سيدكم؟ فقالوا الجد بن قيس على بخل فيه -فقال صلوات الله عليه:

«وأى داء أدوأ من البخل.. إن سيد بنى سلمة الأفيض الحق البراء بن معرور...» ومضى ذلك مع ركب الحياة سلوكًا راشدًا ونهجًا سويًا، لا تكون السيادة بحق إلا على أساس منه. قال معاوية بن أبى سفيان لجرير بن أوس الطائى: من سيدكم اليوم؟ قال جرير: من أعطى سائلنا وأغمض عن جاهلنا، وأغفر زلتنا. فقال معاوية: أحسنت يا جرير.

وقيل لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن البصرى، استغنى عن دنيانا واحتجنا إلى دينه. ويوم يسود غير السيد المال، ويعيش بعض الناس فى ثياب قد استعاروها من شرف الآباء والأمهات دون أن يحسنوا بعدهم عملا أو يحققوا لأنفسهم أو لغيرهم أملا، يترك تشارفهم ذلك ندوبًا شوهاء فى وجه الحياة لا تلبث أن يستطيل أمرها وتستعصى السلامة منها إذا لم تتضافر قوى المصلحين الغُيَّر على مكافحتها واستئصال جرثومتها غير وانين ولا مترفقين.

كان سيد ولد آدم صلوات الله عليه، بما طبعه الله عليه من خلال الخير سيد المرسلين وصفوة الله من خلقه، وأى سيادة منذ كان الناس وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها -يمكن أن توضع فى كفه ميزان وتوضع فى الكفة المقابلة لها بعض أمجاد النبى الذى أقسم الله على كمال خلقه وأكد ذلك بكل ما حفلت به لغة القرآن من مؤكدات بعد القسم من الجحة الاسمية وإن ولام التوكيد فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] النبى الذى جعل الله الإيمان به قرين الإيمان بالله، واتباعه سبيل محبة الله، وأقسم سبحانه بحياته صلوات الله عليه صورة فذة رائعة لم تعرفها الحياة إلا فى قول الله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] ثم لا يؤمن مؤمن ولا يؤذن مؤذن، ولا يصلى لله مصل إلا وهو يقرن بين الشهادة بالله بالوحدانية وبين الشهادة لمحمد بالرسالة.

وشق له من اسمه ليبجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

وأى سيادة وراء أن يقول من له الخلق والأمر لمصطفاه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] فلا يزداد معلم الناس الخير إلا عرفانا بربه وبالأمر الجليل

الذى انتدبه له ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وبما يوجهه من نشاط وسبق إلى جلائل الأعمال، فهو يسارع صلوات الله عليه، إلى استطلاع ما يحسبه خطرًا يهاجم المدينة ويفاجئ المسلمين وهم نيام.

عن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد نزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت، واستقبلهم النبى قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول «**لن تراعوا، لن تراعوا**» وهو على فرس لأبى طلحة عرى ما عليه سرج، فى عنقه سيف فقال «**لقد وجدت بحراً أو إنه لبحر**» وهو صلوات الله عليه فى بدر وفى غيرها يواجه الخصوم ويسهم فى القتال ويترك من روائع التكتيك الحربى ما لم يعرفه كبار العسكريين إلا أخيرًا وناله من أذى الأعداء بعض ما نال المؤمنين.

قال على رضوان الله عليه «كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق وحمى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه».

* * *

إنه القرآن كتاب الحياة والأحياء

القـرآن الكريم يثيـر العجب والإعـجاب على سـواء مهـما رددت فيـه نظرك، وأعملت فكرك، وجعلتـه أمامك فى شتى مواقـفك وأحوالك، فهو كتـاب الحياة بأسرها، كـتاب الأحياء والأشيـاء والقضايا والشئـون نعتًا أو إشارة وتصـريحًا أو تلميحًا بمقتضى علم الله وحكمته ورحمتـه بعباده الذين لم يخلقهم -حاشاه- عبثًا ولم يتركهم سدى، وإنما خلقهم لعبادته التى يعود نفعها إليهم كما قال الإمام على كرم الله وجهـه «وأوامر الله ونواهيه. جليـة شاهدة فى كتابه بأنه تعـالى لم يتركنا سُدى نمضى فى الحياة على أهوائنا لا على منهج الله الذى ما أمر إلا بخير ولا نهى إلا عن شر ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] لا يضل فى الدنيـا ولا يشـقى فى العقـبى، أو لا يضل عن الصواب، ولا يشقى فى دنيا العمل بعد أن أخذ من الله بالأسباب، واعتصم بحبله وآثر سبل الله على مزالق الإثم وطرائق الـشيطان وإنه ليقـدم بين يدى الله ورسوله ﷺ من تألق نور القرآن أمام أعينهم فـأغمضوا دونه الأبصار، وتشاغلوا عن هداياته بأفكارهم، وآراء سواهم ممن فاتهم الاعتـبار بكلمات الله التى استوعبهـا كتابه الخاتم، بعد أن عرفت البشرية أطرافًـا منها فى الرسالات الأولى، أدت وظيفتها فى أحـيانها حتى جاء القرآن كتاب الرسالة العامة، فـجدد أمنها، ووضعها قيد الأبصار والبصائر مع ما أسلفت من بيان وفاء القرآن بقضايا الأحياء والحياة بأسرها وجل الله الذى جعل لكل أمة شرعة ومـنهاجًا حتى كانت الرسالة الخاتمـة فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣].

إن إقامـة الدين وإفراد الله تعالى بتوحـيده، حيث لا صاحـبة له ولا ولد ولا شريك يعينه على بعض أمره، نقطة التقاء بين رسالات الله جميعًا، فما من نبى إلا قال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، قالها هود لعاد

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقالها صالح لثمود: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقالها شعيب لمدين: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهكذا فى سورة واحدة وهو يطالعك بمزيد فى عديد من سور هذا الكتاب الذى أرسى عقيدة التوحيد، ودمدم على الشرك والمشركين وأقام الحجة على منكرى النبوات والمرتابين فى المعاد الذى تُجزى فيه كل نفس بما كسبت، ليقوم قائم الحق، ويعلو سلطان العدل، ولا ينفع الظالمين معذرتهم، ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وما أكثر ما يثيره القرآن من عجب وإعجاب كلما ردت فيه طرفك وأعملت فيه فكرك وعقلته بقلبك.

* * *

القـرآن الكـريم يهدى للتى هى أقوم

القرآن الكريم كـلام الله تعالى، فكماله وجـلاله وجمـاله أمور لا يرتاب فيـها منصف، لأن الكلام صفـة المتكلم كمـا قالوا، وقد تفـرد الحق تعالى بـكل جلال وجمال وكـمال، وأفاض من ذلك حظوظًا تتـفاوت بين الناس والكائنات ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

ولقد سمع أكثم بن صيـفى حكيم العرب قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠]. . .

فقال لقومه: «إن هذا لـو لم يكن دينًا لكان فى أخلاق الرجال حسنًا، يا قوم: أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل، وكونوا باتباعه رءوسًا، قبل أن تكونوا أذنابًا».

وما أكثر الذين أخـذهم جلال القرآن، وغلبتهم حـجته، وثنى عنان عصبـيتهم لأوثانهم وموروثات آبائهم بيانه وشـموله ومخاطبته للعـقول والقلوب على سواء، وألقى إليه السمع نفر من مشركى قريش فى لحظات من صحو ضمائرهم، وآخرون من غيرهم فى أعصـار تلت عصر الرسالة، وفى أقطار وأمصار حين أنعموا النظر فى آيات من القـرآن، وزالت حـجب الأهواء التى صـرفت أضواء كـلام الله عن الوصول إلى بصائرهم آنًا بعد آن.

يقول المرحـوم الشيخ عـبد العزيز جـاويش فى كتابـه «الإسلام دين الفطرة» - بتصرف يسير:

«لقد جمـعتنى المصادفات برجل مـسلم من الإنجليز لم يرج بإسلامه شـيئًا من حطام الدنيا ولا أن ينال جـاهًا يتخذه عدة لنيل شىء من الرغـائب السياسيـة فقال لى: «إن فى القرآن الكريم آية لا أمل من تكرارها ولا ترديد النظر فيها، جاءت فى

وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الأديان الأخرى -على ذكائهم وسعة اطلاعهم -أن يأتوا به، ثم قرأ معانى آية الكرسى بلغته الإنجليزية» وسأل الشيخ جاويش «أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك إلا وأنت لاه عنها تلعب؟ أو حركت بها لسانك إلا وأنت بها تعجل؟»».

وما يوفى بعض حق القرآن من التنويه والإشادة بشر، مهما كد قريحته، وأجهد ذهنه، وأرخى لقلمه العنان، بل إن البشر كلهم حين تتكامل أعمالهم العلمية، ويتواصل جدهم فى هذه السبيل، لن يبلغوا عشر معشار ما ينبغى للقرآن الكريم من عرفان وتقدير، ولكنهم -لا ريب- سيشعرون وهم يتعاهدونه ويتدارسونه ويروون به شجرة الإيمان بين أضالعهم -بالشرف الذى يضفى عليهم مطارفه، ويسبل ثيابه، ويرخى جلبابه، ويضىء من حولهم المكان والزمان حولهم المكان والزمان جميعًا.

وأى شرف يعدل أو يقارب شرف الذين يناجون الله بكلامه، ويحكون وحيه إلى خلقه، ويشغلون أنفسهم بحفظ ما أوحاه -سبحانه- من الذكر الحكيم إلى مصطفاه صلوات الله عليه، فأداه كما بلغه، وكانت أعماله وأقواله تفسيرًا وتطبيقًا لوصايا الله وتوجيهاته فى الكتاب الخالد، ومضت أعمال الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين مجال قدوة طيبة وأسوة حسنة بالرسول الذى قال له مولاه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال للمسلمين، والوحى ينزل وإلى قيام الساعة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد كان ذو النورين عثمان بن عفان -رضى الله عنه- يديم النظر فى المصحف ويكثر من التلاوة فيه بعد أن جمع المسلمين فى شتى أقطار الإسلام يومئذ على المصحف الإمام، فلما سُئل فى ذلك التعاهد والتدارس الموصول للقرآن قال:

«إنه كتاب سيدى ، وحق على العبد إذا جاءه كتاب سيده أن يكثر قراءته ويطيل النظر فيه».

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: **«تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصيًا من الإبل فى عقلها»** والتفصى: التفلت. والنظرة المتأنية فى هذا الحديث تبرز أن الرسول صلوات الله عليه أراد بتعاهد القرآن، حفظه وتلاوته ودراسته لاستخراج أحكامه، ابتغاء العمل على أساس من فهم حلاله وحرامه، وأخذ أوامره ونواهيه عملاً وتركًا، فبذلك يبقى القرآن محفوظًا فى الصدور، ثم يتفجر منه النور فى دنيا أهله ومجتمع ذويه، لا ينخلع عنهم ولا يتفلت بحال منهم، وما أعظم تشبيه رسول الله صلوات الله عليه لمن يتفلت منه القرآن بالناقة التى تفلتت من عقالها، وهو تشبيه معقول بمحسوس يثير فى الأنفس الانتباه إلى هذه الصورة، التى تزيد العقلاء حرصًا على القرآن والضن به على التفلت والنسيان، وتدارسه والاهتداء بهديه على كل حال.

إن النبى صلوات الله عليه يوجب بهذا الحديث وأمثاله فى صحيح البخارى وصحيح مسلم وغيرهما، أن نشغل أنفسنا بالقرآن الكريم حفظًا لآياته، وتلاوة لجمله وكلماته، وتأملاً فى معانيه، واستخلاصًا لمغازيه ومراميه، واستلهامًا لهداياته فيما نأخذ وما ندع من التصرفات والأقوال، حتى تقوم حياتنا على قواعده رخية رضية فنسعد بالقرآن فى صنع الحياة كما أرادها الله، وقيام المجتمع الأمثل كما قام لأول مرة فى مجتمع المدينة، المؤمنون فيه كنفس واحدة **«تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد من على سواهم»** كما قال المعصوم صلوات الله عليه، ويجد غيرهم الأمن والدعة والرخاء والسعة حقائق واقعة منذ قال محمد صلوات الله عليه: **«أحب أن يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة»** ومنذ استفاض فى الناس مبدأ الإسلام الكريم ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وحتى نسعد بتعاهد القرآن فى حياة وراء هذه الحياة، يوم يُشفِّع الله رمضان والقرآن فيمن صاموا الشهر، وصانوا عهد كتاب الله كما ورد فى الصحاح، والنبى صلوات الله عليه يقول: **«من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»**.

ثم لا يذهب بشىء من شكاة الرسول صلوات الله عليه التى حكاها الله بقوله ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ [الفرقان: ٣٠].

ويوم استجاب المسلمون لما أوجبه الله تعالى ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]، وتعاهدوا القرآن كما أمرهم الصادق صلوات الله عليه، وكانت قلوبهم له أوعية، وألسنتهم به رطبة، وعقولهم له فاهمة واعية، لا يستأخرون عنه قيد شعرة ولا يستقدمون، كانوا بذلك أعلام الهدى وأئمة الخير، عن أمرهم يصدر الناس، وإليهم، والقرآن هاديهم يحتكم سواهم، فكل ما عرفت الدنيا من قوانين وقيم وأعراف تختلف من عصر إلى عصر، وتتباين عند أقوام وأقوام، ويبقى القرآن -كتاب الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ويعلم من خلق- ظاهر الحجة، سوى المحجة، لا يزيغ عن سبيله راشد، وكانوا يستمسكون بحبال القرآن ويعطونه الولاء والإذعان وهو يعطيهم أمره فى كل اتجاه، فى طاعة الولاة الراشدين، وحب المؤمنين، والإحسان إلى من تجمعهم بهم فرصة زمان، وإن لم يعطفهم إلى دين الله إنصاف، والترفق فى الدعوة إلى الله، والحرص على ذلك بالسلوك والعمل قبل الأمر والتوجيه، فإذا أمرهم بغير ما فى كتاب الله آمر، قالوا: «لقد جاءنا كتاب الله قبل أن يأتينا كتاب الأمير» فقد سمعوا الله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ١].

ويؤدب المسلمين جميعًا وهو يقول فى شأن زينب بنت جحش وأخيها ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كان المسلم يمشى فى الأسواق، أو يعمل فى الآفاق، أو يتوقف عن العمل العام ليصل رحمًا أو يجم نفسًا أو يأخذ حظًا من طعام، أو يسكت عن الكلام، فلا يراه الناس إلا قرآنا يخالط الناس، ويعيش معهم بكل حال، فلما قلت العناية بالقرآن، وخف سلطانه فى مـجتـمع أهله، كان مـا كان مما يواجهـون فى أقطار وديار من ضنك العيش، واضطراب الأمر، واستطالة الأعداء.

إن القـرآن الكريم هو قانون شـريعـتنا ودستـور عـقيـدتنا، وسـجل التكاليف والفضائل التى أرادها الله لنا، وإن فضله على غيرنا كفضله علينا لقائم، فهو الذى يروى صادقًا أنباء من غبر من المرسلين والأمم، من آمن منهم ومن كفر، ومن وفى بعـهـودهم ومن غـدر، ومن جـحـد فـضلهم ومن شكر، ولولا القـرآن الكريم لانطمست معـالم الحق وقامت عليها للباطل والضـلال والأهواء صروح شوامخ، ولكان التاريخ خليطًا من المزاعم والآراء التى تتشابك وتتشابه كقطع الليل المظلم لا يظهر فيها للصواب نجم، ولا يلوح ضياء.

والقرآن الكريم مع هذا الفيض، من فـيض جلاله وكماله، يحفظ على العرب والمسلمين لغـتهم، ولولاه لنجـحت حروب ومكايد اسـتهدفـت اللغة العربـية فى أعصار تتـابعت وأمصار، وما يزال بعضـها يلبس ثياب إصلاح اللغـة العربية تارة ويجد لإشـاعة العاميـة أخرى ويرى ضرورة لغة أجنبـية، تجدى -بزعمهم.. فى حضارة الأمـة وتقدمها العـمرانى ما لا تجدى اللغـة العربية، مما يصرخ به أدعياء المعرفـة أحيانًا ويهـمسون به أحـيانًا فى جهـد وإصرار تدعمـهما قـوى شريرة بين جنوبها كحز المدى ضـيقًا بالإسلام والقرآن ولغتـه الباقية وإن ورمت أنوف وتمزقت مرائر وطاشت حلوم.

ولقـد يستطيع الخلف أن يبلغـوا عنان الزمان بالـقرآن، فـيكونوا مرة أخـرى بتعاهده سادة الدنيا وأساتذة العصر، وما أولاهم بذلك خدمة لأنفسهم لا للقرآن سجل مفاخرهم وثبت عزتهم وكرامتهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

قبل أن يصدق وعيد الله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن عجب أن يكون فى مجتمعنا ناس يحفظون الكثير مما يسمونه علوم الفن، ومن فنون الأدب والشعر الهابط، وأدب «اللامعقول» ويصدعون الرءوس بعلوم النفس والاجتماع التى يلبسونها «قبعات» ومكانها فى التراث الإسلامى بارز مستعلن، ويعرفون الكثير عن علماء فى القديم والحديث من وراء حدودنا ومن داخلها، ويسمعون لمن يشيع فيهم رأيه بعد أن قرأ عن «البوذية» التى كتب عنها أخيرًا من كتب، وقال «إنها دين يقوم على المنطق والعقل وعلم النفس والأخلاق ويحطم الخرافات والغيبيات» إلى آخر ما قال.. وهل الغيبيات فى أحسن ما نؤمن به منها إلا الله وملائكته ورسله وما حدثوا به أقوامهم من كلمات الله وما أخبروهم به من بعث فى اليوم الآخر ومن حساب يجزى الله بعده كل نفس بما كسبت فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، أو فى نار وقودها الناس والحجارة وبئس مثوى الكافرين؟!

ولكن هؤلاء وأولئك يجهلون القرآن وعلومه، تضيق صدورهم بهداياته. فينظرون إلى حفظته نظرتهم إلى سقط المتاع، وإلى الشىء الذى لا يناط به انتفاع، ويحتجبون دونه مطالب العيش وحاجات الحى، ولو عقلوا لقدموا هؤلاء الذين يضيفون إلى حفظهم لكتاب الله نظرهم فيه، وعملهم به، ومحاولة وصل الناس بحبل الله، ودعوتهم إلى مائدته ومأدبته الكبرى ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ولقد ضرب الرسول صلوات الله عليه الأمثال لحفظة القرآن من المسلمين التالين له، العاملين به، بالأترجة وهى فاكهـة حلوة طيبة الريح، ناعمة الملمس، جميلة الشكل، كبيرة الحجم، فوائد قشرها وليـها كثمرتها نافعـة كثيرة. كما ضرب المثل للمسلم الذى لا يقرأ القرآن قراءة وعى وتدبر بالتمـرة طعمها طيب ولا ريح فيها. وضرب للفاجر -أو المنافق- الذى يقرأ القرآن مثـل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر. وضـرب لمن لا يقرأ القـرآن منهما مـثل الحنظلة طعمـها مـر ولا ريح لها.. وصدق الله العظيم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

• نص القرآن فى حياة الشيخ:

وددت لو تعود لكلمات الله هيمنتها وقدرتها على صنع الحياة وصوغ المجتمعات البشرية مرة أخرى، بعد أن صـرفت الكثيرين عن القرآن صوارف الوجود، وفتنت الذين يمارون فى حقـائق لا يمارى فيها منصف وفى القـمة منها: أن كـتاب الله قد جمع ما تفـرق فيما سـبقه من رسالات ربنا إلى المصطفين الأخـيار. وأضاف إلى ذلك ما تحـتاج إليه البشـرية إلى اليوم وحتى قيـام الساعة من توجيـهات ولطائف إشارات تبدو لمن ألقى إليها السمع، وفتح عليها عقله وقلبـه وكأن عهدها بالسماء الساعة، ورحم الله الإمام البوصيرى إذ يقول:

الله أكـبـر إن دين محـمـد ... وكـتـابه أقـوى وأقـوم قـيـلا

لا تذكـروا الكتب السـوالف عنده ... طلع الصـبـاح فـأطفـأ القـنديلا

ولقد كان يسمع بالقرآن كل ليلة من بيـوت الصحابة رضوان الله عليهم كدوى النحل، وكان ابن عـباس رضوان الله عليهـما يرى قلب الرجل ليس به شىء من القرآن كأنه الـبيت الخرب، ولقد أسـرفت زبيدة زوج الرشيد فى اقـتناء الجوارى، وكان لهـا منهن مائة حافـظة للقرآن الكريم، تقرأ كل جارية مـنهن عشرًا، حتى

يكون فى بيتهـا القرآن كدوى النحل. وكانوا فى الأندلس الإسلاميـة يضيئون كل ليلة سراجًا على بيت المرأة الحافظة للقرآن الكريم، تعريفًا بها وتـقديرًا لها وإشادة بقلبهـا الذى جعله الله وعاءً لكتـابه. . فأين النساء من النسـاء؟ وأين الرجال من الرجال؟

أمـا الخـيـام فإنـهـا كـخـيـامـهـم وأرى نسـاء الحى غـيــر نسـائهـا

إن الأمل كبير فى أن تعود للقـرآن الكريم مكانته وأن يسترجع مكانه من قلوب المؤمنين وغـيـر المؤمنين ممن ينشـدون أحسـن الحـديث، وأبـلغ الكلام، وأحـفـل القول بالحق والصـدق والنبل والفضل، وما زلت أذكـر جارًا لنا يوم كنا طلابًا فى الدراسة الثانوية بمعهد طنطا فى أوائل العقد الرابع مـن هـذا القرن، وكان هذا الجار مسيـحيًا من كبـار موظفى مديرية الغربيـة يومئذ، وكان يصغى ويدعـو أسرته لمثل ذلك إذا قرأ أحدنا القرآن فى شرفة مـقابلة لشرفة بيته، وكان يدعو أبناءه إلى حفظ أكبر مـا يستطيعون حفظه من القـرآن الكريم كتاب الحيـاة كلها دينًا ودنيا، عقيدة وعبادة وسلوكًا ومنهج حياة. .

وكان للرجل أشـباه كثـيرون فى أوساط غـير المسلمين، من المثقـفين والمحامين ورجال القانون الذين قـال لى أحدهم مرة فى لقاء جماعى مع زعـيم يومئذ: إننى درست وتعلمت فى الأزهر، فلمـا أثار بذلك عجـب الزملاء واسـتغـرابى، بادر يقول: لقد درست الشريعـة الإسلامية فى كلية الحقـوق على يد شيوخ أجلاء من الأزهر»! وكان الرجل نابه الذكر ببلاغته ذائع الصيت فى ناس عصره.

والأمل كبيـر فى أن يظل الأزهر ومعاهده وروافده من جـمعيات تحـفيظ القرآن الكريم ومثلها فى أقطار إسلامـية وبلاد عربية، على العهد بهم، سدنة كتاب الله، بعد أن طغت قوانين التعليم العام على العناية بالقرآن فى كتاتيب تلقفتنا وأمثالنا فى القرى، وتلقفت غيـرنا جمعيـات وكتاتيب فى المدن حتى حفظنـا القرآن فى نهاية العقد الأول وأوائل الثانى من أعمارنا، وكان القرآن منطلقًا إلى دراسة بعض قواعد اللغة وقطوف من الشعر الذى حفظناه قبل أن نكون طلابًا فى المعاهد الدينية.

ولعل القارئ الكريم ما يزال على ذكر من قول الرسول «**تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفـصيًا من الإبل فى عُقُلها**» فإنه صلوات الله عليه قد شبه القرآن بالبعير الذى تخشى منه التفلت والشراد، فما دام تعاهده بالعقال لم يخش نفوره، أما إذا أهمل فـإنه يشرد ويتـفلت ويصعب رده، والأمر كـذلك فى القرآن الكريم نقرؤه ونعنى به فـيقبل علينا بقدر إقبـالنا عليه، فإذا من كان تركـه يرعاه ويجعله سمـيره فى خلوته، وأنيســه فى وحدته، ولى نافرًا، وذهب لا يلوى على شىء، وبقى للمصروفين عنه ما استحوذ عليهم من لغو الحديث، وزيف الكلام، ولا يزال يزداد بُعد القرآن عمن أبعدوه عن رعايتهم، حتى يشق عليهم أن يجدوه كما ألفوه قريبًا منهم ﴿**تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ..**﴾ [النحل: ٨٩].

هذا هو القـرآن الكريم ما يزال يـحفظ منزله ومـوحيـه، يفيض النـور ويشفى الصدور ويهدى للتى هى أقوم، ويقص علينا فى صدق وأمانة أنبـاء ما قد سبق، وهو قادر اليوم وغدًا وإلى آخر الزمـان على أن يجعل أهله كما كان أوائلهم، خير أمة أخرجت للناس، فصلوا أنفسكم به، وامضوا بهداياته إلى النصر على الأعداء والإمامة فـى الأحياء، والدعة والسـعة والرخاء.. والله المسئـول أن يصلنا بكتابه، وأن يؤدبنا بآدابه، وأن يجعلنا من عـباده ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ١٨].

* * *

هكذا اعتنوا بالقرآن

رحم الله أسلافنا بقدر ما أيقنوا أن القرآن الكريم زمام عقيدتهم ونظام عبادتهم ومنهج سلوكهم وتصرفاتهم، ففيه «نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» كما صح فى الأثر الشريف.

وما زلنا نجد من أنبائهم ما يوجب أن نعطى القرآن الكريم ولسانه المبين. مزيدًا من العناية والرعاية. وخذوا من سيرة عمر رضى الله عنه أنه كان يرسل إلى القبائل قارئًا فيستعرضهم قبيلة قبيلة، ثم يعاقب من لم يحفظ شيئًا من القرآن، وكان أبو الدرداء يجلس بعد صلاة الصبح فى جامع بنى أمية بدمشق وحوله المسلمون للقراءة عليه، فكان يصفهم عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفًا، ويبقى هو فى المحراب يرمقهم يمنة ويسرة، فإذا غلط أحد المتعلمين رجع إلى عريفه فإذا غلط عريفه رجع إلى أبى الدرداء فصحح غلطه.

وقد أحصى أبو الدرداء يومًا تلامذته هؤلاء فزادوا على ألف وستمائة. واعجبوا معى من هذا الخبر «فى العصر الأول، كتب عبد العزيز بن مروان -والى مصر- مصحفًا واعتنى بضبطه وأعلن أن من وجد فيه غلطة فله فرسٌ وثلاثون دينارًا، وروى أن أحد القراء وجد فيه كلمة «نجفة» بدل كلمة «نعجة» فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ﴾ [ص: ٢٣] فنال الجائزة، ويا من تبيعون إلى الهابط من بعض وسائل إعلامنا آذانكم وأذهانكم وألسنتكم التى تردد ما تسمع خذوا هذا الخبر. «قال الإمام الشافعى: رأيت سفيان بن عيينة قائمًا على باب كُتَّاب، فقلت له: ما تصنع ههنا؟ فقال: أحب أن أسمع كلام ربى من فم هذا الغلام».

وبارك الله فى الإحسان يثنى عنان المنصفين إليه كلما جاءهم من كبير أو صغير.

فالعلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

ولقد كان عمر بن عبد العزيز بحق ابن أخواله من أبناء عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، فـقد تربى ونما وترعـرع كالنبت الـطيب فى رياضهم بمدينة رسـول الله ﷺ. وما ينبغى أن تغيب عن خواطرنا مراحل حياته التى نأخذ منها قوله:

تعـلَّم فلـيس المرء يـولد عــــالمًا   وليس أخـو علم كمن هو جـاهل

وإن كـبـيـر القـــوم لا علم عنده   صـغـيـرٌ إذا التـفت عليه المحـافل

وهو ليس مـجرد قول أمـير أو وزير، ولكنه قـول عمـر بن عبد الـعزيز الذى أنصف غلامًا أراد أن يتكلم باسم وفـد الحجاز الذى جاء يهنئ عمر بـالإمارة فقال له: يا غلام ليـتكلم من هو أسن منك. فإذا بالغلام يرد بصـولة العلم والحق قائلاً «يا أميـر المؤمنين إننا وفد الـتهنئة لا وفـد المرزأة. ولو كان الأمـر بالسن لكان فى المسلمين من هو أولى مـنك بالإمارة. ولكـن الله عز وجل إذا رزق الإنســان قلبًـا حافظًا ولسانًا لافظًا استوجب الكلام واستحق الاحترام». وعند ذلك أنشد عمر ما أنشد. وياليت الذين يستعلون بالصدور والأكتاف والأصوات الراعدة فى غير طائل يسمعون ويعون ويضعـون الناس فى مواضعهم بالعدل والصواب بدل أولئك الذين يبدون فى صدور المجالس لمجرد المال والآل والنسب ممن عناهم من قال:

إذا لم يكن صــدر المجالس سـيدًا   فلا خـير فـيمن صـدرته المجالس

وكم قـائل مـالـى رأيتك واقـفًـا   فـقلت له: من أجل أنك جـالس

وواشوقاه إلـى يوم تعتدل فيـه الموازين فنأخذ الإيمان والقرآن واللسان تـرجمان الإنسان والإحســان فيما نقوم به من أعمـال وتصرفات فى حياة لم يدم فـيها ملك ولا سطوة سلطان.

والخـيـر أبقى وإن طال الزمـان به   والشـر أقـبـح مـا أثلت من زادى

* * *

القرآن منهج حياة

فى الناس من يعجبهم قول فلان فى الحكمة، وقول آخرين فى الأدب، وطريقتهم فى السياسة والحكم، وفيهم من تطيب أنفسهم بإفاضة هذا أو ذاك فى موضوع دينى أو دنيوى، ولو أن العقول تعى وتدرك بالقدر المراد منها لرأت كلام رب العالمين فوق كل كلام عرف ويعرفه الناس إلى آخر الزمان.. وما نضع كلام الله موضع الموازنة مع غيره..

وما يستوى وحى من الله منزل   وقافية فى العالمين شرود

إن كل كلام يمكن أن يكون للنظر والرأى فيه مجال، وقد يكون يسيرًا على كثيرين أن يضيفوا إليه أو ينقصوا منه، وينحوا بعضه عنه، ويبقى ومعناه بالقدر الذى يناسب صاحبه، ويبقى القرآن الكريم على عهده بالسماء، وبأمين الوحى كما تنزل به على سيد الأنبياء، فلقد حفظه الله من الأهواء، وقصرت عنه عزائم الأعداء الذين أرادوا ما أرادوا فرجمهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إن كل ما فى الدنيا تغير، ويتغير، وكم من أنظمة وقوانين ومناهج حكم وقضايا حُسبت من العلم وغزت عقولاً فى أحقاب من الزمان بعد أن ابتدعها الإنسان وبَعُدَ بها عن هدايات الرحمن، وصُنعت لها دعايات، ورُفعت بها شعارات، ثم عفا عليها الزمان وكسفتها شمس الحقائق الإلهية وولت كأمس الدابر، وسيمضى فى إثرها غيرها مما صنع البشر وخدع الناس.

ويبقى القرآن هبة الحق إلى الخلق، ونعمة واهب القوى والقدر على البشرية بأسرها، محفوظًا بحفظ الله ملحوظًا بعينه التى لا تنام، وقدرته التى لا ترام، والله غالب على أمره.

نزل القرآن بـلسان عربى مـبين على النبى ﷺ وذلك شـرف للعرب يسـتوجب شكرًا، ويضع على كواهلهم لغـيرهم ممن لا يحسنون اللسان العـربى حقًا، هو أن يفرغوا الوسع فى تعليم لغة القـرآن لإخوانهم الذين لابد أن يرتبطوا مثلهم بالقرآن قراءة وفهمًا وتلاوة وعلمًا. إننا بذلك نقوم بدور باسل فى تبليغ الإسلام وأداء حق الدين على المؤمنين، ونستوجب بذلك دعوة النبى ﷺ: «**نضر الله امرءًا سمع مقالتى فوعاها وبلغها كما سـمعها فرب مبلغ أوعى من سامع**» وهو صلوات الله عليه يقول: «**بلغـوا عنى ولو آية**». ولقـد كان أعجلى شىء عنـد رسول الله وأنداه أن ينزل عليـه جبريل بكلام الله، وكان يود صادقًا أن ينزل جبريل عليه بذلك ودون انقطاع ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد.. ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم: ٦٤].

وكان رسول الله يبلغ أصحـابه الآيات فور نزولها عليه ووحيها إليـه، فيجدون حلاوتها ويدركون طلاوتها.. ومـا من مرة تحدث إليهم النبى بكلام ربهم إلا ألقوا إليه السمع وأقبلوا على القرآن الكريم بكل وعيهم، ينهلون ويدعمون به فى أنفسهم عقيدة الـتوحيد، ويأخذون تكاليف الله بارتياح، وينهجون سلـوكًا كان هو سلوك النبى صلوات الله عليه، وقد سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

إن المؤمن لا يجد عن القرآن منصرفًا، ولا يرضى به بدلاً، ولا يبغى عنه حولا، ومن «قصد البحر استقل السواقيا» كما قال أبو الطيب المتنبى.

إن القرآن يغنى عن كل ما سواه، وما يغنى سواه عنه طرفة عين، لا نقول هذا عشوائية ولا عصبية، فدليل ذلك يسعفنا من القرآن نفسه، من أوامر الله ونواهيه، من منهجه فى كتـابه لصنع الحياة، التى تكون الآخرة على غـرارها حيث لا يظلم ربنا مثقال ذرة..

فهل نغدو مع القرآن حين نغدو، ونروح معه حين نروح؟ هل نمسى به ونصبح؟ ونقوم ونقعد ونسكت عما أوجب السكوت عنه ونتكلم بما دعا إليه من حق؟!

وهل نلقى بالقرآن الأفراد والجماعات؟ فنأخذ به ونعطى، ونحكم ونقضى، ونصالح ونخاصم ونحارب ونسالم ونعامل الآخرين فى ضوء قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف: ١٩].

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إنها آيات تنظم حياة الحى من شتى أقطارها ومـختلف جوانبها، وتدعوه إلى أن يطلب مـا وراءها من الآيات التى ألمحت إلـى الزراعة والصـناعة والتـجـارة والإدارة والحكم بما أنزل الله، واتباع محـمد رسول الله، فإن طاعتـه واتباعه من طاعـة الله ومنهج القـرآن الكامل فى الحـرب والسلـم و. . ثم هذه الآيات التى يقلب الله بهـا أبصارنا وبصـائرنا فى مشـاهد وجوده وشـواهد قدرته وحكمـته ورحمته وإحسانه وحلمه بالذين يسوق إليهم فيوض خيره ويبادرونه بالعظائم بغيًا وعدوًا.

يقول الأسـتاذ مـحمود شـاكر: «وذلك أن لفظ القـرآن -وهو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ كـما هو وكـما وصل إلينا بالتواتر والـتوارث الذى مُنع عن أى لغو فيه أن يدخله تغيير أو تبديل، مرتبط أشد ارتباطًا، لا بعقيدة المسلم وعبادته فحسب، بل بتشريعه واقـتصاده وعلمه وفلسفتـه وحروبه وجهاده، بل بتفاصيل حياته اليومية، وخطرات نفسه، ولمحات تفكيره، وآداب معاشرته، بصديقه وزوجه وولده وأهله وعشيرته، فلا يكاد يوجد شىء فى حـياة الإنسان المسلم إلا وله فى القـرآن هدى هو نص أو هدى هو استنبـاط لا فى خاص أمـره ولا فى عام أمـر المسلمين، ولا فى علاقـة المسلمين بالأفراد من غيـر أهل ملتهم أو الأمم التى لا تدين بدينهم، بل فـيما هـو أقل من ذلك شأنًا وما هـو أعلى وأشرف، وفى كل ذلك يلتمس النص، أو يستنبط من النص أحكام للوقائع الحادثة التى تجد فى حياة الناس. .».

وكلمة الأستاذ شـاكر حديث بالاستكمال فى كتابه «الأسمـار. .» وفى كثير مما تناول الأستاذ بثقافته المتباعدة الأطراف وقلمه العربى الذى أمتعنا أيامًا فى «الرسالة الجديدة» حتـى أغمدته قوى الباطـل لتتيح للأقلام الهـادمة المجال، وما أكثر هذه الأقلام الهادمة الآثمة لكنها على كثرتها سيقذف الله بالحق عليها فإذا هى ضاحضة

لا تساوى المداد الذى كتبت به وبخاصة إذا صحبها منا اليقين فى أن الله هو الحق المبين وأن دينه الحق وكتابه الحق، وجل الله الذى يقول ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ويوم يصحب هذا اليقين حياة بالقرآن وعملٌ به وصدقٌ فى إبلاغه قدر استطاعتنا إلى من يعرفون اللسان العربى وإلى من لا يعرفون ذلك اللسان، بوسيلة أو بأخرى، حتى تكون العربية سهلة المدرك يسيرة الإمكان لهم، يومئذ سنكون قرآنيين أنار القرآن بصائرهم وأبصارهم وأطلق جوارحهم فيما خلقها الله من صوالح الأعمال وجليل الفعال، وطوبى للذين يعيشون للقرآن وبالقرآن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

* * *

القـرآن والحياة

حين نقول الإسلام دين العلم، الإسلام دين الفطرة، الإسلام يواكب الحياة، بل يقدم بين يديهـا رخاءها وازدهارها فإن الله تعـالى «خلق لنا ما فى الأرض جميـعًا وأوجب أن نأخذ زينتنا عند كل مـسجد، وأن نتطهر ونأخذ من الطيب ما يزداد به إلف الناس لنا وإلفنا كذلك لإخواننا (فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس)..

هذا وغيره من قضـايا الإنسان يقال عن الإسلام فيصـدق ويقبل لأنه غيض من فيض وقُل من كُثر مما يصدق على الإسلام..

وهذا كـاريل يقول فى القـرآن وفضـائله: إن القرآن كـتاب لا ريب فـيه، وإن الإحساسـات الصادقة الشـريفة والنيات الكريمة تضيف إلى فـضل القرآن، الفضل الذى هو أول وآخـر فضل وجـد فى كـتاب انبـثقت عنه جـمـيع الفضـائل على اختـلافها، بل هو الكـتاب الذى يقال فـيه، فى الختام ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] لكثرة ما فيه من الفضائل المتنوعة.

وتنافس المتنافسين فى دين الله محصور فيما يجمل بالإنسان، ذلك الكائن الذى خلق الله أباه بيده، وأسجـد له بالعلم ملائـكته، وخلقه على صـورته وهو يقول ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الشورى: ١١].

إن الخيـر كله فى جوف القـرآن وإن كمالات الإسـلام لا تتناهى، وإن نسيه الخادعون والمخدعـون بالتكنولوجيا وغيرها فليست بالذى يـضائل من كمال دين فتح آفاق العلم أمام المسلمين، ودعاهم إلى السبق فى كل ما يجعلهم سادة الدنيا قادة الحياة كـما كان، فقد قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن حاجة الأجيال إلى الإسلام لا تختلف فى عصر عن عصر، ولا فى مكان عن مكان، لأنه دين الله الذى يعلم من خلق ويعلم ما لابد لهم منه ليكونوا أهلاً للخلافة عنه فى عمارة هذه الأرض واستثمار الأكوان علويها وسفليها بالقدر المتاح للمسلم.

ولقد فُتن الناس أخيرًا بكلمات التكنولوجيا والدولة العصرية..

والإسلام يتسع لتعاقب الأزمان، وتطور الأحوال، فهو دين الأمس واليوم والغد.. وهو دين القوة، يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وهى كلمة منونة منكرة، يعنى الشمول والعموم، وكل ما يكون فى متناول الإنسان.

أجل إن تنكير (قوة) فى الآية يعنى إيجاب كل إعداد ميكانيكى مادى تكون به الأمة الوارثة أعز ما تكون وأمنع على الظالمين.

وخذوا هذه الكلمة من السياسى الألمانى (فون باين) الذى كان مستشار الرايخ الألمانى قبل هلتر من مذكراته السياسية الطويلة..

قال بتصرف:

(نحن الآن على حافة الهاوية، وذلك لأننا تقدمنا فى العلم حتى صرنا (عبيد العلم) وتقدمنا فى الاختراع فأصبحنا (عبيد الاختراع). وتمادينا فى استخدام الآلة إلى أن (حكمتنا الآلة) ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة لا أظن أننا سنهتدى إليها، هذا الأمل الوحيد فى النجاة هو: أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين، وما على الإنسان إلا أن يسير طبقًا لهذه القوانين، فإن فعلنا ذلك تحررنا من (العبودية) واستطعنا نحن أن نحكم العلم والاختراع والآلة جميعًا وبذلك تنجو الإنسانية).

والرجل يتكلم عن الإيمان بالله، ويراه كما نراه فى الإسلام دون سواه طوق النجاة، والدين الذى لفت الأنظار إلى الكون وأقسم بالشمس التى نستطيع أن ننتفع بها أكثر مما انتفعنا به فى نهارنا حين محا الله آية الليل وجعل آية النهار

مبـصرة.. كي نجـد ونجتهـد في طلب الرزق، واسـتـخلاص الخيـر من مظانه في الأرض وفي السماء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. ووراء كل ما أقـسم به من كائنات دعـوة إلهية لاسـتـثـمارها لا ريب.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ السجدة: ٢٧] والبصر الذى يدعـو الله إليه ويستفهم عنه على مراده تعالى، هو الاستبصار والاعتبار واستثارة البصائر والأبصار حتى لا نكون مع من قال فـيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. وأنها لقسوة في القلوب وسفه في العـقول ألا نَستكنهَ أنفسنا وما حولنا في علو وسفـل وعن إيماننا وشمـائلنا ومن بين أيدينا ومن خلفنا من كـائنات وأحداث ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝١٦ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧]

والمفسرون يوردون إلى جوار معطيـات الآية من سورة الحديد.. إن الفضيل بن عياض كان ممن استحوذت عليهم في أول أمرهم الغفلات، وخروا إلى الأذقان في الشهوات، وفي ليلة كـان يتسلق فيها إلى الإثم جدار بيت سـمع قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية. فقـال من فوره، وكأن الله يخاطـبه بها: آن يارب آن يا رب.. وتاب إلى ربه وأناب وفُتـح له إلى رضوان الله بابٌ وبابٌ، وبلغ من أمره أن ترك

للناس قوله: (والله لو أن الدنيا ألقيت بين يدى لتقذرتها كـما يتقذر أحدكم الجيفة وهو يمر عليها مخافة أن تصيب ثوبه).

ونحن لا نقذر الدنيا وقد جعلها الله من شهواتنا حين نتعامل معها ببصر وسداد وقد خلقها الله إطارًا لوجودنا ومسرحًا لنا ومرادًا ومنطلقًا إلى ما قال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الآخرة هى الحياة التى لا تنهيها المنية ولا يـخرقها انقضاء الأجل، ولكن السبيل إليها واحـد لا يتعدد، إن حياتنا تلك التى ينبـغى أن نشمر فيهـا للصالحات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ..﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

فأقـيموا حـياتكم على منهاج القـرآن، لتقوم الحـياة الفاضلة المتـوازنة بالأوامر والنواهى والتكاليف والمحذورات، والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

* * *

اجعلوا القرآن إمامكم

إن خير ما ينبغى أن يشغل به الناس أنفسهم، ويرصدوا له وسعهم، ويحرصوا أن يستعينوا بالله على أن يبلغوا منه المدى، إنما هو كتاب الله تعالى، حفظًا لكلماته وفهمًا لمعانيه وطلبًا لمراد الله عز وجل من إيحائه لنبيه ومصطفاه ﷺ، ليبلغ للناس ما يصح عقيدتهم، ويصلح عبادتهم، ويقيم لهم منهجه سبحانه فى السلوك والتعايش، والأخلاق التى هى ثمرة الإيمان الوثيق، والعبادة الحقة. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١-٣] وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ولقد بلغ النبى ﷺ القرآن كما نزل إليه، ما غيَّر ولا بدَّل ولا زاد -حاشاه- فيه ولا نقص أمينًا صادقًا. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ...﴾ [الحاقة: ٤٤]، تمامًا على الذى أحسن، وجلت منة الله على البشرية بأسرها بكتابه ورسوله.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وكفى بالله شهيدًا بكمال أداء النبى وجلال بلاغه عن ربه ونحن نقرأ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وليس بعد ما رضيه الله وأكمله وأتم به نعمته ومنته دين ما يؤخذ ولا منهج يؤثر، ويلتزم من مناهج وسنن، وكل ما يجد ويحدث مما نحسبه من مكتشفات ومبتكرات يناط بها نفع، وينبثق عنها خير حين تلتمع شواهدها وتتألق فى القلوب السليمة أدلتها، إلا وهى من الإسلام بمكان، وجل الله الذى يقول ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ [الإسراء: ٩].

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، فهو نور وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للذين يؤثرون الآخرة على الأولى، ولا يرضون لأنفسهم إلا دين الله المستعلن فى الكتاب والسنة، ومن التمس الهدى فى غيره أضله الله . .

إن القرآن الكريم -والسنة بيان له وتفصيل- هو مناط الحياة الطيبة، ومنهج الوجود الرشيد وينبوع العيش الرغيد، وسكينة الأنفس من أدمع وجراح . . قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

ورحم الله الذى قال:

الدين سلوى النفس من آلامها وطبيبها من أدمع وجراح

والله تعالى يحصر المؤمنين حقًا فى طائفة من الفضائل التى لم تعرف النفس البشرية -ولن تعرف- ما يماثلها أو يدانيها من الكمالات فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وخذ مع ما مر بك من صدر سورة البقرة، قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

إن الحياة لتتعطر بعبق هذه الكلمات الربانية لأولئك الذين شمروا عن سواعدهم فى ميادين الخير وصدقوا الله فيما استخلفهم فيه من إحراز الدنيا والآخرة بالدين الذى أرسل به رسله، وأنزل كتبه، وخلدهم بالإسلام فى القرآن، وكفى بدين الله وكتابه نعمة ومنة، فما كانا لعصر دون عصر، ولا لأمة دون أمة، ولكنه جاء

للبشرية، رسالة النبى الذى كرمه مولاه فقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سبأ: ٢٨] وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ورحمة الله بلفظ العالمين يمتد رواقها، وتتسع آفاقها، حيثما وجدت كلمة العالمين فى أمثال قول الله تعالى الذى كلمه رسوله ﷺ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد قال ابن عباس وغيره رضى الله عنهم «من بلغه القرآن فكأنما شافهه النبى ﷺ».

وهى كلمة تقيم حجة الله على البشرية، مؤمنها وكافرها وعربها وعجمها وأبيضها وأسودها، والقرآن تتردد أصداؤه فى كل مكان وأوان، والذين أوجدوا شبكة المعلومات (الإنترنت) وغيرها من القنوات ووسائل الاتصال الكثيرة يقدمون تفسيرًا من تفاسير لمنة الله تعالى وهو يقول ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

إن القرآن الكريم خليق بأن يكون شغل القلب واللسان، وباعث نظر كل إنسان، يريد أن يعين على إبلاغ الحياة الطيبة كمالها الممكن، وهو واجد أدوات العمل، وأساليب التنافس مع الآخرين فى هذا المجال، فى كتاب الله، منهاج دين العلم والعمل والسبق والتقدم، وإحراز الحياتين معًا، وما أجل العلم والعمل حين يكونان ثمرة إيمان بالله تعالى، وما أبشعهما حين ينبثقان من الغرور، والانطلاق من مثل قول قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

وجل الله الذى يحكى من قول قارون له ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا

تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

والنبى ﷺ يقول: **«من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»**..

والآية وإن جاءت بعد النهى عن الأشر والبطر ونهى القوم لقارون أن يطلب الآخرة بأسبابها فهى (الحيوان) والوجود الأبيد الذى لا نفاد له ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وانتهت بالدنيا التى نحن فيها ندفع دواليب العمل الصالح والتعمير البصير والتنمية على هدى ونور، لتكون الآخرة على غرارها، وينع ثمارها ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...** ﴾ [الأعراف: ٩].

وأكرم بالإحسان نأخذه لأنفسنا من إحسان الله لنا، والمؤمن يتخلق بأخلاق الله الذى جمع الفضائل كلها فى ثلاث، وجمع الرذائل كلها فى ثلاث فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠].

إنه القرآن جماع وسائل عز الحياتين، ومصدر مفاخر هذه الأمة، وكتاب الله الذى للتى هى أقوم، وطوبى لمن استمسك بحبله وجعله إمامه على كل حال.

* * *

القرآن ... كتاب الأزل والأبد

كان إقبال رمضان فى عصور الخير، يصبغ الحياة كلها بالخير والبركات والتشمير للطاعات، والاشتغال بكل ما يعتبر ذكرا لله تعالى. . .

وقد رووا أن إمام اللغـة والأدب عمرو بن العلاء، كان إذا دخل رمـضان هجر الشعـر والأدب واشتـغل بالقرآن الكريم يتلوه وينعـم نظره فيه، ويقـدم من عطائه الذى لا يتناهى ما يعينه الله عليه للمسلمين.

وعلوم الأدب والشعـر واللغة تثـرى الإفادة من القرآن، ويطل بـها المؤمن على مراد الرحـمن من كلامه، وقد كـان كثيـر من ألفاظ القرآن لا يتـضح معناه لرجل كعمر بن الخطاب رضوان الله عليه وهو الـعارف بلسان العرب، الذواقة لأقوالهم، فربما أعانه معنى كلمة من كلمـاتهم على كلمة من كتاب الله تعالى. . رووا أن أبا حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه توقف فى قراءته عند قول الله تعالى: ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ**...﴾ [النحل: ٤٧] وكان يحـدث المسلمين فى خلافـته، ولم يتـفطن لمعنى الكلمة، وتداركـه الله برجل جاء من البـادية لتـوه، يقول: يا أمـير المؤمنين «تخـوفنى مالى أخ لى ظالم. . البـيت». . فقال سـبحـان الله. . تخوفنى تنقـصنى، «أو يأخـذهم على تخـوف» أى على تنقص من غـيارهم. . وكـان ذو النورين عثمان رضوان الله عليه يديم النظر فى المصحف وهو الإمام الذى جمع الله به المسلمين على إمام مبين، بعد أن كـان القرآن متناثرا فى صحف عند أم المؤمنين حفـصة من خـلافة أبى بكر -رضى الله عنـهم- إلى اجتـماعه فى صـدور بعض الصحـابة، وسألوا عثمـان؟: لِمَ يديم النظر فى المصحف؟!. . فقال: «إنـه كتاب ربى وسيدى، وحقٌ على العبد إذا جاءه كتاب سيده أن يتأمله، ويديم نظره فيه».

والقرآن جـدير بالاهتمام -حفظًا وتلاوة ودراسـة وائتمارا بأوامره، وانتـهاءً عن زواجره، وانتـفاعا بـعظاته، وإفادة من معطيـاته وتوجيـهاته. . ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا...﴾ [النمل: ٩٣].

إنه منهل العقيدة، ومنهج العبادة، ودستور السلوك، وكتاب الأزل والأبد وجماع أمر الدنيا والآخرة، يرشد الحاكم، ويؤنس العالم، ويحفز العامل، ويحفظ بناء الأسرة، ويقدم حوافظ المجتمع ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠].

إن الآية من آياته، بل الفقرة من فقراته، لترجح بحكمة الحكيم، وعلم العليم فى الحديث القديم..

وقد كان أكثم بن صيفى حكيم العرب فى الجاهلية، وتأخر إسلامه على رغمه، فقد حال دون ذلك نفر من قومه، لكنه آخر الأمر أزمع أن يأتى النبى ﷺ أو يختار من يوفدهم إليه ليعودا عنه بما يسمعون منه، واختاروا الأخرى، وتقدم رسولاه إلى النبى وسألاه من هو؟ وما هو؟ فلم يزد فى الأولى عن: محمد بن عبد الله ولم يزد فى الأخرى عن: رسول الله ﷺ، وسمعا منه القرآن وعادا بما سمعا من قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال الرجل لقومه: أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل وكونوا باتباعه رؤوسًا قبل أن تكونوا أذنابا.. فوالله لو لم يكن هذا الذى يدعو إليه محمد دينًا لكان فى أخلاق الرجال حسنًا.

وفى دنيا الناس من الشواغل الصارفة عن الأمن والاستقرار مالا بد لهم معها من القرآن، يطمئن القلوب ويؤنس النفوس ويثلج الصدور ويفعم بالسكينة الأرواح..

يروى الإمام البخارى حديث أسيد بن حضير رضى الله عنه «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس -تحركت فى مدار قيدها- قال: فسكت فسكتتْ فقرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريبًا

منه، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره، رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبى ﷺ فقال: اقرأ يا ابن حضير.. اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله ﷺ أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، ورفعت رأسى فانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها.

وفى نهاية الحديث: أن الرسول قال له: **«لو أصبحت تقرأ لرأى الناس الملائكة كما رأيت هذه المصابيح فى تلك الظلة»**.

والإسلام دين الأزل بحق، وهو يحدثنا عن الله عز وجل يوم لم تكن أرض ولا سماء ولا آدم ولا حواء.. ولقد صح عن رسول الله ﷺ قوله:

«كان الله ولا شىء معه، وكان عرشه على الماء» وفتق الله عز وجل من مادة من مواد الأرض... التى خلقها وما يلزمها من بحار وجبال فى أربعة أيام حتى كان أمره فى السموات فى يومين، قال تعالى: **﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾** [فصلت: ٩-١٢].

وجل الله الذى يقول:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والله تعالى يقول فى صدر سورة هود:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً... ﴾ [هود: ٧].

إن ذلك شأن الله عز وجل لخير الإنسان قبل أن يخلق الإنسان، فقد كان أبو الإنسانية آدم الذى خلقه الله تعالى مما استفاض فى القرآن كله (من تراب)، (من طين)، (من صلصال من حمأ مسنون) ثم خلق منه أم البشرية حواء عليها السلام. وامتن الله عز وجل علينا بهما على سواء وهو يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

إنه القرآن كتاب الأزل وهو كتاب الأبد، والواقع شاهدٌ وعند الله المصير، لنستجلى من أمر الآخرة ما تحدث به رب العالمين فى كتابه الذى نسأل الله عز وجل أن يضىء به منا الأبصار والبصائر. فهو ولى ذلك والقادر عليه دون سواه.

* * *

الإعجاز القرآنى

حفظ القرآن قد تكفل الله به، فهو محفوظ بنا وبغيرنا، ولكن اتضاح معانيه وظهور مغازيه واستعلان مضامينه ومطاويه، هى المناط الذى امتاز به القرآن فيما امتاز به على الكتب السماوية جميعًا.

ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وليتسع أمام عينى المنصف مدى هيمنة القرآن على كتب الله تعالى تجتزئ مع ما تقدم بقوله تعالى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وهل يهدى القرآن ويقص إلا وهو من الوضوح وصدق الدلالة إلى الحد المعين على ذلك؟

ومخاطبة الناس بما لا يفهمون فتنة لهم ومحنة لعقولهم، وهى عذر لهم ناهض بعد أن قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فلنمض مع القرآن متحدثًا عن القرآن الكريم، فأكرم به من متحدث، وأكرم به من حديث ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ «نسبه ابن كثير إلى ابن أبي حاتم».

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. والاختلاف الذي صان الله عنه كتابه على معان هي: التناقض- كما روى ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس وجماعة- أو الكذب كما روى عن مقاتل وغيره، أو اختلاف تفاوت من جهة بليغ من الكلام ومرذول، إذ لابد للكلام إذا طال من مرذول وليس في القرآن إلا بليغ ذكره- الماوردي في جامعه أهـ. زاد المسير. ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ووراء هذه الآيات آيات تتحدث عن القرآن معرفًا، وآيات ذكر فيها القرآن بدون تعريف كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

وشارك القرآن التوراة في اسم «الكتاب». قال تعالى مخاطبًا أحبار يهود: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ومن أسماء القرآن في القرآن كذلك «الذكر». قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وإن شاركت التوراة في ذلك القرآن في رأي للمفسرين أو أم الكتاب في رأي آخرين تكلموا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ومجرد إيراد الله هذه الآية وفي سورة تحمل اسم الأنبياء، شهادة على فضل القرآن كتاب الله على ما سواه من كتب الله جل علاه.

ولا أتجاوز هذا المدى لأخلص إلى عدة الله تعالى بحفظ كتابه. وإفراد القرآن

بهذه الخاصية على حين وكل غيره من كتبه تعالى إلى أقوام لم يرعوا الله فيها عهداً وكان من أمرها ما كان.

قال الشيخ الدكتـور محمد عبد الله دراز رحمه الله فـي كتابه «النبأ العظيم»:- وبقى القرآن محفوظًا فى حرز حريز إنجازًا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحـفظهـا بل وكلها إلى حـفظ الناس فـقال تعـالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أى ما طلب إليهم حفظه.

وجلا الدكتور السر فى هذه التفرقـة فقال: (إن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التـأبيد، وأن هذا القرآن جىء به مصدقًـا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليها وكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدًا عليها ما شاء الله زيادته. وكان سادا مسدها ولم يكن شىء منها ليسـد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى يوم القيامة. وإذا قضى الله أمرًا يسر أسبابه. وهو الحكيم العليم.

والكلمات فيـما استهدفت بيـانه فيض غزير من نور إيمان فقيـد الإسلام الشيخ دراز رحمه الله، وهى برهان لا يدفعه شىء من براهين فى كـلامه وفى غير كلامه على فـضل القرآن العـظيم، كلام الله الذى يقـول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ونضر الله وجـه الإمام ابن قيم الجـوزية، فقد قـال فى مقـدمة كتـابه (الفوائد المشوقة إلى علوم القـرآن وعلم البيان): (وإنما يعرف فضل القـرآن من عرف كلام العرب، فـعرف علم اللغـة وعلم العربيـة وعلم البيـان، ونظر فى أشعـار العرب وخطبها ومقالاتها فى مواطن افتخارها ورسائلها وأراجيزها وإسجاعها، فعلم منها تلوين الخطاب ومعـدوله. وفنون البلاغة وضـروب الفصاحـة وأجناس التجنيس، وبدائع البديع، ومـحاسن الحكم والأمـثال، فإذا علم ذلك ونظـر فى هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعـه الله سبحانه فيه من البـلاغة والفصاحة وفنون البيـان فقد

أوتى فيه العجب العجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التى تحير الألباب، وتغلق دونها الأبواب فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ومجاراته لهم فى ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم، ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم وكلت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم، ويبرق فى رونق الجمال والجلال فى أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال.

ولذلك يقع فى النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء أكانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة.

وابن القيم يبلغ بحسه المرهف هذا المدى من بلاغة القرآن وصحة نسبته إلى الله تعالى بما انفرد به من خصائص لا نراها ولا بعضها فى غيره من الكتب الإلهية والوضعية.

وكتب ابن القيم تقدم المزيد من هذا الذى يجلو إعجاز القرآن فى غير وجه من وجوه الإعجاز للذين لهم بعض تأهيل ابن القيم بسبر أغوار كتاب الله. وكشف ما شاء الله من أسراره وإبراز المنهج الربانى فى حوار القرآن، وأمثاله، وقصصه، وهى تعمد إلى ما هو عبرة وبلاغ لقوم يعقلون بعيدًا عن السرد التاريخى.

* * *

متى ننصف القرآن من أنفسنا؟

الأستـاذ محمد فـتحى -الإذاعى المصرى المعـروف- أحد أطراف قصـة جددها القرآن وهو يجددها دائمًا بحججه البينة وإعجازه المتعدد الجوانب وأدائه الذى تواتر فى الناس، فخاطب القلوب أضعاف أضـعاف ما شغف الأسماع وأطرب الذين لم يعد حظهم من القـرآن إلا النغمات، ومـا أطيبها حين تـخالط فهمًـا، وتعانق من القارئ إدراكًـا، بعض الإدراك.. لهذه الحالة أو تلك من آيـات القرآن الكريم التى سمعها الجن ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢].

فأذعنوا له وآمنوا به ودعوا إلى ذلك قومهم.

كان الشـيخ محمـد رفعت -قدس الله روحـه فى عليين- يقرأ ذات مـساء فى الإذاعة الأهلية التى كان يشرف عليها الدكتور أحمد فريد رفاعى رحمه الله، وكان الذى يقدم هذه الإذاعـة الموجهة لكندا هو الأستـاذ محمد فتـحى، وتخطى القرآن الحدود والأبعاد والبـلاد وسمع تقديم الأستاذ فتـحى للشيخ رفعت كنديون وتأثروا بالقرآن وإن كانوا لا يـعرفون لغة القرآن، ومـضى الزمن وبقى الأثر، وجاء كندى إلى مصـر بعد أعوام، وكان يذكـر الأستاذ فتـحى لكثرة ما كـان يقدم من برامج موجهة يومئذ قبل الإذاعة الحكومية، وزار الأستاذ وسأله أن يعينه على زيارة الشيخ الذى بلغت قراءته للقرآن أعماق نفسه، وصـحبه الأستاذ فى زيارة للشيخ، ورجاه أن يقرأ عليه القرآن ليصل الحاضر بالماضى وهو يسمع عن كثب، ولزم الشيخ أيامًا فى منزله بشـارع التبليطـة بالسيـدة زينب، وشرح الله صـدره للإسلام فـأسلم.. وهكذا يشق القـرآن طريقه إلى القلوب حين يجـد من يتلوه مـتأثرًا به فاهـمًا له، مخلصًا فى أدائه.

وأذكر أن الشيخ رفعت رحمه الله وقد كان قـيثارة السماء أو كما قال رسول الله فى أحد صحابته وهو أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه:

«لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود» وكان الشيخ رفعت يحب أن يكون الإنصات إلى كتاب الله شأن المعجبين به الذين يتوافدون من شتى جوانب القاهرة على مسجد فاضل باشا الذى يقرأ فيه سورة الكهف كل جمعة بشارع الجماميز، (بورسعيد حاليًا) ولا أدرى كيف وجهنى الله إلى ذلك المسجد فى أول جمعة أصليها فى القاهرة التى وفدت عليها لتوى مبتدئًا دراستى العليا فى كلية أصول الدين فى الأزهر عام ١٩٣٥م، وكنت أرتدى ثوبًا أبيض فضفاضًا وأضَع على رأسى «طاقية» وقرأ الشيخ، واستمعت إليه مع جمهور كبير، وأخذنى ما أخذهم من خشوع لكلام الله وتأثر بتلاوة الشيخ الذى كان يبدو لى ولغيرى أنه على مستوى طيب من الفهم لِما يقرأ حين يقف فلا يشذ، وحين يبدأ فلا يخطئ، وحين يعطى الجمل والعبارات ما يكاد يعين على إدراك مراد الله تعالى منها: و**«المؤمن ينظر بنور الله»** كما يقول رسول الله ﷺ.

وكنّا طلابًا نحاول أن نأمر بالمعروف، وأن نبصر غيرنا بحقائق الأمور حين تواتى مناسبتها وبقدر يسير من المعرفة وقدر كبير من الشعور بأنه لا ينبغى إضاعة فرصته، ووقفت -لا لأخطب أو أعظ فالقرآن أولى ما ينبغى الإصغاء إليه حتى ينتهى القارئ- وقلت إن من حق القرآن وحق الشيخ الذى يخاطب قلوبنا بتلاوته أن يكون استحسانًا لأدائه الرفيع إنصاتًا وإصغاءً. . ولم أزد، وجلستُ، والعيون من شتى جوانبى تكاد تشدنى إلى الجلوس، لكننى جلستُ مختارًا سعيدًا بدعوات انفرجت عنها شفتا الشيخ رحمه الله، أذكر منها قوله: «فتح الله عليك».

وأذكر وكان ذلك الساعة أننى كنت عام ١٩٧٢م فى إذاعة القاهرة أسجل حديثًا، فإذا بالأخ الأستاذ محمود الشريف المسئول عن البرنامج يعرفنى بابن الشيخ رفعت الذى جاء ليسجل فى ذكرى وفاة والده كلمة، وكم كان كريمًا حين قال لهم: إن الأولى بالكلام فى هذه المناسبة هو فلان -يعنينى- فقد قرأتُ له كلمة فى جريدة الأخبار القاهرية من زمن أبرز فيها عن الوالد جوانب ما كنا نعلمها، وهو يعنى ما صدرت به هذه الكلمة.

إن القرآن الـكريم يعرف طريقـه إلى قلب كل منصف، وما عليـه من يأس أن تضيـق به صدور تكره النور، وتؤثر الظلمـات؛ فهى المناخ الـضرورى للشـهوات والآثام، ويوم كانت قـرانا فى مصر وفى غيـرها من بلاد الإسلام تعج مسـاجدها بحلقات تحفيظ القـرآن الكريم، وتتعدد فيها المدارس الأهلية التى استـقبلتنا صغارا لنحفظ فـيها القرآن، وندرس المبـادئ الأولية فى الخط والإملاء، وبعض الأناشـيد التى تروى فى نفوسنا حب الله ورسوله وكتـابه، وتحبب إلينا عددًا من فضائل هذا الدين والجانب الخلقى فيه، إلى القواعـد الأصلية فى الحساب وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة، كانت الدنيا خيرًا وبركة فى هذه القرى وخيرًا وبركة فى البلاد التى أتيناها وأتاها آباؤنـا شادين للعلم دارسين للـقرآن وعلومـه والفقـه والعربيـة والتاريخ الإسـلامى وعلوم الحياة، هندسـة وجبرا وطبـيعة، وكـيميـاء وجغرافـيا بأقسامها، وجيولوجيا، وأعاننا على التحصيل والدراسة، أن القرآن الكريم كان ينير دربنا، ويجـدد بواجبنا أنسـنا، ويقدم لنا من أضـوائه وهداياته مـا يربط الحيـاة به ويؤكد أنه كتاب الأزل والأبد حقًا.

وكان لداتنا فى الكتاتيب تتوزعهم الدراسة الأزهرية أو المدنية فى معاهد الأزهر وروافده، وفى المدارس رسمية وأهلية، وكانوا فى مرحلة التعليم العالى فئات على حسب الإمكـان المادى يومئذ، وحـياة الإنسـان فى قرية أو عـاصمة، فـمنهم من يدرس ما يسـمى بالعلوم العصريـة هندسة وطبًا وزراعـة وتجارة ومنهم طلاب فى كليات الحقوق وطلاب فى كليات الآداب، ومنهم طلاب الأزهر فى دراسته القديمة الأصلية المبـاركة ثم فى كلياته المتخـصصة فى الدعوة وأصول الدين وفـى الشريعة وعلومهـا وفى اللغة العـربية وعلومـها، لكن عروة وثقى كـانت تصل بين هؤلاء وأولئك وهى القـرآن الكريم على تفاوت الحظوظ فى ذلك، ومع الإشـادة والتنويه بما كان لكثيرين من الطلاب فى النشاط الأدبى والعلمى، فإن ذلك وأكثر منه حسن السيرة، والاختلاط بالعشيرة ومـحاولة إنفاق أوقات الفراغ من الدراسة فى الصيف فى وصل الناس بدينهم كان حظ الذين ينمى صلتهم بالقـرآن كما ينمى الماء النبات دراستهم أكـثر من دراستهم فى الـكليات والمدارس العليا فى التعليم العـام بفضل الشجاعة الأدبية التى أفادها الأزهريون -أو أكثرهم- من دراساتهم.

وأشهد -وتلك حقيقة يعرفها الكثيرون- أن الاستعمار الإنجليزى فى مصر، كان يتربص الدوائر بالقرآن وعلومه وبالدراسات التى يستمدها الطلاب من القرآن، وكان دانلوب مستشار المعارف فى مصر فى العهود التى مضت إلى غير رجعة ولا كرامة، يخطط لإبعاد الدراسات التى ترتوى من الإسلام وكفايته.. من القرآن وسنة النبى وسيرته وأخلاقه وسيرة الذين خرجتهم مدرسة النبوة والذين قضوا على آثارهم فى خير العصور ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وكان الاستعمار يعمل على قوقعة الأزهر وإبعاد رجاله عن المجتمع، والحيلولة دون أن يسهموا فى وظائف الدولة حتى لا يفتحوا العيون على دين الله وكتابه، معطيًا هذه الوظائف والأعمال العامة لغير المسلمين حتى يضمن بهم بقاءه، وتم للاستعمار إلى حد كبير ما أراد فى نوعيات من الوظائف، وكانت البعثات التعليمية إلى خارج البلاد وسيلة من الوسائل التى عهد فيها للمبشرين وأعداء الدين ليضعوا أبناءنا الذين لم يتحصن أكثرهم بحصانة الدين على النحو الذى يريده الاستعمار، ليعودوا إلى بلادهم بأسماء عربية وعقول أجنبية -ويرحم الله المجاهد الجزائرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمى فقد قال فى بحث أذكره منذ قرأته فى مجلة «المسلمون» فى سنتها الثالثة ص ٨٧٢ تحت عنوان: «ماذا أعطانا الغرب» ولعله عنوانى فى إحدى مفكراتى.

«إن الغرب -ومعذرة والشرق معه- لا يعطينا إلا جزءًا مما يأخذه منا، ولا يعطينا إلا ما يعود علينا بالوبال، وقد أعناه على أنفسنا، فأصبح المهاجر منا إلى العلم يذهب بعقله الشرقى، فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه، لا عقل فى دماغه، ثم يأتينا يوم يأتى بعقل غربى، ومنهم من يأتى بعقل غربى ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ»..

ومعاذ الله أن نتجهم لمعطيات العلم والتجربة التى بلغها القوم، فنحن لا نضيق ذرعًا بأحد لأنه غير مسلم، ولكنا نهش له ونفتح قلوبنا لما هُدى إليه من فتوح العلم وحصيلة الدراسة الجادة الهادفة الهادية، وندعو من قرارة نفوسنا أن يشرح الله صدره إلى الحق، والأمور بيد الله على كل حال..

إن انفساح جوانب العلم لا تروع الإسلام ولا تفزعه، وإنها فى حقيقة الأمر تكون جواده السابق، ووسيلته الجليلة إلى اثراء الحياة بتقوى الله وطاعته واتباع سبيله، فالعلماء عبر التاريخ كانوا منبر الإسلام، وألسنة الصدق له، فى براهينهم على وجود الله وحكمته الباهرة فى تدبير أمر هذا العالم، وتسير دفة الحياة إلى التى هى أقوم، وإن عرف الفكر الإنسانى بعض العلماء الذين جانبهم الصواب فيما رأوا وتصوروا وقرروا.. ولا يمكن أن يوضع إلى جانب قانون الجاذبية «لاسحق نيوتن» هذا اللغو الذى ما زال يدرس فى بعض مدارسنا ويتحمس له «العميان» من المدرسين مسلمين كانوا أو غير مسلمين فى نظرية «داروين».. ونظريات فرويد اليهودى النمساوى الذى يرجع إلى الغريزة الجنسية كل حركة؛ حتى حركة الطفل وهو يرتضع حاجته من أمه!!

ولقد صفع هذه النظريات بيده الحقيقة الرامية علماء كاسرة هيكسلى وغيرهم - وأود أن يرجع الإخوة القراء.. إلى العدد ٢٦٧ من مجلة الرائد التى تصدرها جمعية المعلمين فى الكويت بتاريخ ٣ أغسطس ١٩٧٨ تحت عنوان «الغرب يعترف بمحمد أعظم البشر»..

وقد كنت يوم مغادرتى القاهرة ملبيًا دعوة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى دولة الكويت يوم ٢٥ من شعبان ٩٨، ٣٠/٧/٧٧، فقلت فى مذاكرتى من مجلة أكتوبر المصرية فى صفحتها الثانية عن هذا الموضوع الذى يقرر فيه ميشيل هارٹر نتيجة دراسة متحررة إن محمدا صلوات الله عليه أعظم شخصية فى التاريخ. وهو أمريكى. ويقول: إن هذه الحقيقة لا ترجع فقط لمكانة محمد الرفيعة عند ملايين البشر، ولكن بإضافة أنه كان ناجحًا بشكل منقطع النظير بالمقاييس العلمية والدينية معًا..

وذكر الرجل «إسحاق نيوتن» فى الدرجة التالية لنبينا صلوات الله عليه، وذكر عيسى عليه السلام فى الثالثة، معللا ذلك بأنه لم ينفرد بتأسيس الديانة.. إلخ.

هذا وما نزال مع القرآن راجين أن نحفظ آياته وسوره، وأن نفهم عظاته وعبره، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

إن «كارليل» يقول فى كتابه «الأبطال»:

«رجل بنى بيتًا حسن البنيان، متين التركيب قائم الجدران، منتظم الأركان، ثم بقى البيت ألفًا ومائتى سنة «هذا تاريخ كلامه» لم ينهدم منه ركن، ولم يسقط من أعلاه غرفة، وهو لا يزال رواء وجدة مهما تقادم عهده، وبعد أمده، فهل يبنيه دعى فى البناء؟!

إن البانى محمد ﷺ والبيت الإسلام، الإسلام بالقرآن والسنة، بمنهج الله الذى لا تقوم الحياة الحقة إلا على أساسه، ولا يتفيأ الناس الظلال الحانية إلا فى غراسه.

وواشوقاه إلى رجعة إلى القرآن، وعودة إلى السنة، لنكون مرة أخرى خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فلقد قرأها أبو حفص عمر رضى الله عنهما ثم قال:

«من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليؤدِّ شرط الله فيها، هذا هو الطريق، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

* * *

متى ننصف القرآن

للقرآن الكريم بهداياته وتوجيهاته وأسرار عظمة موحية فيه والكلام صفة المتكلم -كما قالوا، حق على كل ذى عقل أن يتأمله وينعم فيه النظر، ويعمل فيه العقل حتى ينطلق بنور منه رشيدًا إلى حقيقة الإيمان، وسواء العبادة والسلوك الحسن، بعد أن يأخذ العبرة مما روى أمينًا صادقًا من أنباء من سبق، وأخبار من تقدم، من آمن منهم ومن كفر، ومن استقام منهم على صراط الفطرة ومن اتبع هواه وخالف أمر مولاه ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

ومن حق القرآن الكريم على أهله وهو سجل مفاخرهم، وينبوع عزهم وكرامتهم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومن حقه على غير أهله وهو يخاطب الناس جميعًا ويشد عرى أخوتهم، ويحكم وثاقهم على سواء بأبى الناس آدم وأم البشرية حواء عليهما السلام، أن لا يصد عن سبيله أحد، أو يبتغى غير طريقه منصف، أو يقبل عاقل فيه اتهام متهم أو ظن متظنن، أو ريب مرتاب ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

وحين ينصف أهل القرآن وغير أهله، كتاب الله من أنفسهم، وينسجون سلوكهم على منواله، سيجدون الحياة وقد أشرق وجهها، واستقامت مناهجها، وأكملت مباهجها، وأعطى كل إنسان أخاه ما توجبه الإنسانية من تعاون وإيثار وتواصل وتساند فى ميادين الحياة كلها فى المنشط والمكره، وفى الحرب والسلم

وعلى كل حـال، فيسـدون بذلك كل ثغرة تنفـذ منها نفـرة، وكل باب يمكن أن يتسلل منه عـدو بمكروه، فالقرآن يوصى المؤمن بحسن المعـاملة، وكريم المداخلة، والرفق فى المجادلة، والدعوة إلى الله بالحـكمة والموعظة الحسنة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ولقد كـان الرسول صلوات الله عليه كمـا تقول عائشـة أم المؤمنين رضوان الله عليهـا «خلقه القرآن» ونحن مأمـورون بأن نتخذه أسوة حـسنة وقدوة صلوات الله عليه، ولقد كان يقول «**اصنع الخير مع أهله ومع غيـر أهله، فإن وجدت أهله، وجدت أهله، وإن لم تجد أهله كنت أنت أهله**»!

ولقد بقى المسلمون بعـد نبيهم فى عصور وأقطار كمـا وصفهم الله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] يبدو كل فرد منهم إسلامًا يمشى بين الناس، صدقًـا فى العقيدة، وطـاعة لله، وأمانة وحلمًا وشـجاعة أدبيـة يصارح المؤمن فى ظلها بالرأى البناء، والنصـيحة الصادقـة، وشجاعة فى مـيادين الجهـاد وساحات الشهادة حين لا يكون من الجهاد لإعلاء كلمة الله يد، وجدًا ونشاطًا فى كل مجال عمل يرضى عنه الله، ونـدفع به إلى الأمام مسـيرة الحيـاة، وارتفاعًا عن مـساوئ الأخلاق وسفاف التصرفات إلى المستوى الذى رفع إليه القرآن الكريم المؤمنين بمثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هذا القـرآن الذى يوضع قيـد الأنظار، وموضع الاعـتبار، حق ولـى الأمر فى الطاعة، ويقرنه بحق الله ورسوله فيها فيقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وصفة ولى الأمـر بأنه «منكم» أى من المؤمنين خيرة الله من خلقـه، المخاطبين بهذه الآية، تحدد ولى الأمر وتجلو إظهار طاعتـه وتجعله كما يقول الرسول صلوات الله عليه «**إنما الطاعة فى المعروف**» «**لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق**».

هذا القـرآن لا ينبغى أن تحـيف الدعوة إلى الإنصـات له، والإصغاء إليـه قلب إنسان واحد، بعد أن أعطى القرآن المخـالف والموافق، والمخاصم والمسالم، والعدو والصديق حـقوقهم، وأدبنا الله فيـه بقوله ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨].

* * *

أنزل القرآن على سبعة أحرف

رحم الله من قال: «من الظهور الخفاء».

فـقد يكون الأمـر من الوضوح إلى المدى الـذى يصعب على المرء سـوق دليل عليه، أو تقديم شاهد وبرهان فيه.

ومن ذلك نزول القرآن عـلى سبعـة أحرف، فهـو من الحقائق الـتى يصعب أن يبرهن عليها، بعد أن عرفنا أن القـرآن كتاب الله للناس، وهم حتى فى الأمة التى نزل بلسانها كلام الله تعالى، ذوو لهجات فى قبائلهم الكثيرة، وعشائرهم المتعددة، بعد أن ورد بذلك خبر المعـصوم صلوات الله عليه، على حال يشبه التواتر، إن لم يكنه.

يقول أستاذنا الشيخ محمد على سلامة رحمه الله وهو يشير إلى خبر رسول الله ﷺ: «**أنزل القرآن علـى سبعـة أحرف**»... «وتضافرت روايات كـثيرة على ذلك، وحكم علماء الحديث بصحة هذه الروايات، بل قال بعضهم بتواتر الحديث الوارد بنزول القرآن على سبعة أحرف، فقد ورد عن جمع كثـير من الصحابة منهم: أبى بن كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسلمان بن صرد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن أبى سلمة، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشـام بن حكيم، وأبو بكرة، وأبوجـهم، وأبو سـعـيد الخـدرى، وأبو طلحـة الأنصارى، وأبو هريرة... فهـؤلاء واحد وعشرون صحـابيًا، وقد نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتره..

وأخرج أبو ليلى فى مسنده أن عثمـان قال على منبر النبى ﷺ «**اذكر الله رجلاً سمع النبى ﷺ قال: «إن القرآن أنزل على سـبعـة أحرف كلها شـاف كاف» لما قام، قال: فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا بذلك، فقال: وأنا أشهد معهم**»..

وقد أشفق أستـاذنا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقـانى رحمه الله على الإسلام من كثرة من تناولوا هذا الحديث مؤيدين أو مترددين إلى حد كاد، كما قال الشيخ الزرقانى يطمس أنوار الحقـيقة، حتى استـعصى فهمـه على بعض العلماء، ولاذوا بالفرار منه، وقال إنه مشكل، وحتى اضطر بعض المحقـقين أن يفردوه بالتأليف، قديمًا وحديثًا، ما بين العلامة أبى شامة فى القرن الـسابع الهجرى والعلامة الشيخ محمد بخيت فى القرن الرابع عشر للهجرة.

وذكر الشـيخ الزرقانى مخافـة بعض العلماء أن يكون الخطأ فى فهم هذا الخـبر مفـتاح باب يلجه الذين يشغـبون على الإسلام كلمـا وجدوا ما يتخـيلونه ضالين فرصة مناسبة للطعن فى الإسلام ومصدريه الكريمين الكتاب والسنة.

وما كان هؤلاء ومن سبقهم ومن قفى آثارهم إلا كما قيل:

كناطح صـخـرة يـومًـا ليـوهنهـا ... فلم يضـرها، وأوهى قـرنه الوعل

إن خبر «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**» لا مجال للريب فيه، لكن الآراء تعددت فى فهمه، وفى المراد منه، وهل هذه الأحرف السبعة موجودة فى المصحف، أم لا؟ وهل هى عدد؟.. أم معان؟.. أم جهات؟.. أم كلمات؟.

وأود أن نكون ما نزال على ذكر من النفر من الصـحابة الأجلاء الذين مروا بين يديك ممن رووا هذا الحديث، وهم لصحـبتهم وكـثرتهم، يؤمن من تواطئهم على الكذب، وهم خلقاء بأن يجـعلوا رجلاً كالإمام أبى عـبيد القاسم بن سـلام يقول بتواتر هذا الحديث، وأن من خلال التواتر، توافر مـثل هؤلاء النفر فى كل طبـقة الرواية، وهم لم يتوافروا بعد الصحابة فيما تلاهم من عصور وطبقات.

ومهمـا قيل فى أنها سبـعة أحرف، أى قراءات، أو هى سبع لهجات، أو على سبعة وجوه، إلى ما يبلغ خمسة وثلاثين رأيًا فإننا نؤثر ما اختاره الأئمة: القرطبى، والطبرى والنيسابورى، وغيرهم من أن المراد بالأحرف السبعة، هو سبع لغات فى كلمة فى كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاقها، أو تقاربها، دون اختلاف أو تناقض مثل: هلم وأقبل، وتعال» وإلىَّ، وقصدى، ونحوى، وقربى، فهى سبعة

ألفاظ مختلفة يعبر بها عن معنى واحد هو طلب الإقبال.. وليس معنى هذا أن كل معنى فى القرآن يعبر عنه بسبعة ألفاظ من سبع لغات.. بل المراد أن المعنى الذى تتفق لغات العرب فى التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بذلك اللفظ فقط. وأن ما يختلف التعبير عنه بلفظين، يعبر عنه باللفظين، وهكذا إلى سبعة ألفاظ فقط من مشهور لغات العرب، وقت نزول القرآن كما تقدم، وكقوله تعالى حاكيًا مقالة المنافقين والمنافقات للذين آمنوا ﴿انظُرُونَا﴾ [الحديد: ١٣].

«للذين آمنوا انظرونا».. وهى إلى: «للذين آمنوا أمهلونا».... «للذين آمنوا أخرونا».. للذين آمنوا ارقبونا».. فهى ألفاظ أربعة عبر بها عن معنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ...﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً...﴾ [يس: ٢٩].

إلا «زقية واحدة».. فهذان لفظان عبر بهما عن معنى واحد...

إن هذا القول هو أصح الأقوال، فإن حمل قبائل العرب على أخذ القرآن على غير لغاتهم دفعة واحدة، وفى حملهم على النطق بما لم يعتادوا النطق به مشقة عظيمة وحرج كبير، كما يدل عليه قوله ﷺ فى الحديث الصحيح عند الإمام مسلم عن أبى بن كعب رضى الله عنه «أن النبى ﷺ كان عند أضاة «غدير بنى غفار» فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: **أسأل الله معافاته، ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم** أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: **أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم** جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا»...

ويشهد لكون اليسر مراد الله ورسوله قوله ﷺ:

«يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية ومن لا يقرأ ولا يكتب»..

ولقد وسع الله بهذه الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى متفقًا، وكانوا كذلك يقرأون على سبعة أحرف حتى كثر منهم من يقرأ ويكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان

رسول الله ﷺ وهو لسان قريش بعد أن صارت لقريش السيادة دينيًا ودنيويًا، وقد رووا على حفظ الألفاظ التى هى بلغة قريش، وآثروها حين لم تعد ضرورة إلى قراءة ما عدا حرف قريش «أى لغتهم» وبخاصة فإنهم كانوا مجتهدين فى القراءة بأيها -كما هو نص الحديث- ما كان الرسول ﷺ يبلغ الحروف السبعة لكل أحد، بل يبلغ كلاً ما يناسبه، ويسهل عليه النطق به، ولهذا لما علموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف -أى لغات- واشتهر بذلك بين الصحابة لم ينكر أحدٌ على أحدٍ قراءته.

وبعد. . . فإن القول بأن الأحرف السبعة يراد بها سبع من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة، ومعنى واحد كما تقدم، هو أشبه شىء بالجمع بين الأحاديث الكثيرة والآراء فى تلكم الأحاديث. . وهو المطابق لمنهج الأصول.

ونحن نقرأ بلسان قريش، ولا حاجة بنا إلى ما وراء هذا الحرف، ولا حاجة لمعرفة ما وراءه إلا لمجرد العلم، ولو عرفناه ما جازت لنا القراءة به، لتجتمع الكلمة. ويبقى للقرآن قول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وليست هذه الأحرف من القراءات السبع أو العشر أو ما وراءها.

وقد أورد الشيخ أحمد محمد على سلامة رحمه الله كلام الشيخ المرسى من خلال كلام السيوطى فى (الإتقان) تلخيصًا ضروريًا قال فيه:

«لا يصح القول بأن الأحرف السبعة هى القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء، لأنهم كانوا فى القرن الثانى والرواة عنهم أكثر من سبع، فلا يعقل أن الحديث يشير إلى قراءاتهم».

وربما أعان الله تعالى على بيان أصل القراءات المشهورة التى اقترنت بهؤلاء القراء، ولم ينكر واحد منهم قراءة الآخر، بل سوغها وجوزها، فجزاهم الله عن كتابه الكريم ما هم أهله، ورزقنا بعض ما رزقهم من الحياة لكتابه، والتأدب بآدابه والتزام أوامره، والكف عن زواجره، وإفراغ الوسع فى تقديم هداياته وبيان مقاصده وإبراز علومه للذين يترسمون خطاهم فى العلم والعمل. . آمين.

القراءات السبع وما وراءها

إن التعريف بالقراءات العامة فى القرآن الكريم وبيان أصلها، ومكانها من أداء كلمات القرآن الكريم ضرورى لإدراك مدى التزامها، ومن يلتزمها؟ ومتى يلتزمونها؟ حتى لا تكون فتنة وحتى يبقى كتاب الله تعالى كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والإمام ابن الجزرى وهو عمدة الذين يعتد بقولهم ممن تناولوا موضوع القراءات يقدم فى تعريفها قوله: «القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن، واختلافها بعزو الناقلة» وللشيخ الزرقانى رحمه الله تعريف يقول فيه «وهى فى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفًا به غيره فى النطق بالقرآن الكريم. . .».

وهذا الخلاف محكوم بما رآه الإمام السيوطى وهو يقول «فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات، والفرق عنه، فهو قراءة» ويسترسل فى بيان الإسناد وعلوه ونزوله، وأنه كما يكون فى الحديث يكون فى تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه، ويقول: «فالخلاف إن كان لأحد القراء السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والفرق فهو قراءة ثم بين بقية الأقسام».

والشيخ أبو سلامة رحمه الله، يقرر كغيره من علماء علوم القرآن «أن القراءات السبع متواترة جميعها، سواء منها ما كان من قبيل الأداء كالمد والإمالة أو تخفيف الهمزة أو لا، وسواء كان مختلفًا فى نقله عن القراء، أو متفقًا على نقله عنهم إلى التواتر والمد والإمالة والتخفيف ككلام العلماء. . والخلاصة أن الاتفاق على تواتر القراءات السبع يكاد ينعقد عند الجميع ويرد بسهولة ويسر على من خالف فى ذلك.

إن الاعتماد فى نقل القرآن وتواتره على الحفاظ من لدن رسول الله إلى أن جمع الله بذى النورين المسلمين فى مختلف الأقطار على المصحف الإمام الذى أرسل مع كل نسخة منه قارئًا توافق قراءته المصحف على الأغلب، وقد نقل الشيخ الزرقانى رحمه الله قول النويرى «والاعتماد فى نقل القرآن على الحفاظ ولذلك أرسل «أى

عثمان رضى الله عنه» كل مصحف مع من يوافق قراءته فى الأكثر. . . وقرأ كل مصر بما فى مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبى ﷺ، ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم فى ضبطها وأتعبوا نهارهم فى نقلها، حتى صاروا فى ذلك أئمة للاهتداء وأنجمًا للاهتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم، ولم يختلف عليهم اثنان فى صحة روايتهم ودرايتهم، إلى أكثر القراء وانتشارهم فى الأمصار، وكان لهم أتباع تعاقبوا على طبقات شتى، وبصفات مختلفة، وأن الله قيض لاختلافهم أئمة اجتهدوا فيما اختلف فيه هؤلاء، وبالغوا فى الاجتهاد، فرزقهم الله السداد ووضعوا أصول هذا الجانب وفصول هذا الأمر على نحو كان مصدر العلم بالقراءات التى تفرغ لها جهابذة ذكرهم فى المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام، وكان منهم صفوة مهروا فى القراءة والضبط حتى اتصلت إليهم رحلة طلاب العلم بالقراءات، وظهرت القراءات السبع، والقراءات العشر والقراءات الأربع عشرة، على تفاوت بينها فى الشهرة وذيوع الصيت، وقد كان للقراءات السبع من ذلك ما هى أحق به وأهله، فقد عرفت أن الإجماع يكاد ينعقد على تواترها على غير ما أتيح من ذلك للقراءات الأخرى. .

والقراءات السبع تعزى إلى سبعة من الأئمة هم نافع وعاصم وحمزة وعبد الله ابن عامر وعبد الله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وعلى الكسائى. وزيد على هؤلاء فى القراءات العشر أبو جعفر ويعقوب وخلف.

وهى القراءات المعتبرة، وكان أول من دون فى القراءات بعد عصر التدوين جماعة كان أعلمهم بالقراءات القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستانى وأبو جعفر الطبرى، واشتهرت القراءات السبع على رأس المئتين للهجرة ولم تدون إلا فى القرن الثالث حين نهض بذلك ابن مجاهد فى بغداد فى نهاية ذلك القرن.

وما ينبغى أن يوثق بنسبة قراءة إلى السبع حتى تتوفر فيها ثلاثة شروط:

أولها: أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً.

ثانيها: أن توافق العربية ولو بوجه.

وثالثها: أن يصح إسنادها. .

إنها بذلك توافق الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن.

وهذه الشروط الثلاثة لازمة الاعتبار لتكون القراءة من السبعة وإلا ردت عنها صفة الصحة، والمعول عليه هو استجماع هذه الأوصاف لا على من انتسبت إليه القراءة والارتياح إلى السبعة فرع ضبطهم والثقة فى توفر الشروط فى قراءتهم.. وعلى ذلك العشرة.

أما القراءات الشاذة فلا يعول عليها ولا يحسن الالتفات إليها، وكفى بما صح وثبت وسيلة للفهم والإفهام والأداء، ومن ذلك الشاذ كلمة «معائش» فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وأقول مع الشيخ الزرقانى رحمه الله: «ثم إن الغطاء قد انكشف عن أن القراءات السبع بل العشر كلها متواترة فى الواقع وأن الخلاف بينها لا ينفى عنها التواتر».

والتحقيق على أن القراءات العشر التى بين أيدينا اليوم متواترة كذلك، وذلك مأخوذ من قول العلماء «لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر».

وابن الصلاح يرى منع القراءة بما سوى السبع والعشر منع تحريم لا منع كراهة فى الصلاة وخارجها ورأى منع ذلك حتى لمن عرف مصادرها ومعانى الألفاظ، ودعا إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذا السياق، ويمنع الجمع بين القراءات الصحيحة.. ويرى ابن الصلاح وغيره أن القارئين بالشواذ يحبسون ويعذرون إن لم يمتنعوا..

ومع كل هذه العناية بهذا الجانب الضرورى من علوم القرآن ورعاية الإمالة والمد وتخفيف الهمزة وغيرها من أساليب كلمات القرآن، فلا أرى أن تكون هذه القراءات إلا لخدمة المفسرين ومستخلصى أحكام الله من كلماته وبيان وجوب الإعجاز فى الكتاب المعجز إلى يوم الدين حتى لا يكون نهبًا لبعض القراء فى الأحفال والمناسبات تثور به الفتن ويدعو إلى التساؤل، ويكون مجالاً لحكاية الجهال لما يسمعون من هذه القراءات من قراء لا يودون أن يفتنوا الناس بكتاب الهداية الذى يقول فيه منزله سبحانه ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

* * *

المجموعة الثانية:

من أى قراء القرآن أنت؟

- من أى قراء القرآن أنت؟
- تعلموا لسان القرآن وتدبروه.
- تدبر القرآن.
- على مائدة القرآن.
- القرآن مائدة الله.
- حول مائدة القرآن.
- من نفحات القرآن .
- استذكار القرآن وتعاهده.
- اغتباط صاحب القرآن.

من أى قراء القرآن أنت؟!

تعاقب المرسلون على الهداية إلى الله تعالى، إلى المدى الذى كانت تحيط به عقولهم وأقوالهم، وبالقدر الذى يكفل لهم سعادة الدنيا ورضوان الله يوم يجمعهم عنده كما قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد حرص المرسلون على توكيد المعاد إلى الله، فالعقلاء يدركون أنهم وجدوا ولا يرتابون فى فرصة الحياة، وإن ضل أقوام فنسجوا الوجود لغير الخلاق العظيم، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقرر وحده بأسلوب ربانى أنه الأول والآخر، وأنه الخالق دون سواه فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

والقرآن فى مجال الهداية إلى الله يفوق ما سواه من الكتب باعتباره كتاب الدين العام والرسالة الخاتمة، والله تعالى يقول:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

فى أول آيات سورة البقرة.. وفى هذا التعبير إشعار بأن القرآن هو الكتاب الكامل، الحافل ببراهينه، وشواهده، التى ينبغى أن تطيب بها الأنفس، وتذعن لها العقول..

ورحم الله الشيخ على سرور الزنكلونى فهو يقول فى كتابه: «الدعوة والدعاة» فى بيان الحكمة من إنزال الكتب وإرسال الرسل: إن الغرض منها جمع الخلق على الحق، والهداية إلى الصراط المستقيم، الذى يبتدئ من الله منشئ العالم وينتهى إليه... ويقول:

«والمقصود من الكتب السماوية فى كل زمان روحها ومعناها، وهى متفقة كلها فى المبدأ والغاية، وأنها هدى وشفاء، إلا أن مراتب الهداية تختلف، كما يختلف طريق العلاج إذا كثرت الأدواء، ويزيد القرآن على هذه الكتب بأنه جاء معجزًا فى لفظه ومعناه لأسباب لا يمكن بدون علمها الوصول إلى سر إعجازه.

ولقد لحظ رحمه الله أن الإعجاز لا يعنى الخفاء والألغاز، ولكنه كان فى القرآن دلالة على الطور الفعلى المرتفع الذى جاوز الإنسان فى عهد الرسالة الخاتمة إليه، حدود ما بلغ من سبقه من الناس فى عهود الرسالات المتقدمة، لقد كانت منة الله على الإنسان أنه «علم البيان».

لكن التعليم درجات ومراحل، والمعلم الكيس يعطى المتعلمين ما يتناسب ومستوياتهم العقلية، وما يتفق ووسعهم وطاقتهم فى الإدراك والتحصيل.

والمسلمون ومن لم يستجيبوا لله ورسوله قد أدركوا الكمال البشرى فى الإدراك والقدرة على تحصيل النافع من الهدايات الدالة على الله، وما شرع وأوجب من تكاليف وأوامر وأنوار تفيض الصفو، وتبلغ بآخذيها سبل الرشاد، والسعادة التى أوجبها الله تفضلاً وكرمًا لمن طلبها بهدايات الله فقال:

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وجاء القرآن الكريم كما قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

والمراد بهذا التصريف كما قال المفسرون، إما البيان والتكرير اللذين تسفر بهما الحقيقة وتثبت، وإما المغايرة التى تفيد الحقيقة من عدة جهات، وبغير أسلوب واحد.

قال الحسن رحمه الله: يعنى الأمثال، والعبر، والحكم والمواعظ، وأحكام الإعلام.
وقال الثعلبى بسنده: لقوله تعالى «صرفنا» معنيان: أحدهما أنه لم يجعله نوعًا واحدًا بل وعدا ووعيدًا، ومحكمًا ومتشابها، ونهيا وأمرًا، وناسخًا ومنسوخًا، وأخبارًا وأمثالاً، مثل تصريف الرياح صبًا ودبورًا... إلخ، وتصريف الأفعال والنهى إلخ.
والثانى: أنه لم ينزله جملة واحدة بل نجومًا كما فى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] والأمران -كما يبدو- لا يختلفان، بل إنهما ليتفقان فى مراد الله من ذكر القرآن وتدبره ودوام الشغل به، وذلك يُلحظ فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] .

كما يلحظ التدبير والتفهم من الآيات السابقة ومن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠] بالتشديد، وجلت منة الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

فمن شأن القرآن الكريم أن ينفح من يصلون أنفسهم بالقرآن بتقوى الله ومحبته وعدم الخلاف عن أمره، وأن يقدم لهم العظات، ويجعلهم على ذكر بالمثلات التى حاقت بالعصاة فى عصور الحياة المتقدمة.

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله «إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة -ولو قليلة باللغة العربية- فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به، وقرر أن الأمى أو الأعجمى ينبغى له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن ويبينوا له معناه، وذكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله أن الإمام قال فى هذا المقام إنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة فى عمره، فأقل فوائد هذا أن يأمن فى مستقبل أيامه من إنكار شىء منه إذا عُرض عليه أو سمعه.

إن القرآن يُتعبد بتلاوته حق تلاوته كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

ولقد فسر الإمام محـمد عبده حق تلاوته بفهم أسراره، وفقه حكمة تشريعه، وفائدة نوط التكليف به، وأكد الأستاذ الإمام أن تعبدنا بتلاوة القرآن، ليس كل حق القرآن، ولا ما ينبغى أن نقف من القرآن عنده، فقد أنزل الله القرآن ﴿**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩] وأوجب مثل ذلك التدبر والتذكر للسنة النبوية، فلقد أوتى النبى ﷺ، القرآن ومثله معه.

وأمثال القرآن وهى كثيرة تطالع الناظر المتأمل لكلام الله تعالى، نعمة كبرى من الله لتعـميق معـانى القرآن الكريم فى أعـماقنا، وهى حجة على الذين لم يُولُوها أسماعهم الـواعية وقلوبهم المدركة. قال الإمام ابن قـيم الجوزية فى (بدائع الفوائد ج٤): ضرب الأمثال فى القـرآن يستفاد منه أمور التذكـير والوعظ والحث والزجر والاعتبـار والتقدير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره فى صورة مشـتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، والثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم. اهـ».

إنها واحدة الأساليب القرآنية، وضـروب الإقـنـاع الإلهى للناس، والـقـرآن هو حافل بالأمثال يضـرب فيه النبى ﷺ وفى قارئيه الأمثال فـيما مضى بين يديك من أحاديثه، وفيما ذكـرنا من كلام على وابن مسعود رضى الله عنهـما. . وقد أخرج الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويتدبره كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقـرأ القرآن كالتمـرة طعمها حلو ولا ريح لهـا. ومثل المنافق الذى يقرأ القـرآن كمثل الريحانة ريحـها طيب وطعمـها مر، ومثل المنافق الذى لا يقـرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها**» -أو كما قال ﷺ.

والحـديث عند مسلم باخـتلاف يسـيـر فى لفظه. والأترج معـروف فى بعض بلادنا، ويطلق فى العراق على نوع من الفاكهة يشبه البرتقال، رائحته عطره وطعمه حلو، ولونه يضرب إلى الصفرة، وهو من الثمار التى لا يسارع إليها الفساد، وأنها مثل لبلاغة رسول الله الذى علمه مولاه ما لم يكن يعلم، فالمؤمن الذى يقرأ القرآن

بحقه من التنزيل والأدب والتدبر والعمل؛ خيرٌ ألف مرة ومرة من الأترج الذى عرفت صفاته، وأحطت بخصائصه وسماته.

وقد عرف الرسول الريحانة فريحها طيب وطعمها مر، وكذلك الذى له بكل معصية إلف بعد أن شق الإيمان وخلص إلى آثام. هو ولا ريب ذلك المنافق القارئ للقرآن، يكون بقراءته للقرآن طيب المظهر، خبيث المخبر، لأنه ما انتفع بكتاب الله ولا اهتدى بهداه.

والتعبير فى الحديث بلفظ «يقرأ القرآن» على المضارع إشارة إلى تجدد القراءة والعمل بالقرآن وحفظه وتدبره قصدًا إلى الاتعاظ والعبرة.

فهل نكون بالقرآن حفظًا وتفهمًا وتدبرًا والتزامًا كالأترجة؟!

إن ذلك إذا ما أردناه واستعنا عليه بالله ميسور سهل المدرك.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

* * *

تعلموا لسان القرآن وتدبروه

مراد الله تعالى من المنصفين أن يتدبروا القرآن، وينعموا نظرهم فيه لاستجلاء مراميه، وأخذ معانيه، والإحاطة بما يعين الله على إدراكه من أسراره فيه، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

والإمام ابن أبى جمرة ينصح الذين يحرصون على مناجاة الله تعالى بكلامه أن يزدادوا حرصًا على تدبر ما يقرأون فيقول: «والمرغب فيه التدبر فى القراءة وإن قلَّت، وهو خير من كثرة القراءة بلا تدبر، وفائدة التدبر هى أن تعرف معنى ما تقرأ من الآى».

والمؤمنون يتفاوتون فى تدبرهم للقرآن الكريم، ووقوفهم أمام حبل الله الممدود بين السماء والأرض، ومنهجه المبين للعقيدة والعبادة والسلوك والأخلاق وقصص الأولين من آمن منهم ومن كفر ومن بر ومن غدر، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ورحم الله أبا الحسن على بن أبى طالب، فمما نسب إليه فى «نهج البلاغة» ص٣٢٥ «.. ثم أنزل عليه الكتاب نورًا لا تطفأ مصابيحه، وسراجًا لا يخبو توقده، وبحرًا لا يدرك قعره، ومنهاجًا لا يضل نهجه، وشعاعًا لا يخبو نوره» حتى قال: «فهو معدن الإيمان وبحبوحته ينابيع العلم وبحوره، جعله الله ريا لعطش العلماء وربيعًا لقلوب الفقهاء وفجاجا لطرق الصلحاء..»

فى استرسال يجمع بين الإشادة بكلام الله، وتبيان فضله واحتفاله بكل ضروب الكمال ووجوه الجمال، وشئون الحياة والأحياء فى تفصيل وإجمال دال بيسر

عبارة، ولطف إشارة، فهو كلام الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ويعلم من خلق، ولم يدع عباده إلى تدبر كلماته، ليعجزهم أو يعنتهم بطلب محال، ولكنه سبحانه جعله فى متناول أولى النهى، آيات لأولى الألباب، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ورحم الله سلفنا الصالح، بقدر ما أولوا القرآن من عناية واهتمام، وتشمير فى سبر أغواره وتعمق هداياته، فتركوا من ذلك ما بقى نورًا ومددًا للذين تعاقبوا عبر العصور يكملون مسيرة الوفاء لله وكتابه، آخذين من وسائل العلم الجديدة وأساليب الدراسة والنظر ما أضاف النافع من حقائق القرآن وشواهد ربانيته، وبراهينه، إنه المعجزة الخالدة التى يتتابع الزمن بأحداثه وتتعاقب آيات الله فى الأنفس والآفاق بمصداق قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وحجة الله علينا أن القرآن الكريم قد نزل به الروح الأمين كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

وكان بلسان قومه، سنة الله التى قد خلت فى الرسالات الأولى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

واللسان العربى هو وعاء الإسلام فى مصدريه العظيمين القرآن والسنة، فما تلقى مسلمًا إلا وهو يقرأهما بلسانهما، ويعرف مرادهما، لا فى اللهجات التى تظهر وتختفى كالفقاقيع وحباب الماء، ولا فى المحكيات التى تشيع في السراديب

والمجتـمعـات النظيـفة، وكم يعنت الناس ويكون فـتنة لعـقولـهم من يخاطبـهم بالمحكيات، لكنه يكون نعمة عليهم وهو يـكلمهم بلسان القرآن والسنة، وما أنسى يومًا لقيت فيه حاجًا إندونيـسيًا وكنت حريصًا على أن أتحدث إليه، ويبدو أنه كان يبادلنى هذه الرغبة، وسألته هل تتكلم العربية؟ وفهـمت من قسمات وجهه أنه لا يتكلمها، وسألته هل تتكلم الإنجليزية؟ وكان أمـره فيها أنه لا يتكلمها، وراح ينظر إلىَّ نظرات أبادله مثلها وكلها الحنين إلى أن نتفاهم، ولم يسعفنا إلا قراءتى لآيات من القرآن الكريم، وراح هو يكررها ويقرأها معى وبعدى، وقرأت بعض عبارات من الأدعية النبوية، فانطلق لسانه بتكرارها! ولقد قلت يومًا:

هكـذا قــــدرتهـم حين دانـوا ... منزل الوحى واحـتـموا بـحمـاه
وتناجـــوا بـالبـــر إن خــان لفظ ... أســعـــفت كل مــؤمن عـــيناه
فى رؤاها مـن الوفــاء شـــهـــود ... أو تخــــفى من التــــقى رؤاه
لست أنسى بيضًـا وحمرًا وسـمرًا ... أسـمـعــونى القـرآن، مـا أنداه
وعـلا صـــوتهم بتـسـبـــيح ربى ... عـربـيًا، قــد أدركـوا مــعناه

فلنتدبر القرآن، ولنحرص على لسانه فـهو الوشيجة والآصـرة والزمام الجامع، ولنحـذر الدعوات المسمـومة التى يتـصايح بهـا نفر من هنا ونفـر من هناك ظالمين للســان القرآن ووعـاء مفـاخـر الأمة فى مـاض وحاضـر، وهو ظلم مردود على مقترفيه، فقد صان الله هذا اللسان بالقرآن كـما نفهم من كتاب أشهر مائة شخصية أثرت فى مجرى التـاريخ. «. . ونظرًا لأن هذا القرآن مكتوب باللغة العـربية فإنه صان هذه اللغة ومنع انحلالها وتفككها إلى لهـجات لا يمكن فهمها. ومما لا شك فيه أنه لولا ذلك لحدث لهـذه الأمة على مدى الثلاثة عشر قـرنًا الأخيرة. . لحدث لهذه اللغة مثل هذا الانحلال والتفكك».

وبوركت لغة صانها الـقرآن الباقى بحفظ الله، وبورك القرآن يحفظ على الأمة ملاذ أمجادها وينبوع مفاخرها، وزمامها العاصم من التفكك والانحلال.

* * *

تدبر القرآن

قال ابن كثير رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥] أى متذكر بهذا الذى قد يسر الله حفظه ومعناه. وحفظ القرآن قد تأذن الله به فهو محفوظ بنا وبغيرنا، لكن اتضاح معانيه وظهور مغازيه واستعلان مضامينه ومطاويه، هى المناط الذى امتاز به القرآن فيما امتاز به على الكتب السماوية جميعًا.

ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وليتسع أمام عينى المنصف مدى هيمنة القرآن على كتب الله تعالى بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وهل يهدى القرآن ويقص إلا وهو من الوضوح وصدق الدلالة إلى الحد المعين على ذلك؟. ومخاطبة الناس بما لا يفهمون فتنة لهم ومحنة لعقولهم، وهى عذر لهم ناهض بعد أن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فلنمض مع القرآن متحدثًا عن القرآن الكريم، فأكرم به من متحدث، وأكرم به من حديث.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿ وأُوحيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال القرطبى: من بلغـه القرآن فكأنما رآى النبى ﷺ (نسبه ابن كـثير إلى ابن أبى حاتم وقال: زاد أبو خالد- وهو أحد رواة الحديث-) وأيد ابن جرير رواية القرطبى.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه: ١١٤].

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٢٨].

والاختلاف الذى صـان الله عنه كتابه، وعلى معان هى: الـتناقض -كما روى ابن الجوزى فى تفسيره عن ابن عباس وجـماعة -أو الكذب: كما روى عن مقاتل وغيره، أو اختلاف تفاوت من جـهة بليغ من الكلام ومرذوله، إذ لابد للكلام إذا

طال من مرذول وليس فى القرآن إلا بليغ ذكره -الماوردى فى جماعة زاد المسير ج٢ ص١٤٤ وما بعدها.

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

ووراء هذه الآيات آيات تتحدث عن القرآن معرفًا، وآيات ذكر فيها القرآن بدون تعريف كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ الم ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١، ٢].

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١].

وشارك القرآن التوراة فى اسم (الكتاب). قال تعالى مخاطبًا أحبار اليهود: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩].

وإن شاركت التوراة فى ذلك القرآن فى رأى للمفسرين أو أم الكتاب فى رأى آخرين تكلموا فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ومجرد إيراد الله هذه الآية وفى سورة تحمل اسم الأنبياء، شهادة على فضل القرآن كتاب الله على ما سواه من كتب الله جل علاه.

ولا أتجاوز هذا المدى لأخلص إلى وعد الله تعالى بحفظ كتابه. وإفراد القرآن بهذه الخاصية على حين وكل غيره من كتبه تعالى إلى أقوام لم يرعوا لله فيها عهدًا وكان أمرها ما كان.

قال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى كتابه «النبأ العظيم».

وبقى القرآن محفوظًا فى حرز حريز إنجازًا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩].

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

أى ما طلب إليهم حفظه. وجلا الدكتور دراز السر فى هذه التفرقة فقال: «إن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد، وإن هذا القرآن جىء به مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليها وكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدًا عليها ما شاء الله زيادته. وكان سادًا مسدها ولم يكن شىء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى يوم القيامة. وإذا قضى الله أمرًا يسر أسبابه. وهو الحكيم العليم.

والكلمات فيما استهدفت بيانه فيض غزير من نور إيمان فقيد الإسلام الشيخ دراز رحمه الله وهى برهان لا يدفعه شىء من براهين فى كلامه وفى غير كلامه على فضل القرآن العظيم، فهو كلام الله الذى يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]

وقال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ونضر الله وجه الإمام ابن قيم الجوزية فقد قال فى مقدمة كتابه (الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان): وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان، ونظر فى أشعار العرب وخطبها ومقالاتها فى مواطن افتخارها ووسائلها وأراجيزها وأسجاعها، فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله. وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس، وبدائع البديع، ومحاسن الحكم والأمثال. فإذا علم ذلك ونظر فى هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان فقد أوتى فيه

العجب العجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التى تحير الألباب، وتغلق دونها الأبواب فكان خطابه للعرب بلسانهم، لتقوم به الحجة عليهم ومجاراته لهم فى ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم، ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم، وكلت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم، وبرق فى رونق الجمال والجلال فى أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال.

ولذلك يقع فى النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع. وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء أكانت فاهمة لمعانيه، أو غير فاهمة عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كفرًا بما جاء به أو مؤمنة.

وابن القيم يبلغ بحسه المرهف هذا المدى من بلاغة القرآن وصحة نسبته إلى الله تعالى بما انفرد به من خصائص لا نراها ولا بعضها فى غيره من الكتب الإلـهية والوضعية.

«وكتب ابن القيم تقدم المزيد من هذا الذى يجلو إعجاز القرآن فى غير وجه من وجوه الإعجاز للذين لهم بعض تأهيل ابن القيم بسبر أغوار كتاب الله، وكشف ما شاء الله من أسراره وإبراز المنهج الربانى فى حوار القرآن وأمثاله، وقصصه، وهى تعمد إلى ما هو عبرة وبلاغ لقوم يعقلون بعيدًا عن السرد التاريخى، وما يعمد إليه الناس لتبدو القصة فى حبكتها الفنية اللافتة للأنظار لا للاستبصار».

وكتاب «الفوائد» و«بدائع الفوائد» و«مفتاح دار السعادة». وغيرها من كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله، خليقة بأن نذكرها ونذكر بها، وندعو إلى مراجعتها فى هذا السياق. ليتضاعف إيماننا بعلو القرآن وارتفاعه عن الشبيه والمثيل.

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٣].

* * *

على مائدة القرآن

إن الله الذى حبب إلينا الإيمان، وزينه فى قلوبنا، ويسر لنا اجتناء ثماره والاستجابة لأوامره ونواهيه فى أنواره، هو الذى شرف أمة محمد ﷺ بنزول القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وتفصيل كل شىء، يتم به نقاء العقيدة، وتمام العبادة، وكمال السلوك، والعلم الضرورى بأنباء من قد سبق من الأمم، للتأسى والحذر والاعتبار ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فليس عجبًا أن يمتن الله على الإنسان بالقرآن، قبل أن يمتن عليه بنعمتى الخلق والبيان، فقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤].

يقول الأستاذ الألوسى فى تفسيره «روح المعانى» ج٢٧ «علم القرآن» «لأنه أعظم النعم شأنا، وأعلاها مكانا، كيف لا، وهو مدار السعادة الدينية والدنيوية ومعيار على الكتب السماوية، ما من مرصد ترنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه، ولا مقصد تمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه». والقرآن الكريم وحى الله إلى مصطفاه ليبشر به المتقين، وينذر به قومًا لدا، وليبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، بعد أن نزل بلسان العرب لتقوم به الحجة وتستقيم المحجة، ويهدى للتى هى أقوم، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧] وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، ومنذ أدى أمين السماء جبريل عليه السلام أولى آيات القرآن إلى أمين الأرض سيدنا محمد ﷺ وتتابع الوحى والرسول يبلغه أمينًا صادقًا، ويعمل به ويعلم أصحابه مما علمه مولاه ما لابد لهم منه، ولا غنى لهم عنه بعد أن امتن عليه مولاه بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

والإمام ابن الصلاح ينقل صاحب «الإتقان» الإمام السيوطى عنه قوله: «إن قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر» وهو كلام يؤكده امتنان الله على الإنسان بأنه تعالى علمه القرآن، ولا ينافى هذا قراءة جبريل عليه السلام فإنه مبلغه ولم تكن الملائكة مخاطبة به، والبشر دون سواهم تتجه إليهم منة تعليم القرآن على تفاوت بين المسلمين فى العلم بألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به وليس لكائن أن يلم بمعانى القرآن ومغازيه ومراميه كما حملت من علم الله تعالى والله أعلم بمراده وحده من كلامه. . قال الشيخ المرسى: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يُحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلم به ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه». . . يقول صاحب «المطالب العالية» ابن حجر ج٤ ص٢٨ «عن أبى موسى الأشعرى -رفعه- قال قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت مفاتيح الكلم وخواتيمه.** قلت يا رسول الله علمنا مما علمك، فعلمنا».

وقد ذكر أبو الدرداء رضى الله عنه «أن الرسول ﷺ تركهم وما يطير طير فى السماء إلا ذكرنا معه علمًا» لقد بلغهم الرسول القرآن وعلَّمهم من مراد الله منه ما لا غنى لهم عنه، فعملوا بما علموا وعلموا ملتمسين عدة رسول الله ﷺ «**نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها وبلغها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع**» رواه الترمذى والنسائى وأخرجه ابن ماجة من حديث عباد الأنصارى. . . ولقد أعان الله تعالى صحابة الرسول فجمعوا القرآن فى الصدور والسطور وفى اللخاف والعسف والجلود. . . وقد بدأ جمع القرآن بمعنى حفظه وانتظامه فى الصدور والسطور فى عهد النبى ﷺ وتم جمعه فى الصدور لأربعة هم كما روى أنس رضى الله عنه: زيد بن ثابت، وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل، وأبو زيد من عمومة أنس رضى الله عنهم.

وقد ذكرت رواية أخرى أبا الدرداء مكان أبى رضى الله عنهما . . وهؤلاء أخذوا القرآن تلقينا من رسول الله ﷺ كما أخذه الخلفاء الأربعة بفضل اتصالهم وقربهم أكثر من غيرهم من النبى ﷺ.

وحفظه وراء هؤلاء جماعة منهم سالم مولى أبى حذيفة وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو، فقد أخذوا بعض القرآن تلقينًا من رسول الله ﷺ وأخذوا بعضه من غيره صلوات الله عليه وسلامه، واشتهر من هؤلاء الصفوة سبعة هم: عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعرى، أعظم الله مثوبتهم بقدر عنايتهم بالقرآن المستوعب تلقيًا وفهمًا وحفظًا وتطبيقًا وإقراء لغيرهم من الصحابة والتابعين.

والقرآن بما مر بك خليق بكل عناية ورعاية وتطلع واهتمام بمقاصده ومراميه، وقد أخرج أبو الشيخ فى كتاب «العظمة» عن أبى هريرة رضى الله عنه . . مرفوعًا- «**إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة**».

وهى فى الكتاب الكريم شهادة أن القرآن كلام الله وكتابه الجامع تصريحًا أو إشارة وتلميحًا لكل ما يصلح الحياة ويسعد الأحياء، ورحم الله الإمام ابن جرير الطبرى فقد أورد قول ابن مسعود رضى الله عنه «أنزل فى هذا القرآن علم كل شىء وبين لنا فيه كل شىء، ولكن علمنا يقصر بما بين لنا فى القرآن» وبحق ما يقول ابن عباس رضى الله عنهما «لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله».

فهو يعنى -لا ريب- العلم بمراد الله من مراميه وأوامره وأحكامه وهداياته، والإمام على رضى الله عنه يقول: «ما يسرنى لو مت طفلاً وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربى، فإن أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم فى الله نصيحة. . .» والإمام الألوسى يرى أن المراد فى قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] هو العلم، فهو يحوى كل شىء. . إن سبيل علم ما فى القرآن من أسرار وأحكام هو تدبره والنظر فى كلماته وجمله وآياته وإفراغ الوسع فى ذلك مجال تفاوت وميدان تسابق الثقات وتميزهم.

ورحم الله الحسين فقد قال: «إنكم اتخذتم قراء القرآن مراحل وجعلتم القرآن جملاً تركبونه فتقطعون به المراحل، فإن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم وكانوا يتدبرونه بالليل وينفذونه بالنهار، ويا ويح من لم يكن ذلك ارتباطه بالقرآن ممن عناهم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وهو يقول «أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا قراءته عملاً، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا وقد أسقط العمل به» ونضر الله وجه الإمام أبى حامد الغزالى فهو يذكر فى كتاب «التفكير» من الأحياء أن ترديد آية بتفكر ولو طول ليلة خير من ختمة كاملة من غير تدبر قال: فإن تحت كل كلمة منه أسرارًا لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بتدقيق الفكر عن صفاء القلب، بعد صدق المعاملة، وهو تعبير من الغزالى رحمه الله، وتعريف بما يجب لكلام الله تعالى، نذكر معه حقيقة كبرى فهو يقول: وكذلك حكم مطالعة أخبار النبى ﷺ، فقد أوتى ﷺ جوامع الكلم، فكل كلمة من كلامه نهر من غزير الحكمة، لو تأمله العالم حق تأمله، لم ينقطع نظره فيه طول عمره».

ثم قال: «وانظر قوله ﷺ:

«إن روح القدس قذف فى روعى، أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به» رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم.

فإن هذه الكلمات جامعة لحكم الأولين والآخرين وهى كافية للمتأملين، ولو وقفوا على معانيها، وغلبت على قلوبهم غلبة يقين، لاستغرقتهم، ولحالت بينهم وبين التلفت إلى الدنيا..»

ولا شك فى أن المؤمن محكوم فى عمله بمنهج الله الذى رسمه لعز الحياة وأمن الآخرة، وذلك يقتضى التلفت إلى الحياة باعتبارها مزرعة الآخرة وميدان الاستخلاف والتنافس فيها لإبلاغها الكمال الممكن، وإبلاغ أنفسنا منها ما قسم الله لنا.. والهدى من قبل ومن بعد هدى الله رب العالمين.

* * *

القرآن مائدة الله

القرآن مائدة الله الكبرى وحبله الموصـول بينه تعالى وبين عباده وهو يده الطولى التى امتن بهـا سبـحانه ونوه بأنه علمـه قبل أن يمتن بنعـمة خلقـه -جلت آلاؤه- للإنسـان فقـال ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

والقرآن هـدى ونور وشفاء لما فـى الصدور، وهو كتـاب الأزل والأبد وسجل الدنيا والآخـرة وهو نعمـة الله على من استـبصر ورشـد وغدا وراح فى سـراجه الوضاء، وحجته على الذين وضعـوا أصابعهم فى آذانهم دونه وقالوا للرسول وهو يتلو آياته عليهم ويسـديها إليهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وتواصلوا بذلك وصدوا عنه غيرهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ورحم الله الإمام الجاحظ فهو يقول عن القرآن «حجة على الملحد وبيان للموحد قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وشهاب لا يطفأ نوره، وبحر لا يدرك غوره، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار».

وما من أحـد ممن ينصفـون إلا وقد أخذه صـدق القرآن، وسطوع براهينه وظهور شواهده أنه كلام الله ووحيه وتنزيله وسبيله لعز الدنيا وصفو الحياة وجميل العقبى يوم نصير إلى الله بما ائتلف من منهج الله عقيدة وعبادة وسلوكًا وتوجيهات وتزكية للأنفس وعرضًا يستلين الأفئدة بأخبار من بروا عبر التاريخ وفجروا ومن آمنوا ومن كفروا.

وتتم نعمة الله بكتابه بأنه بلسان عربى مبين، وبيان سهل التناول ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وجزالة لفظه، وجلال عباراته، وترابطه جملاً وآيات وسوراً تنسجم جميعًا وما تقدمها وما لحق بها فى أهدافها ومراميها أمارة أنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وإن لسانه صلوات الله عليه لعربى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

سنة الله التى قد خلت فى عباده أن يكون لسان كل رسول إلى قوم هو لسانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ [إبراهيم: ٤].

أجل وقال قائلهم منصفًا القرآن فى لحظة من صحو الضمير وصدق الشعور وبفضله وأنه يحطم ما تحته ويعلو على كل ما سواه، «وما هو بقول بشر»، لكنه نكص على عقبيه، وهو يقول «إن هو إلا سحر يؤثر» وكان فضل الله بالقرآن عظيمًا على العربية، فقد صانها من أن يشوبها عجمه، أو يخاطبها دخيل، أو ينزل بها إلى درك العامية غفلة أو تهاون... ومهما قيل إن فى القرآن كلمات وألفاظًا أعجمية أو رومية أو حبشية، فإن الأمر لا يعدو أن تكون هذه الكلمات مما اتفق جريانها فى مختلف اللغات على نحو لا نستطيع أن نقول فيه إنه فارسى معرب وهكذا أو هو قد وجد فى هذا اللسان قبل ذلك اللسان.... كما حقق ذلك الأستاذ محمود شاكر فى ذيل صفحتى ١٨-١٩ من ج١ مقدمة تفسير الطبرى فقال:

«وإذًا فقول القائل من السلف (فى القرآن من كل لسان) ليس يعنى أن فيه ما ليس بعربى مما لا يجوز أن ينسب إلى لسان العرب، وهذه الألفاظ نفسها، مما استعملته الفرس أو الروم أو الحبش، من جهة اتفاق اللغات على استعمال لفظ واحد بمعنى واحد، لا على جهة انفراد الكلمة من القرآن فإنها فارسية غير عربية أو رومية غير عربية، فإن السلف أعرف بكتاب الله وبمعانيه وبحدوده، لا يدخلها الفساد فى أقوالهم، مناقضين شهادة الله لكتابه بأنه عربى غير أعجمى».

حـول مائـدة القـرآن(*)

للإمام ابن قيم الجوزية. . رحمه الله. . نظرات فى القرآن تشف عن وجدانه، وتكشف الكثيـر من ملامح إيمانه، وهو فى كل ما كتب يضـع من يتلمح كلامه أمام ظاهرة لا محيد عنها، هى عمق النظر، وصدق الفهم، والإخلاص فى ذلك إلى المدى الذى يمس به القلوب، ويستحوذ به على المشاعـر. أبو عبد الله محمد ابن أبى بكر بن أيوب بـن سعـد الزرعى الدمـشـقى، ابن القـيم. . نضـر الله وجهه. .

ولا أزعم أننى قرأت الكثير مما كتب الإمام حـتى يكون حكمى مستوعبًا، ولكن الذى لا ريب فيه أننى ألحظ جوانب ذات عـدد من كتبه: «زاد المعاد»، وهو أول ما عرفت من كتبه فى مقتبل العمر وأيام الطلب، وكتاب: «عدة الصابرين»، فقد كان من الوسائل الضرورية للدعـوة إلى الله التى شاء الله أن نتمرس بها عـملاً وحالاً، وكتاب: «مفتاح دار السعادة» و«حادى الأرواح» و«روضة المحبين» و«إغاثة اللهفان» و«مدارج السالكين» و«بدائع الفوائد» و«الفوائد» الذى يطيب لى أن أنعم فيه النظر، وأملى للعقل والقلب معًا فى قـبسات منه حينًا بعد حين، وما لا أحصى من كتبه رضى الله عنه «هداية الحيارى»، وما جمع من تـفسيره المنثور فى مـؤلفاته باسم: «التفسير القيم».

وأبادر فأقرر أن تجريد العقيدة، وتنقية التوحيد مما علق به من شبهات فى أفكار أقوام، والتربية النفسـية التى تستبين فى شعر ابن القيم رحـمه الله مع خفق فؤاده، ومشاهد اجتـهاده فى طاعة الله، وحرصه على أن يكون المؤمنون على مـستوى من ذلك تجعل لشعره أثره فى النفوس، وأسره للمشاعر، وعد إلى بعض ما قال رحمه الله فربما التقت مداركنا عند هذه الحقيقة. .

(*) مجلة التضامن الإسلامى- السنة الرابعة والثلاثون- الجزء الأول رجب ١٣٩٩هـ، يونية ١٩٧٩م.

وأرانى أمام كلمات له عن القرآن شاهدًا بجلال الله وكماله.. كما قال: «كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات..»، أقف معك متأملاً قوله:

وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضى[1] عليه آراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، لأراك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويبعث الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطى ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويرى من فوق سبع سماوات ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشهد أحد عنده إلا بإذنه، وليس لعباده من دونه من ولى ولا شفيع..».

وأستأذن فى الوقوف مع ابن القيم أمام هذه الروضة المعطار من رياض التوحيد الحق، والإيمان الثر، والإدراك البصير، والتعبير الذى يملك أزمة القلوب، والاستيعاب والإحاطة الشاهدين بسعة العلم وتباعد جوانب المعرفة، والذهاب مع القرآن الكريم إلى غايات لا تتاح إلا لمثل هذا النموذج الفريد من الرجال..

ويقينى أن كثيرين تدركهم هذه المشاعر، وقد يتجاوزونها إلى مزيد منها وهم يتأملون هذه الكلمات.. وأمثالها كثير فى كتب ابن القيم.. لكنى أود أن أسأل: لماذا لا يعطى الكثيرون تأملهم للقرآن، واهتمامهم لسنة الرسول ﷺ الذى أوتى القرآن ومثله معه، وهم ينشدون.. بزعمهم.. المعرفة، ويطلبون العلم، ويريدون أن يصلح الحكم، وأن تقوم العلاقات والروابط فيما بينهم على خير؟!..

● دين ودنيا:

إن الدين والدنيا يلتقيان فى مصدرى دين الله فى القرآن والسنة.. فلم لا يرفع المنصفون العوائق حتى ينظم القرآن والسنة للأحياء عقد حياتهم، ويمهدوا لهم

(١) أحسبه يعنى بهذه الكلمات أن تحكم عليه وتتحكم فيه، فلله ولكلامه الخلود والبقاء.

صراط الوجـود السعـيد، والعيش الرغـيد، قبل أن يشـيع فى الناس نظم وقوانين وأفكار لا يطيب بها عيش ولا تصلح حال ولا يحسن مآل؟!. . .

وكلام ابن القيم رحمه الله يميط اللثـام عن جلال الله وكماله وجماله، وحكمته ورحمته، وقيوميته وعلمه المحيط وقدره الراصد، وتفرده بالأمر فى عاجل وآجل. . واقرأ هذه الكلمات مرة أخرى ومرات، فلن تمل تلاوتها، وستجدد لك حلاوتها، وعد منها إلى القرآن الذى دلتك كل جملة منها على أصلها فى كتاب الله، وستراك أمام الشجرة التى منحتك هذه الثمرة.

وهل ينبت الخـطى إلا وشـيـجـه   وتغـرس إلا فى منابتهـا النخل؟!

أمام كتاب الله الذى ﴿ **يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩] وهو: ﴿ **شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء: ٨٢] وتحدى الله به فرسان البيـان فى عصره وأئمة اللسن فى اللغة العربية، تحديًا تتسع جوانبه، وتتعدد ضروبه، ويمضى مع مسيـرة الحياة التى تنطق بحـجتـه على الجـميع كـمـا قال تعـالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾ [النمل: ٩٣].

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. . .** ﴾ [فصلت: ٥٣] وكلامه الحق، وقوله الصدق، وأغراض البيان فيه، ودلائل الإعجاز فى شتى مناحيه تجعل تحديه ما زال قائمًـا اليوم وإلى آخر الزمان، ولكل فكر وكل لسان، كما فعل من قبل، وليجرب من شـاء فى عصر الزحف العلمى، واكتشاف الفضاء، وعبادة المادة والعياذ بالله. .

والعرب لا ينازعون فى بلاغتـهم وفصاحتهم، ومن آثارهم أخذ الأخلاف، وعلى نهجهم سـارت أعصار، كان للفصـحى فيها. . للغة الـقرآن. . سلطانها وهيمنتها على التفكيـر والتعبير، حتى صرنا فى فرصة حـياة واحدة لا نستطيع أن نتناجى بلسان القرآن، ولا أن يشد بعـضنا إلى بعض خطاب أو بيان وكنت ذات ليلة فى جلسـة شهدها طلبـة باكستـان فى الجامعـة الإسلامـية فى المدينة

المنورة وتحلقوا فيها حولى، وقرأ بعض طلبتنا القرآن أحسن ما يقرأ، ورجوت الإخوة أن يكون للسان القرآن حظ فى هذا اللقاء ولكن الأمر جرى على غير ما رجوت، وتكلم الضيوف الأكارم، وعدت أرجو أحد طلاب الجامعة أن يترجم للإخوة بعض مشاعرى وأن يترجم لى بعض كلماتهم، وقد كان، وكانت فرصة رجوت فيها الطلاب وقد شدوا حظًا من دراسة اللغة العربية فى الجامعة أن يعطوها بعض اهتمامهم حتى يتضاعف بهم النفع يوم تناط بهم الآمال فى باكستان وغيرها من مجالات الدعوة إلى الله، وحتى يفيد الناس منهم كما أفدنا الكثير من المجاهد الكبير الشيخ السيد أبى الأعلى المودودى. . (١).

أجل يذكر العلماء فصاحة العرب، وتلك حقيقة، وينسون أنها لا يمكن أن توضع فى كفة ميزان أمام القرآن، فأغراض البيان العربى القديم كانت محصورة مقيدة فى وصف الصحراء والخيول والخمر والتمجد بالأحساب والتكاثر بالأنساب والأولاد وأين هذا وأضعافه مما تناوله القرآن، واستهدفه كتاب الله الذى جمع فأوعى؟ . . يقول الشيخ رحمة الله الهندى:

«إن فصاحة العرب أكثرها فى وصف المشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك، أو ضربة أو طعنة، أو وصف حرب، أو وصف غارة، وكذا فصاحة العجم سواء كانوا شعراء أو كتابًا أكثرها فى أمثال هذه الأشياء»(٢).

ويبقى للقرآن الكريم السبق، غرضًا وأسلوبًا وترغيبًا وترهيبًا وتربية ومنهج توجيه وإقناع؟! . .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ... ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

---

(١) نشرت مجلة «الوعى الإسلامى» مقالة: «تعلموا لغة دينكم» فى عدد صفر ١٣٩٩هـ.

(٢) فى فصل طيب عقده فى جـ٢ من كتابه: «إظهار الحق»، لبيان أن القرآن كتاب الله.

ولقد وجه أحد المسلمين فى تونس إلى الشيخ محـمد رشيد رضا -رحمه الله- سؤالا[1]:

.. (ما هو حكم الله فيـمن يطالع الكتب السماوية الأخرى مثل التـوراة بقصد الإحاطة خبرا بما جاء فى غير شريعتنا؟! وهل كان النهى عن قراءتها عامًا؟!

.. إذا سلمنا ذلك تكون الشعـوب غير الإسلاميـة ممتازة على المسلمين، لعدم منع أنفسهم إجـالة النظر فى القرآن الشريف، فيسـتفيدون مما جـاء فيه من الآيات البينات به علينا عند اللزوم، ونحن لا نستطيع أن نقابلهم بالمثل؛ لأن كتبهم مغلقة فى وجوهنا)..

وكان جواب المنار.. «الأمور بمقاصدها، فمن يطالع كتب الملل بقصد الاستعانة على تأييد الحق، ورد شبهات المعترضين ونحوه، وهو مستعد لذلك، فهو عابد لله تعالى بهذه المطالعة، وإذا احتيج إلى ذلك كان فرضًا لازمًا.

وما زال علماء الإسـلام فى القديم والحديث، يطلعون على كتب الملل ويردون عليهم بما يستخرجونه منها، من الدلائل الإلزامية وناهيك بمثل ابن حزم وابن تيمية فى الغابرين، وبرحمة الله الهندى صاحب: «إظهار الحق» فى المتأخرين، أرأيت لو لم يقرأ هذا الرجـل كتب اليهـود والنصارى هل كان يقـدر على ما قـدر عليه من إلزامهم وقهرهم فى المناظرة؟!.. ومن تأليف كتـابه الذى أحبط أعمال دعاتهم فى الهند وفى غيـر الهند؟!.. أرأيت لو لم يفعل هذا هو ولا غيره أمـا كان يأثم هو وجميع أهل العلم، وهم يرون عوام المسلمين تأخذهم الشبهات من كل جانب ولا يدفعونها عنهم..».

ونصح الشيخ رشيد بتجنيبها صغار التلاميذ كيلا تشوش عليهم!! ا.هـ.

.. ولتـقر روح الشيـخ رشيد فـى جوار الله، فإن كـثيـرين من المسلمين ومن غيـرهم من المنصفين قد كـتبوا بعـد الشيخ رحمـه الله كتبًا ذات قـيمة بعـد إحالة أنظارهم فى الكتب القديمة وفى القرآن الكريم، نذكر على سبـيل المثال.. كتاب:

(1) جـ٦ المجلد السابع، ربيع الأول ١٣٢٢هـ من مجلة المنار.

«الله واحد أم ثالوث»؟! للأستاذ محمد مجدى مرجان، المستشار فى وزارة العدل بمصر وهو من أسرة قبطية كبيرة ما يزال كبارها على قبطيتهم!..

ومثل كتب الدكتور نظمى لوقا التى أصاب فيها شاكلة الحق ثم لا ندرى لم سكت؟! وخذ مثلاً كتاب: «الدين والعلم» للمشير التركى أحد عزت باشا رحمه الله، الذى ناقش فى بعض فقراته الكتب السابقة، وترك فى ذلك حقائق علمية جديرة بالإعزاز!! فارجع إلى كلامه عن التوراة والإنجيل، وإليك هذه الفقرة:

«وأما القرآن فمضبوط على النحو الذى أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام، وأملاه، وليس فى صحته أدنى شك، ولا يمكن أن يقابله أحد الخصوم بالاعتراض» ا.هـ.

إن تحدى القرآن بالإعجاز البلاغى والعلمى والإخبارى، وبسر الله العجيب فيه، أنه دعا المشركين إلى أن يقولوا: «إنه سحر، إنه شعر» سيبقى قائمًا يتحدى .. وصدق الله العظيم ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

قال أبو الفتح السروجى.. دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة، بغير علم منه، وكنت أتردد إليه، وأقرأ عليه، فسمعته وهو ينشد من قبله..

كم غودرت غادة كعاب ... وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان حرزا ... والقبر حرز لها حريز!!
يجوز أن تبطئ المنايا ... والخلدُ فى الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات، وتلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥].

ثم صاح وبكى بكاءً شديدًا، وطرح وجهه على الأرض زمانًا ثم رفع رأسه، ومسح وجهه، فقال:

«سبحان من تكلم بهذا الكلام فى القدم، سبحان من هذا كلامه»!!

فصبرت ساعة، ثم سلمت عليه، فرد فقال: متى أتيت؟!

فقلت: الساعة، ثم قلت: يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ.

فقال: لا يا أبا الفتح. بل أنشدت شيئًا من كلام المخلوق، وتلوث شيئًا من كلام الخالق، فلحقنى ما ترى..

أود أن نعيد للقرآن مكانه من دنيا الناس، ومن المجتمع المسلم بخاصة. فسنجد أنفسنا فى أقل القليل على حال مثل الذى قال:

يزيد وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا.

وقول من قال:

ألم تر أنـى كلمـــا جــــئت زائرًا وجـدت بها طيـبًا وإن لم تطيب

* * *

من نفحات القرآن

ذكر البخارى تحت عنوان «باب نزول السكينة عند قراءة القرآن» الحديث التالى:

عن أسيد بن حضير، بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبى ﷺ فقال له: **اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير**. قال: فأشفقت يا رسول أن تطأ يحيى وكان منها قريبًا فرفعت رأسى فانصرفت إليه فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها. قال: **وتدرى ما ذاك؟** قال: لا. قال: **تلك الملائكة دنت بصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم**.

وفى الحديث الآخر فى غير ذلك الباب من البخارى «**... إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**».

وفى الحديث الآخر «**من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**».. فى الحديث الأول: فضل قراءة القرآن فى الليل وفضل الخشوع.. وجواز رؤية آحاد الأمة الملائكة. وفى الحديث الثانى: شرف قراءة القرآن وأن الله يذكر أهله ويفيض عليهم الرحمة والسكينة ويرسل ملائكة ترفرف بأجنحة الرضى والرضوان من فوقهم. وفى الحديث الأخير: ضمان تكريم الله واستجابته لدعاء قارئ القرآن.. أولئك الذين لا يشغلهم عنه حال ولا أهل ولا مال.

والقرآن الكريم أصدق الحديث وأحسن القصص.. وفيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.. ولا يعرف كيف يصف قيمته ويقدره قدره غير من أنزل عليه فلنسمع إليه صلوات الله وسلامه عليه.

عن أنس بن مالك عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «**مثل الذى يقرأ القرآن كـالأترجة طعمهـا طيب وريحها طيب والذى لا يقرأ كـالتمرة طعمـها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمـثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها**».

ومما يدخل تحت نفحات القرآن وفضـله وكريم آثاره، ما روى البخارى عن أبى حازم عن سـهل بن سعد، أن امـرأة جاءت رسول الله ﷺ فقـالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسى. فنظر إليها رسول الله فـصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه، فلمـا رأت المرأة أنه لم يقض فيهـا شيئـا جلست. فقام رجل من أصـحابه فقال: يا رسـول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيهـا، فقال له: **هل عندك من شىء؟** فقال: لا والله يـا رسول الله. قال: **اذهب إلى أهلك فانـظر هل تجد شيئًا**. فذهب ثم رجع فقال: والله يا رسول الله ما وجدت شيئًا. قال: **انظر ولو خاتما من حديد**. فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسـول الله ولا خاتمًا من حديد ولكن هذا إزارى- قال سهل: ما له رداء- فلها نصفه. فقال رسول الله ﷺ: **ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليهـا من شىء وإن لبسته لم يكن عليك شىء**. فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام فرآه رسول الله ﷺ موليًا، فأمر به فدُعى فلما جاء قال: **ماذا معك مـن القرآن؟** قال مـعى سـورة كذا وسورة كـذا، عدَّهـا. قال: **أتقرؤهن عن ظـهر قلبك؟** قال: نعم. قال: **اذهب فـقد ملكتكهـا «أو زوجتكهـا» بما معك من القرآن**».

﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ...**﴾ [الحشر: ٢١].

الآية تمثيل لجلال القرآن وأثره... وللقرآن من قوة التأثير ونفاذ نوره إلى قلوب السعداء مـا لله عز وجل من كمال وجـلال وعظمة وعز.. فالكلام صـفة المتكلم والكاتب يتمثل خلال سطوره كمـا يقولون، وأنه على ذلك لو أنزل على الأحجار وشم الجبال لمادت له واهتزت جنباتهـا من روعته.. أليس كلام الله ووحيه!! وهو

سبحانه حين تجلى للجبل فى طرفة عين جعله دكًا وخر موسى الذى سأل الله رؤيته صعقًا لم يستطع النظر إلى الجبل!!

نحن نسمع أحاديث الساسة والزعماء بأشخاصهم أبو بواسطة المذياع صامتين منصتين لانكاد نسمح للاغٍ أو متحدث يحول بيننا وبين كلمة مما يقال أو يذاع. فما أولى كلام الله حين يُتلى علينا بهذا الأدب الذى يعين على تفهمه والإحاطة بأسراره ومغازيه... وقد أمرنا الله بذلك وأبلغ فى الأمر والأجر فقال: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والقرآن هو القرآن على لسان مقرئ شهير أو مقرئ مغمور، يجب توقيره وتوقير تاليه وإكرام حفظته، إنهم حاكون عن الله وهم أمناؤه فى تبليغ وحيه. والتذكير به «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**». وأنعم وأعظم بالقراء إذا كانوا من السابقين بالقرآن إلى الخيرات المتخلقين بما فيه من خلق عظيم وأدب كريم، وانظروا لمن عنتهم عائشة بقولها «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه، يقرأ «ألا لعنة الله على الظالمين» وهو يظلم، ويقرأ «فلعنة الله على الكاذبين» وهو يكذب. إن هؤلاء هم الذين قال الله فيهم ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ....**﴾ وفى الآية تقريع من الله للغافلين عن القرآن الذين يشتغلون عنه بقراءات لا تجدى وأحاديث لا تفيد.

كيف يؤثر القرآن فى الجبل فيخشع ويتصدع به وقلوبهم لا يصيبها منه وجل ولا يدركها منه ما أدرك رسول الله عند بدء الوحى!! لقد ذهب بعد -اقرأ- إلى خديجة زوجه يرجف فؤاده ويقول: **زملونى زملونى!!** حتى إذا ذهب عنه الروع قص على خديجة ما جرى ثم أردف يقول لها: **لقد خشيت على نفسى.** ولكن خديجة الزوجة الوفية تبدد سحب القلق والرهبة التى سيطرت ملء جوانح الرسول فتقول «كلا» والله ما يخزيك الله أبدًا.. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر.

* * *

استذكار القرآن وتعاهده

عن أبى موسى الأشعـرى عن النبى ﷺ قال: «**تعاهـدوا القرآن، فوالذى نـفسى بيده لهو أشد تفصيًا من الإبل من عقلها**».

● المفردات وصلة الحديث برواياته الأخرى:

تعاهدوا القرآن: حافظوا عليه وتفقدوه آنا بعد آن، بمداومة قراءته، والحرص على تلاوته. وفى القاموس المحيط: تعاهده واعتهده تـفقده. وفى التعاهد معنى الوصية والالتزام، والمعاهدة: المواثقـة. وتعاهد القرآن على الوجه الأكـمل، يكون بحفظه وتلاوته. ودراسـته، لاسـتخـراج أحكامه والعـمل على أسـاس من فهم حـلاله وحرامه، وأخذ أوامره ونواهيه عملاً وتركًـا. . يقول صاحب الفتح «وتعاهده، أى تحديد العهد به بملازمة تلاوته».

تفصـيًا: بفتح الفاء وتشـديد الصاد المهملة الثقيلة بعـدها التحتانية خفـيفة: أى تخلصًا وتفلتًـا، تقول تفصيت كـذا: أى أحطت بتفاصيله، والاسم الفـصة ويقال تفصيت من الشىء تفصيا إذا تخلـصت وخرجت منه. . ووقع فى حديث عقبة بن عامر بلفظ تفلتًـا -بيانًا وتفسيرًا لمعنى التفصى- وكـذا وقعت عند مسلم فى رواية أبى موسى ثالث أحاديث الباب هناك؛ والحديث أخرجه أحمد وابن أبى داود.

وتفصيا مـنصوبة على التمييز. . . وقـد أفصح فى هذه الرواية بما لم يفصح به فى رواية ابن عمر وفـيها زيادة «**فإنه أشـد تفصيًا من صـدور الرجال من النعم**» وفى رواية ابن عمر تشـبيه أحد الأمرين بالآخر. وفى هذا الحـديث أن القرآن أسرع من النفور ممن لم يتعاهده من الإبل، لأن من شأن الإبل تطلب التفلت ما أمكنها فمتى لم يتعـاهدها برباطها تفلتت، فكذلك حـافظ القرآن إن لم يتعـاهده تفلت بل هو أشد فى ذلك.

عقلها: العقل بضمـتين جمع عقال بكسر العين، وقـد تسكن القاف فى الجمع، والعقال: الحبل يشد فى ركبة البعير. قال صاحب الفتح: ووقع فى رواية الكشمينى

«من عقلها» وذكر الكرمانى أنه وقع فى بعض النسخ «من عللها»، ولم أقف على هذه الرواية بل هى تصحيف.. ووقع فى رواية الإسماعيلى «بعقلها» قال القرطبى: من رواه «من عقلها» فهو على الأصل الذى يقتضيه التعدى من لفظ التفلت، وأما من رواه بالباء أو بفى فيحتمل أن يكون بمعنى من أو للمصاحبة أو الظرفية.

قال صاحب الفتح: والحاصل تشبيه من يتفلت منه القرآن بالناقة التى تفلتت من عقالها، وبقيت متعلقة به، كذا قال القرطبى... والتحرير أن التشبيه وقع بين ثلاثة بثلاثة: فحامل القرآن شبه بصاحب الناقة. والقرآن بالناقة. والحفظ بالربط».

قال الطيبى: ليس بين القرآن والناقة مناسبة لأنه قديم وهى حادثة. لكن وقع التشبيه فى المعنى ولعلك تلحظ أن تشبيه نسيان الرجل للقرآن بتفلت الإبل من عقلها تمثيل معقول بمحسوس، كم هى صورة تثير انتباه الذهن والبصر على سواء أن تتفلت الإبل من عقلها وأن تصارع حتى تتخلص منها.

وفى الباب أحاديث: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة... إلخ**»، و«**بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كذا... واستذكروا القرآن.. إلخ**» و«**تعاهدوا القرآن..**».

وهذه الأحاديث كما قال صاحب الفتح عن ابن بطال «توافق قول الله تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل: ٥]. وقوله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٧]. فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يسر له، ومن أعرض عنه تفلت منه».

وهذه الروايات وغيرها فى كتب السنة شاهد فضل القرآن ومنزلته فى بيان أحكام الإسلام وضرورة رعايته والعناية بحفظه ودراسته كما سيبدو ذلك فى الشرح والمستفاد من الحديث.

• الشرح:

القرآن الكريم كتاب الله تعالى، فكماله وجلاله وجماله أمور لا يرتاب فيها منصف، فالكلام صفة المتكلم كما قالوا، ولقد سمع أكثم بن صيفى حكيم العرب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال لقومه: «إن هذا لو لم يكن دينًا لـكان فى أخلاق الرجال حسنًا. يا قومى أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل وكونوا باتباعه رءوسًا ولا تكونوا أذنابًا».

وما أكـثر الذين أخذهم جـلال القرآن من مشـركى قريش، ومن غير مـشركى قريش فى أعصار تلت عصر الرسالة، وفى أقطار وأمصار، حين برئوا من أنانيتهم وعصبيـاتهم الجاهلية، وزالت حجب الأهواء التى لم تنفذ منهـا أضواء القرآن إلى بصائرهم حينًا من الدهر.

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى كتابه «الإسلام دين الفطرة» بتصرف:

«لقد لقـيت رجلاً إنجليـزيًا مسلمًا وتحـدثت إليه وقرأ علىَّ آية الكـرسى باللغة الإنجليزية ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ الآية، وقال إن علماء الأديان السابقة جمـيعًا يعجـزون عن أن يصفوا الله تعـالى بما حوته هذه الآية من صفـاته تعالى، وهى دلالة أن هذا القـرآن كـلام الله أوحاه إلـى محـمـد ﷺ وأنا أروى هذا من الذاكرة وهو فى عبارة الرجل أدل وأجمع مما ذكرت».

وما يوفى بعض حق القرآن من التنويه والإشادة بشر، مهما كد قريحته، وأجهد ذهنه وأرخى للقلم العنان، بل إن البـشر كلهم حين تتكـامل أعمـالهم العلميـة، ويتواصل جدهم فى هذه السبيل لن يبلغوا عشر معشار ما ينبغى للقرآن الكريم من عرفان وتقدير، ولكنهم -لا ريب- سيشعرون بالشـرف الذى يضفى عليهم مطارفه ويسيل ثيابه، ويرخى جلبابه، وأى شرف يقارب شـرف الذين يناجون الله بكلامه ويشغلون أنفـسهم بحفظ ما أوحـاه من الذكر الحكيم والكتاب المبين إلى مـصطفاه فأداه صلوات الله عليـه كما بلغـه وكانت أعمـاله وأقواله تفسـيرًا لكلام الله، كما كانت، وسـتبقى صوالح أعـمال الصحـابة والتابعين وتابعيـهم إلى يوم الدين بيانًا لأقوال النبى ﷺ... ولقـد كان ذو النورين عثمان بن عـفان رضى الله عنه يديم النظر فى المصحف بعـد أن جمع المسلمين فى شتى أقطار الإسـلام على المصحف

الإمام، فلما سُئل فى ذلك قال «إنه كتاب سيدى، وحق على العبد إذا جاءه كتاب سيده أن يديم قراءته».

ولأن القرآن كتاب الله تعالى، أوجب الصادق المصدوق فى هذا الحديث وفى أحاديث فى معناه أن نشغل به أنفسنا حفظًا لآياته، وتلاوة لجمله وكلماته، وتأملاً فى معانيه، واستخلاصًا لمغازيه ومراميه، حتى تمضى أعمالنا وأقوالنا حسب أوامره ونواهيه، وحتى تقوم حياتنا على قواعده رخية رضية، فنسعد بالقرآن فى صنع الحياة كما أرادها الله، وقيام المجتمع الأمثل كما قام لأول مرة فى مجتمع المدينة، الناس فيه كنفس واحدة **«تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»**، كما قال النبى ﷺ، والمؤمنون يحتكمون فيما شجر بينهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، كما قال الله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

ولا يذهبون بشىء من شكاة الرسول كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ [الفرقان: ٣٠].

وحتى نسعد بتعاهد القرآن فى حياة وراء هذه الحياة يوم يشفع الله القرآن ورمضان فيمن قرأوا القرآن وصاموا الشهر كما ورد فى الصحاح... والنبى صلوات الله عليه يقول: «**من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**».

ولقد استجاب المسلمون لما أوجبه الرسول من تعاهد القرآن، فأسلس لهم قياد الزمان وكانت قلوبهم له أوعية، وألسنتهم له تالية، وعقولهم لمغازيه مدركة، لا يستأخرون عنه قيد شعره ولا يستقدمون، فإذا أمرهم بغير ما فى كتاب الله آمر قالوا: لقد جاءنا كتاب الله قبل أن يجيئنا كتاب الأمير. وقيد أنظارهم على كل حال قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...**﴾ [الحجرات: ١]. وقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وكـان المسلم يمشى فى الأسـواق، أو يعـمل فى الآفـاق أو يسكت عن الكلام ويتـوقف عن العمل، فـلا يراه الناس إلا قـرآنا يخالـط الناس ويعيش بكل حـال معهم، فلما قلت العناية بالقرآن وخف سلطانه على الناس كان ما كان مما يواجهون من ضنك العيش واضطراب الأمر واستطالة الأعداء.

إن القرآن قانون شريعتنا ودستور عقيدتنا وسجل التكاليف والفضائل التى أرادها الله لنا، وفضله على غير المسلمين قائم، فهـو الذى يروى صادقًا أنباء من غبر من المرسلين والأمم، من آمن منهم ومن كـفر، ومن وفى بعهـودهم ومن غدر، ومن جحـد فضلهم ومن شكر، ولولا القرآن ورسالـة محمد لانطمست مـعالم الحق، وقامت علـى أنقاضهـا للباطل والضـلال والأهواء صروح شوامـخ. والقرآن وهو يحفظ علينا عقيدتنا وعبادتنا وينظم عقد سلوكنا؛ يحفظ لغتنا التى يسندها أكثر مما تفعل القواعد التى يختلف بإرسائها العـلماء، فيكون القرآن هو «جهيزة التى تقطع قول كل خطيب».

ولقد يستطيع الخلف أن يـثنوا عنان الزمان بالقرآن، فيكونوا مرة أخـرى بتعاهده سادة الدنيا وأساتذة الحياة، وما أولاهم بذلك خدمة لأنفسـهم لا للقرآن، فالقرآن باق محـفوظ بحفظ منزله وموحـيه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن عجب أن مـجتمـعنا يصرخ ويئن بناس يحفـظون من كل شىء إلا القرآن فهم يـسمعـون علوم الفن، وفنون الأدب، والشعـر الهابط الـهادم، ويصـدعون الرؤوس بعلوم النفس والاجـتمـاع التى يلبـسونهـا قـبعـات ومكانها فى التـراث الإسلامى بارز مستعلن، ويعرفون فلانًا وفـلانة، ولكنهم يجهلون القرآن وعلومه وتضيق صـدورهم بهداياته، وتراهم ينظرون إلى حـفظته نظرتهم إلى سـقط المتاع والشىء الذى لا يناط به انتـفاع، ويحتـجزون دونهم مطالب العـيش واحتيـاجات الحى، ولو عقلوا لقدموا هؤلاء الذين يضيفون إلى حفظهم لكتاب الله نظرهم فيه، وعملهم به، ونشاطهم لوصل الناس به.

والأمل كبيــر فى أن يظل الأزهر ومعاهده وروافده من جـمعيات تحـفيظ القرآن الكريم ومثلها فى تأميل سهرهم ورجاء خيـرهم الجامعات الإسلامية فى شتى بلاد الإسلام فـى السعـودية والسودان والكويت وبلاد المغـرب وليبـيا وسـوريا والهند وباكستان وأقطار تنظر بإكبار وتوقيـر جهادها فى هذا السبيل. أن يبقى هؤلاء على العهد بهم؛ سدنة كتاب الله بعـد أن استطاعت قوانين التعليم العام أن تقضى على كتاتيب تحفيظ القرآن التى كانت تعدد فى القرية الواحدة ويوجد أكثر من كتاب فى الحى الواحد.

ولم يعد ريب فى أن سر ما نواجه من حيرة واضطراب وانتكاس واحتلال شرار الناس لمقـدسات وأمـاكن عـزيزة فى بلاد الإسلام والعـروبة، إنما هو عـدم إعطاء القـرآن الكريم حـقه من الرعـاية بالقـدر الذى كـان فى ماضـى الزمان وسـالف العصور.

ولقد شـبه الرسول القـرآن بالبعيـر الذى نخشى منه التـفلت والشراد، فما دام تعاهده بالعقـال لم يخش نفوره، أما إذا أهمل فإنه يـشرد ويتفلت، ويصعب رده، والأمر كذلك فى القرآن الكريم نقرأه ونعنى به فيـقبل علينا بقدر إقبالنا عليه، فإذا تركه من كان يرعـاه ويتعاهده ويجعله سـميره فى خلوته وأنيسه فى وحدته، ولى نافرًا، وذهب لا يلوى على شىء، وبقى لهؤلاء المصروفين عنه ما استـحوذ عليهم من لغو الحديث وزيف الكلام، ويزال يزداد بُعد القرآن عمـن أبعدوه عن رعايتهم حتى يشق عليهم أن يعودوا إلى عهدهم به.

وفى ضرب المثل بالجمل بخاصة لمحة نبوية، لأنه كان الشائع يومئذ ثم لما عُرف عنه من حقد وحب للانطلاق والشرود.

والله المسئول أن يصلنا بكتابه وأن يؤدبنا بآدابه، وأن يصلح به دنيانا، وأن يحقق به فى الدارين أملنا ومنانا.

* * *

اغتباط صاحب القرآن

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهمـا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا حسد إلا على اثنتين، رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار»**.

وفى الباب رواية أبى هريرة، أن رسـول الله ﷺ قال: **«لا حسـد إلا فى اثنتين: رجل علَّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فـلان فعملت مثل ما يعمل. ورجل آتاه الله مـالاً فهو يهلكه فى الحق، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان، فعملت مثل ما يعمل»**.

• بين يدى الحديث:

١- هاتان روايتا البـاب، وقـد تقدمتهما روايـة ابـن مسعود فـى كتاب العلم: **لا حسـد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مـالاً فسـلطه على هلكتـه فى الحق. ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها»**.

كما وردت فى الاعتصام بالكتاب والسنة رواية عن قيس عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق. وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها»** وعند الترمذى بلفظ **«وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقـه مـالاً، فهـو صـادق النية يـقول لو أن لى مـالاً لعـملت مـثل ما يـعمل فـلان فأجرهما سواء....»** إلخ. ولأحمد من حديث يزيد بن الأخنس السلمى **«رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ويتبع ما فيه»**.

وهى جميعًا وما ورد فى مسلم والنسـائى وابن ماجة، تقرر فضل القرآن والعلم والحكمة وشرف النفع بهـا، وفضل المال الذى يتجاوز به صاحبـه حدود ذاته حتى يسع خيرُهُ الآخرين.

٢- راوى الحديث:

عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفـيل القرشى العدوى، وأمه زينب بنت مظعونٍ الجمحيـة، كان مولده فى السنة الثالثة من بعـثة النبى صلوات الله عليه، وهو أصحُّ الأقوال كما جزم بذلك الزبير بن بكار إذ قال: هاجر ابن عشر سنين ووافقه الواقدى فى سنة إسلامه، وكان فى بدر فى السنة الثانيـة من الهجرة وسنُّه ثلاث عشرة سنة، والإجماع على أنه أسلم مع أبيه قبل أن يبلغ الحلم وهاجر، واستصغره الرسول حين عُرض عليه فى بدر وفى أحد كذلك، وأجازه فى الخندق إذ كـان فى الخامسة عشرة من عمره كما ثبت فى الصحيح، وشهد اليرموك وفتح مصر وإفريقية.

وأتاح له إسـلامه صغـيرًا أن يسـمع ويروى ويعـرف كثيـرًا من أقوال الـرسول وأعمـاله وأحواله، إذ كان يدخل بيت النبى صلوات الله عليـه كثيرًا عند أخـته أم المؤمنين حفصة -قال صاحب الإصابة: وفى الصـحيحين عن سالم عن ابن عمر: كان من رأى رؤيا فى حياة النبى ﷺ قصها عليه فتمنيت أن أرى رؤيا وكنت غلامًا شابًا عزبًا أنام فى المسجد، فـرأيت فى المنام كأن ملكين أتيانى وفى يدى سرقة من حرير فذهبا بى إلى الـنار فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا لها قرنان كـقرنى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، فلقيها ملك آخر فقـال لى: لن تراع، فقصصتها على حفصة فقصـتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: **«نعم الرجل عبـد الله لو كان يصلى من الليل»**. فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا القليل. وفى آخر الأثر «طوى البئر بناها وعرشها».

وفى رواية نافع عن ابن عمر فى الصحيح «فرأيت فى يدى سرقة من حرير فما أهوى بها إلى مكان من الجنة إلا طارت بى إليـه فقصصتهـا على حفصة فقصـتها حفصة على النبى ﷺ فقال: **إن أخاك -أو إن عبد الله رجل صالح»**.

وفى الزهد لأحـمـد من طريق إبراهيم النخـعى قـال قال عـبـد الله يعنى ابن مسعـود: **«إن أملك شباب قريش لنفـسه عن الدنيا عبد الله ابـن عمر»** ومن طريق آخر يقول ابن مسـعود «لقد رأيتنا ونحن متوافرون فمـا بيننا شاب هو أملك لنفسه من عبد الله بن عمر».

وفى رواية أخرى عن جابر «ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر».

وفى تاريخ أبى العباس السراج حسن عن السدى «رأيت نفرًا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التى فارق عليها النبى ﷺ إلا ابن عمر» ومن كلمات طاوس رضى الله عنه «ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر وكان غلمانه يعلمون أنه يحب الصالحين ويكرمهم، وكان يعتقهم إذا رآهم يصلون ويصلحون، فقيل له: إنهم يخدعونك. فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له».

وروى صاحب الإصابة من أقوال الصحابة والتابعين فيه، فى صفحات ١٠٧-١٠٩ جـ٤ من طبعة كلكتا، أخرج السراج فى تاريخه وأبو نعيم من طريق عن ميمون بن مهران قال:

«مر أصحاب بخدة الحرورى بإبل لابن عمر فاستاقونا فجاء الراعى فقال يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل، وأخبره الخبر، قال فكيف تركوك؟ قال: انفلت منهم لأنك أحب إلىّ منهم فاستحلفه فحلف. فقال: إنى أحتسبك معها فأعتقه. فقيل له بعد ذلك: هل فى ناقتك الفلانية تباع فى السوق؟ فأراد أن يذهب إليها ثم قال: كنت احتسبت الإبل فلأى معنى أطلب الناقة؟؟ ولما أعطى عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب لعبد الله عشرة آلاف درهم أو ألف دينار فى نافع، قالوا له: ماذا تنظر. قال ابن عمر: هل لكم فيما هو خير من ذلك؟؟ هو حر...

ولقد ترك فى معاملة غلمانه وخدمه ما ينبغى أن يؤثر بعد ما روى فى الرفق بهم وتكليفهم ما يطيقون وإعانتهم فيه، حتى قالوا إنه لم يلعن خادمًا قط -إلا واحدًا فأعتقه، وأنه قال يومًا لخادم: اللهم الع... فلم يتمها. وقال إنها كلمة ما أحب أن أقولها».

وكان ينفق مما يحب ويتصدق كثيرًا، ويؤثر على نفسه فى اللحظات الحرجة، بإعطاء ما تشتد إليه الحاجة، فقد قال نافع: إن ابن عمر اشتكى -مرضًا، فاشتروا له عنقودًا بدرهم فأتاه مسكين فقال أعطوه إياه، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم

ثم جاء به إليه فجاء السائل فقال أعطوه العنقود، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم ثم أراد أن يرجع فمنع، ولو علم ابن عمر بذلك لما عافه.

ولقد روى زيد بن أسلم ضربًا من ضروب حلم ابن عمر وسعة صدره ودفعه تطاول المسىء حيث أمر الله «بالتى هى أحسن» فقال: «جعل رجل يسب ابن عمر وابن عمر ساكت، فلما بلغ باب داره التفت إليه فقال: إنى وأخى عاصم لا نسب الناس».

وما أريد أن أستطرد مع صاحب الإصابة فيما روى من خلال ابن عمر رضوان الله عليه، رغبة فى أن ترجعوا أنتم إلى الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب والأمهات لتنشقوا عَبَقَ الحديث عن الصحابى ابن الصحابى الذى كان شديد الاحتياط لدينه كثير الاتباع لآثار النبى صلوات الله عليه، حتى أنه كان ينزل منازله، ويصلى فى المكان الذى كان يصلى فيه، وكان علمًا من أعلام الإسلام وإمامًا من أئمة الصحابة، روى عن رسول الله فأكثر وروى عن الصحابة كأبى بكر وعثمان وأبى ذر ومعاذ وعائشة وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما، وروى عنه كثيرون من كبار التابعين.

• من فقه الحديث:

الحسد رذيلة من الرذائل التى توجد فى نفوس كثير من الناس نمت فيهم بذور الشر، وأثمرت حين غذتها غيبة الدين والغفلة عن الله الذى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحب لعباده معالى الأمور وكره سفسافها ومحقراتها، وفى رأس قائمة الشرور النفسية رذيلة الحسد وتمنى زوال ما فضل الله به بعض عباده على بعض. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. . والانطلاق من التمنى وهو جهد النفس إلى السعى والجد والعمل المادى فى هذه السبيل، وهو جريمة كبرى لا ريب، فقد كان حسب الناس أن ينالوا شيئًا من خير الحاسد، لكنهم بعد ذلك لم يسلموا من شره ولم يسلموا من أذاه، ولهذا قال العلماء: «إن الحسد أول معصية عُصِىَ الله بها فى الأرض حين حسد قابيل هابيل

ثم قتله، وأول معصية عصى الله بها فى السماء- على قول من الأقوال- حين حسد إبليس أبا البشر آدم وأمهم حواء عليهما السلام حتى أهبطهما الله من الجنة.

والحسود بدل أن يعمل ليحرز المال ويكسب المجد، يمد عينه ويشغل نفسه بما عند الناس. وقد رأى بعض الفقهاء أن يضمن الحاسد ما أتلفت عيناه وأن يحبس إذا استطار شره، فهو تثور أحقاده ويرسل نظراته وكأنها سهام مسمومة إلى كل ذى نعمة يستكثرها عليه ويظل يصوبها مع سخائم روحه وأوضار قلبه فلا يشتفى من غله حتى تزول النعمة عن صاحبها ابتلاء وامتحانًا. ولقد عوذ الله رسوله ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] وأنحى باللائمة على أقوام فقال ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وكفى بالحاسد تطاولاً أنه معترض على الله فى قضائه وعطائه حتى قال الشاعر:

ألا قل لمن بات لى حاسدًا ... أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت إلى الله فى حكمه ... إذا أنت لم ترض ما وهب

وكم يعود شر الحاسد إليه قبل أن يمس المحسود، ولهذا قيل «لله در الحاسد ما أعْدَله بدأ بصاحبه فقتله».

قال الأصمعى: رأيت أعرابيًا أتى عليه خير كثير، فقلت أراك حسن الحال فى جسدك قال نعم تركت الحسد فبقيت نفسى.

وكم يعود عمله وقوله على المحسود كما قال البحترى:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاوزت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد كانوا يدعون لمن يحبون فيقولون «لا زلت محسدًا» أى ذا فضائل يحسدك عليها الحاسدون... وقال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالكل أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدًا وبغيًا إنه لذميم

يقول الشيخ عبد الحليم أحمد فى شرحه للحديث «وإذًا فهذا المعنى الذى قدمناه للحسد ليس هو المراد فى الحديث قطعًا، لما بينا، ولأن الحسد رائده الجبن وخور النفس والقعود عن اكتساب المعالى واغتنام الفضائل، ولكن لما كان فى الغبطة وهى تمنى مثل ما للغير من خير، انفعال النفس وتحركها للحصول على مثل ما للغير من خير وقد يصحب ذلك حب المنافسة حسن استعارة الحسد لهذا المعنى».

قال وقد قيل إن الحديث هنا من باب ما ورد «لو كان شىء يسبق القضاء لكان العين». ومعلوم أن العين لا تسبق القضاء قطعًا، ولكن سوق الأسلوب هكذا للمبالغة فى تأثير العين، فكذلك هنا يكون تلخيص المعنى «إنه لو كان الحسد فى الخير مأذونا ونافيه لمكان فى هاتين النعمتين لعظمهما وكثرة فضلهما لكنه لا إذن من الشارع فى الحسد فيكون المقصود إنما هو الإشادة بفضل هاتين النعمتين وحث الناس على المنافسة فيهما بهذا الأسلوب البارع والإرشاد الحكيم».

«وهذا المعنى مع دقته يحتاج إلى أداة شرط تفيد التعليق وهى ليست فى الحديث، وهو لذلك بعيد ويزيده بُعدًا تفسير المراد من الحسد فى رواية أبى هريرة التى سقناها من قبل».

أما النعمتان الواردتان فى الحديث فهما نعمة الحكمة يقضى بها ويعلمها الناس، ونعمة المال يسلط صاحبه على هلكته فى الحق.

ومن حق المال والحكمة أن نقدم لكم فيهما بعض القول بعدما أسلفنا نزر القول فى القرآن الكريم، لعلنا نقترب من الكمال ونحن نجلو مراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث:

١- أن الله الذى خلق لنا ما فى الأرض جميعًا وامتن علينا بالأموال بين ما امتن به علينا إذ قال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤].. قد فاوت بين عباده فى حظوظهم من هذه الأموال فقال:

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ [النحل: ٧١].

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وجاءت حكمة الله الذى سخر الفقير بقوته وخبرته العملية للغنى، وأكد للفقير أنه ناظر إلى عمله، عليم بما يستصحب فيه من إخلاص وصدق أو غير ذلك، معط من لدنه غفرانًا ورضوانًا يبرزهما قول الصادق المصدوق صلوات الله عليه: **«من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له»** كما جعل الغنى مسخرًا للفقير، يدير رأس المال، ويوفر الحاجات، وييسر الآلات، ويحدد نوع العمل، ويحسن التصرف فى الإنتاج بتسويقه، والتفطن لوسائل الكسب المشروع، الذى يعود بالسعة، ويعطى منه العمال أجورهم كافية وافية، مع ما يحسب حسابه من أمور علاجهم وسكناهم وصالح حالهم فى عاجل وآجل كما تكفلت ببيانه السنة المطهرة وأعمال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، بالصورة التى تبقى وراءها كثيرًا ولا تستطيع اللحاق بها المذاهب المادية والأفكار التى ينصح بها الناس فى شرق وغرب، فلا يرى العمال منها غير شعارات ودعاوى يرددها الخادعون والمخدوعون على سواء. وخير منها شرف العمل. والعمل فى الإسلام الذى قرن كتابه الخالد العمل بالإيمان، وجعل رسوله صلوات الله عليه يد العامل **«لا تمسها النار»**.

ولقد كره الله أن يكتنز المال أو تستأثر به فئة من الناس أو فئات ويُحرم منه غيرهم فقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الله المال فى حقيقته له -ونحن يخلف بعضًا بعضا عليه بما شرع الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾ [الحديد: ٧].

ورحم الله لبيد بن ربيعة الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام، فلما أسلم لن يقل شعرًا، وكان إذا استنشد شعرًا قرأ شيئًا من القرآن وربما طلب إلى ابنته أن تقول من شعرها فى رده على لمن أفضل إليه وأجمل، ومن شعره السائر فى أن الأموال عوار مسترجعة:

ومـــا المال والأهلـون إلا ودائع ولابد يـومًـــا أن ترد الـودائع

والعربى الآخر كان يقول:

ويقـول مـالى من يقـول واعبـدى مــه فــالعــبـيــد لربـنا والدار

وفى الحديث الـشريف: **«نعم صـاحب المسلم المال، ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل»**.

وقد قـال الأولون «المال نعم المورث للحمـد، والكاسب للمجـد، والزائد عن العرض والمعين عـلى نوائب الأيام». وكان سفيان الثـورى يقول لابنه: «لولا هذا المال لتمندل بنا بنو أمية» أى لاستخفوا بهم وازدروهم.

وكـان من أهل الصــلاح والورع من قـال «اللهم ارزقـنى الكثـيـر فـإن القليل لا يصلحنى» ولعله نظر فى هذا إلى قول حبر هذه الأمة ابن عباس رضى الله عنهما «إنى لأن أدع مالا يحاسـبنى الله عليه، خير من أن أترك ورثتى عـالة يتفقون الناس»... ولما عتبوا على بعض الصالحين عمله الموصول وهو فى خريف الحياة قال:

ولن أزال على الـزوراء أعـمــرها إن الكريـم على الأقــوام ذو المال

ومـا زلنا نحفظ قـول شـوقى رحمـه الله «يا مال الـدنيا أنت والناس حـيث كنت»... وهو نعمة حقًا إن أحسنا القيام فيه وأنفقناه كما قال الرسول فى الحق لا يريد بذلك عرض الحياة ولا ثناء الناس ولا يصـحبنا فى إنفاق منٌ ولا أذى. ولقد ذكر الله فى مقام الذم الذى ينفقون أموالهم بالمن والأذى قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ...﴾** [البقرة: ٢٦٤] وذكرنا بالحمد والرضى الذين ينفقـونها فى سبـيل الله وضرب منهم الأمثال فـقال: **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[1] أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [البقرة: ٢٦٥].

(١) حديقة فى مكان مرتفع.

وقليلون هم الذين يقهرون فى أنفسهم فوارع الظهور ورثاء الناس وطلاب الحمد ممن لا يكون حمدهم شيئًا من رضـوان الله وإن كان حمد الناس. لمن أحسنوا العمل أدبًا إلهيًـا علمه الله عـباده فى آيات من سور كـتابه بعـد سورة الحمـد فى الأنعام والكهف وغيرها لحظة ذلك الرجل الـذى سأل أميرًا فلم يعطه فقال أيهـا الأمير إن لى لحمدا فقال الأمير: لا حاجة بى إلى حمدك، فقال:

فلو كان يستغنى عن الحـمد ماجد بعــــزة شـــأن أو علو مـكان
لما نـدب الله العـــبـــاد لشـكره فـقال: اشـكروا لى أيها الـثقـلان

فأدناه الأمير وأحسن إليه.

يقول الشيخ عبـد الحليم قادوم فى شرحه للحديث «فأما احتـجان المال وحبسه عن سبيل البر والخـير فهو نقيصة مـبعثها وهن العزيمة وضـعف الثقة بالله تعالى، وأما إنفاقه مصحوبًا بالمن والأذى فـهو دليل لؤم النفس وإمعانها فى الخسة والدناءة وهو محبط لثواب الإنفـاق مضيع لثمرته كإنفاقه ابتغـاء الشهرة ورثاء الناس، يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى... ﴾.

ألا وإن بعض صور الرياء الخفية فى الإنفاق قـد يدق على كثير من الناس فيقع فيها من حـيث لا يشعر، فمن ذلك أن يتهلل وجهه بشـرًا وتطفح نفسه سرورًا إذا نشر الفقراء سيرة إحسانه الخفى إليهم فى الناس... إلخ.

وأكاد ألمح أن عمل الفقراء وقولهم بدون استشراف من المحسن لا يعيب الإنسان أن يفرح به ويسـتبشر، فالنبى صلوات الله عـليه يقول: **«من سرته حسـنته وساءته سيئته فهو مؤمن»**.

ونحن مع الشيخ ومن الواقع أن من الـرياء أن يحب المحسن أن لو اطلع الناس على إحسانه ليعلموا أى نفس هى نفسه رحـمة بالناس وشفقة بالآخرين وما أجمل المعروف، تبذله وتهديه كما قال معلم الناس الخير **«... ورجل تصدق بصدقة أخفاها**

حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» ومكان ذلك معلوم بين السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. ويقول الشاعر فى مثله:

يخفى صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

ويقول آخر:

زاد معروفك عندى عظما ... أنه عندك مستور صغير

وتناسيك كأن لم تأته ... وهو عند الناس مذكور كبير

والأمة الإسلامية فى شتى منازلها يتألب عليها الأعداء ويتواصون بالغارة عليها واجتثاثها من جذورها، وليست محنة المسلمين فى فلسطين وسيناء والمرتفعات السورية ولا فى الفلبين وبلغاريا وقبرص وإرتيريا، وإن كان ذلك يقرح الأجفان ويدعو إلى ركضة خيرة تضرب الكائدين لأمة التوحيد فى مقتل، ولكن الأعداء يتربصون بالإسلام الدوائر ويريدون أن يشفوا باستئصاله أنفسهم من أحقادها المضنية.

وفى أيدى المسلمين أموال ولهم مرافق وغلات ومعهم البترول الذى تتحلب له شفاه الأعداء، والعدو يخشى أن يرفع المسلمون والعرب هذا السلاح، ويبدو فى الجو أننا فاعلون وأننا باذلون وأننا سنلقى العدو فى حرب مقدسة، وسيكون المال أهون ما تقدم فيها: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ﴾ [١٩٣].

٢- أما الحكمة وهى النعمة الثانية فى أحاديث النبى صلوات الله عليه، فهى العلم النافع، وإصابة الحق فيما نعمل، وقد ورد القرآن مكانها فى بعض الروايات، ولا ريب أن القرآن ينبوع كل هدى ومصدر كل علم، وعن العلم بهداياته يفيض كل توفيق، ومن أوتيه فقد استدرج النبوة غير أنه لا يوحى إليه كما قال رسول الله ﷺ «ومن أعطيه واستنار بنوره واهتدى بهداه ثم ظن أن غيره أوتى خيرًا مما أوتى فقد عظم حقيرًا وحقر عظيمًا» كما ورد فى قول الرسول ﷺ. إنه كتاب الدين والدنيا ودستور العلم والعمل وهداية الحق إلى الخلق وما يحتاجون

إليه فى يومهم وغدهم من مسائل الاقتصاد والتشريع والعلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب برها وفاجرها مؤمنها وكافرها، عدوة كانت أو صديقة، فمن عرف ذلك فى القرآن وأخذ به نفسه وأقنع به غيره ودعا إليه جهده مصطنعًا فى ذلك الرفق والحسنى فقد أوتى خيرًا كثيرًا ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وليس المراد من الحديث الشريف تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ذلك الضرب من التلاوة الذى يبدو مرة تطريبًا وتلحينًا لا يلحظ فيه غير الصوت الجميل والنفس الطويل والجرى اللاهث وراء النغمة، ولى أعناق الألفاظ ومضع الكلمات مرة أخرى وإرسالها من غير فهم لمعانيها، ولا اعتبار بمغازيها فذلك الفهم والاعتبار هو مراد الله من إنزال كتابه ووحيه إلى مصطفاه صلوات الله عليه ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وتلك فضيلة لا يوضع أمامها فى كفة ميزان مجرد تلاوة القرآن التى لا يخلو صاحبها من ثواب الله.

يقول الشيخ عبد الحليم قادوم «وتلاوة القرآن على الوجه الذى نوه به الحديث واتباع إرشاده ودلالة الناس على ما فيه من خير ونور وفضيلة لا يحصل عليها إلا أولو العزائم القوية والهمم السامية والنفوس النبيلة والأخلاق المرضية، أولئك هم الأدلاء على الحق، الرافعون لمنار الدين، والآخذون بيد الإنسانية المعذبة، وهم الذين ملأ الله قلوبهم إيمانًا وطمأنينة، وأولئك الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، تتنزل حكماتهم على القلوب الظمآى إلى الهدى بردًا وسلامًا وروحًا وريحانًا» ثم قال: «وعكس هؤلاء الذين يتلون كتاب الله لا يجاوز حناجرهم، ولا يبلغ نوره إلى قلوبهم، يتعلمون ما فيه من خير وبر وهم لا يبتغون بذلك إلا عرض الدنيا والزلفى عند الناس وامتداد جاههم وبسط زعامتهم، عليهم، وأمارة هؤلاء أن يعبدوا الهوى من دون الله وأن يلبسوا على الناس الحق بالباطل وأن يسلكوا بهم السبيل المعوجة والطرق الملتوية مادام فى ذلك إرضاء شهواتهم والحصول على مطامعهم فى الحياة. وفى هؤلاء وأمثالهم يقول الله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد روى فى حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، أن منهم رجلا آتاه الله نعمة المال الوفير، ولما سُئل عن مصرفها فى الدنيا وما صنع فيها أجاب بأنه أنفقها فبى سبيل البر والإحسان فيكذبه الله والملائكة ويسجل عليه الرياء، لأنه كان ينفق ليقال: فلان جواد وقد قيل ذلك... ثم يؤمر به إلى النار، ومنهم من علَّمه الله القرآن والحكمة فنشر علمه فى الناس رياء وسُمعة فلا يُقبل منه صرفٌ ولا عدل... ويؤمر به إلى النار. ولقد صدق من قال فى الرياء:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا التحفت به فإنك عارى

كما أحسن من قال فى الجود لا يلحقه منٌ ولا أذى:

وأحسن من نور تفتحه الصبا ... بياض المطايا فى سواد المطالب

هذا وقد ورد فى بعض روايات الحديث أن جارًا لصاحب القرآن سمعه فتمنى أن يعلمه الله مثل ما علم صاحبه ليعمل مثل عمله فيؤتى ثوابه، وكذلك تمنى رجل آخر مثل ما لصاحب المال من نعمة ليعمل مثل عمله فيفوز بمثل أجره، وقد أقر النبى ﷺ هذا النوع من التمنى، ورضى عن هذا الضرب من الطماح. بل جاء فى بعض الروايات أن لهذين المتمنيين مثل ما لصاحبهما من ثواب وفوز.

قال صاحب الفتح فى شرحه رواية الحديث فى كتاب العلم جـ١ «فائدة» ذكر فيها رواية أبى هريرة وعند الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى... إلى حتى قال: «فذكر حديثًا طويلاً فيه استواء العامل بالمال فى الحق والمتمنى فى الأجر ولفظه «**وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالاً لعملت مثل ما يعمل فلان فأجرهما سواء**»، وذكر فى ضدهما أنهما فى الوزر سواء وقال فيه: حديث حسن صحيح، وإطلاق كونهما سواء يرد على الخطابى فى جزمه بأن الحديث يدل على أن الغنى إذا قام بشروط المال كان أفضل من

الفـقيـر. نعم يكون أفضل بالنـسبـة لمن أعرض ولم يتـمن.. لكن الأفضليـة المستفـادة منه هى بالنسبة إلى هذه الخصلة فقط لا مـطلقًا، وفى حديث الطاعم الشاكر كالصائم الصابر حيث يأتى بعد فى كتاب الأطعمة مزيد بيان فى القضية التى يجعلها بعض العلماء سواء ويفـاصل أحدهما على الآخر فى قولين علماء آخرون. وفى فـتاوى ابن الصالح رحـمه الله رد على سؤال فى الموضـوع قال: «هذا باب واسع ومما يحتج به -فمن فـضل الفقير الصابر وإياه نخـتار- حديث دخول الفـقراء الجنة قـبل الأغنياء بخمـسمـائة عام «ومما يحتج به فـضل الغنى الشاكـر قول النبى ﷺ: «**فذلك فـضل الله يؤتيه مـن يشاء**» وحديث الذكر الذى علمه النبى ﷺ الفـقراء، فلما بلغ ذلك الأغنيـاء شاركوهم فيـه. نسأل الله أن يرزقنا الحلال، وأن يعصمنا فيـما علمنا من الزيغ والضلال، وأن يعيننا على أن نهدى بهما إلى خير الأعمال -آمين.

• يستفاد من الحديث:

١- الحث على التسابق والتنافس فى الخير.

٢- فضل القرآن والعلم والحكمة حين نأخذها بشرطها ونقوم بحقها.

٣- فضل المال، نحصله من حلال وننفقه فى خير الأعمال.

٤- الإشادة بالنية والآمال الطيبة مع الجد فى سبيل إحراز ما نؤمل.

* * *

المجموعة الثالثة

نظرات قرآنية

- نظرات فى القرآن الكريم.
- القرآن جماع الفضائل.
- دروس من سورة الجمعة.
- أدعية من القرآن والسنة.
- المكر والماكرون فى كتاب الله.
- قبسات من سورة الجمعة.
- وعادت للحق نورانيته.
- تأملات فى القرآن الكريم.
- معنى آية.. «يا أيها الرسل كلوا من طيبات».
- تفسير موجز لسورة الإخلاص.
- سورة الكوثر.
- آية الحقوق العشرة.
- فى حضرة القرآن الكريم.
- الاتعاظ والاعتبار بآثار من مضوا.
- الحياة لا تخلو من هموم.

نظرات فى القرآن الكريم

إن من نافلة القول إن العالم حين أكرمه الله ببعثه مصطفاه صلوات الله عليه، كان مشفيًا على الهلاك فجاءته الرحمة المهداة تنذر وتحذر فما كان للبشارة ما يوجبها إلا بعد أن يدع الناس شركهم ويعبدوا الله وحده ويكونوا بحق إخوانًا، وكان أول خطاب جامع ألقاه النبى ﷺ من فوق الصفا بعد أن قال له ربه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤- ٢١٥] و﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

صعد الرسول الصفا، ونادى قومه قبيلة قبيلة وعشيرة عشيرة، فما ترك من قريش جماعة، وخفت كلها إلى ذلك الصوت، وخاطبهم صلوات الله عليه بكل ما طبعه عليه الله من حب ورفق وإيثار وصدق.

«**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟** قالوا: نعم حتى قال لهم صلوات الله عليه «**إنى رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا**. . أو كما قال صلوات الله عليه، ففى رواية أخرى «**إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**».

لقد أنذر النبى ﷺ عشيرته وأنذر قومه، ثم أنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله، وهم عرب الجزيرة حتى كانت مرتبة وراء تلكم المراتب التى ألمح إليها الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) وهى مرتبة الرسالة العامة للناس وراء الجزيرة العربية، وما كان شىء يثلج صدر النبى، ويقر عينه صلوات الله عليه أكثر من استجابة الناس لدعوته وأن يعبدوا الله ويستقيموا على أمره أخذًا وتركًا حتى قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ

أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وكم يطالعك فى أكثر السور والآيات المكية عنصر النذارة ووصف المشركين بما يستأهلون به وعيد الله وعادل أخذه للطغاة، بعد أن بلغ الحفى الوفى البشير النذير ذلك كله إلى الناس دون أن يضائل الله مثقال ذرة ولا قيد شعرة من معانى الرحمة والرأفة التى أضفاها الله على مصطفاه فى مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهى تثبت نبوة سيدنا رسول الله بكل ما استهدفت من عموم وشمول، وما قررت من استخلاص النبى ﷺ لربه، ومن تزويده صلوات الله عليه بالقرآن زادًا ومددًا لأشرف غاية، فهى تقرر حقيقة أن الله الذى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس هو الذى آثر محمدًا ﷺ بذلك، وكأنه تعالى يقول: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ثم وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فيرى الناظر فى الآيتين أن الله وحده هو الذى نزل الفرقان على النبى ﷺ لينذر الناس بأس ما هم فيه من شرك وغفلة عن الحق، وأنه تعالى له ملك السموات والأرض، وأنه لا ولد له سبحانه، ولا شريك له، حاشاه، وأنه تعالى خلق كل شىء، وأن إيجاده تعالى للأشياء قائم على قواعد الحكمة والدقة وحسن الصنع، وأبدع الأوصاف.

﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، إن النظرة فى الأوصاف الإلهية فى آيتى سورة الفرقان ابتداء من إرسال سيدنا رسول الله إلى كونه تعالى قدر كل

المخلوقات وجعلها مرآة يرى فيها أولو الألباب مشاهد قدرة الله وحكمته، وشواهد جلاله، وكماله سبحانه. يقول صاحب «الجواهر»:

«فهذه الأوصاف هى الخير كله والبركة من نور ينزل إلى الأرض وهداية الناس. أقول كما تعطى الآية الأولى، كما يلحظ فى الآية الثانية ما يقول فيه الشيخ طنطاوى جوهرى رحمه الله، وفلك يعم سائر الكائنات، وجميع الملوك خاضعة له، وليس له ضد، ولا ولد، لأن الوالد لن يفنى فيقوم مقامه، والشريك يدل على قوة مقاومة، وليس الانفراد بالملك، وعدم التنازع وعدم الفناء الذى يدل عليه أنه لا ولد له، بمغن عن أنه قادر على خلق كل شىء، فربما كان مالكًا كل شىء دائم الوجود لا ضد له، ومع ذلك لا يقدر على خلق كل شىء، بل ربما كان هذا الملك قد أخذه اغتصابًا فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] فكل ما يملكه فى السموات والأرض هو خلقه، لا أنه أخذه عن غيره، ولم يخلق الأشياء اعتباطًا، بل جعل كل شىء قدرًا مقدورًا، وحدًا محدودًا، ونظامًا ثابتًا، وهذا هو السبب فى بقاء ملكه ودوامه، لأن دوام الملك على مقتضى النظام، فكلما اختل النظام كان زوال الملك أسرع، وكلما كان النظام أتم كان الملك أدوم» أ هـ.

ودلل على أن ذلك شىء مأنوس ملحوظ فى دنيا الناس وفى عالم النبات والحيوان بما ليس وراءه مقنع، والبصراء بأزمنتهم وأنظمتهم وبما حولهم من شعوب وأمم وبما تصطلح على قوانين، حتى وإن لم يستوحوها من هدايات الله تعالى، وتحترمها وتلتزمها وتجرى على أفرادها على سواء، يصلح أمرها إلى حين وأن ذلك لأظهر وأبقى فى مخلوقات الله علويها وسفليها منذ خلق كل شىء فقدره تقديرًا، يقول الشيخ جوهرى رحمه الله لمحدثه.. «ألست تقرأ فى الكتب أن هذه الدنيا كانت من أزمان قديمة مسكونة بأمم؟ وأن هذه الشمس وهذ النجوم كانت موجودة؟ قال. قلت: فهذا الدوام ناشئ من حسن النظام، وقد جعلنا البقاء راجعًا لحسن النظام، فلولا حسن النظام فى هذا الوجود لاختل، بل لانهدمت السموات والأرض كما تخرب الدولة بسوء سياستها، فكيف يمكننا أن نعرف أن نظام الله لا يضارعه نظام، إلا بهذه الموازنة، إذ إننا نرى دولاً تسقط سريعًا بسوء

نظامهـا، وأنما تبقى مئات السنيـن لحسن نظامها، وللتـاريخ وعلوم السياسة خـير شاهد».

إن حكمة الله تبدو للناظرين فى كل ما خلق ومن خلق، ولو أنعم الناس النظر وأعملوا عقولهـم فى الأنفس والآفاق لأنصفوا الخالق، وعرفوا مـا تمليه المخلوقات والمخلوقين من إيجاب الأذعان والطاعة لله، والتأهل لمزيد خيره ومترادف إحسانه، وهم يأخـذون من تقدير الله لما خلق سلوكًـا يقدرون به أعـمالهم وأفـعالهم قـبل انقلاب الزمان وتعذر الإمكان. . . وطوبى لمن تخلق بأخلاق الله.

* * *

القرآن جماع الفضائل

القرآن الكريم فى متناول الجميع، وإن كنا ندعـو الله مخلصين أن يقيض لكتابه دولة من دولنا أو جمـاعة من الجـماعات فـيها لتـقوم بإخلاص وصـدق على أمر المصاحف فتجمع طبعات كثـيرة متداولة، سلط الله عليها -وهو الذى تكفل بحفظ كتـابه- الأضواء لنوقف سيـرها، ولتخطط هذه الدولة أو تلك الجـماعة لطبـعات كتلك التى عرفناها منذ أكـثر من نصف قرن، وعرفها غيـرنا كذلك جيدة الطبع، أهلا للثقة فى كل ما يحفها ويحيط بها.

والقرآن الكريم على ما هو عليه من سور تبدأ بفاتحة الكتاب وتنتهى بالمعوذتين، وتتصل كل سـورة بما تقدمهـا وما لحق بها وترتبط على نحـو تكاد تكون به وحدة واحدة، وكذلك تكون الآيات فى هذه السور، بل الكلمات فى تلكم الآيات حيث تؤلفها وتتألف فـيها إلى المدى الذى لا يتحقق أيسره إذا وضـعت كلمة مكان كلمة وإن كانت فى مـعناها وعلى مبناها. بل وحـتى لو حاول ذلك وأفـرغ فيه وسـعه الذين لهم تمرس وعلم باللغة العربية التى اخـتارها الله وعاء لكتابه الذى أنزله على نبيه محمـد ﷺ، مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

ذلك الذى يتراءى لكل ناظر فـى القرآن الكريم وسوره وآياته وكلمـاته، شاهد من شواهد عـرفها الناس، وسيـعرفون أضعـافها وحكمتـها، وتدرك الأفهام عـبر الأيام، صدق عدة الله تعالى فى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

إنها شواهد ناطقة بمصدر هذا القرآن، وصدق نسبته إلى الله، وتوفره ووفائه بكل ما يريد الله من عباده، وما يريده لهم من أمن وعافية، وسعة ورفاهية، ونهوض فى

حدود الطاقة والإمكان بمقتضيات الاستخلاف والتسامى، وبيان أسباب كل ذلك ووسائله لتتم منة الله الذى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]. ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢- ٣٤]. وكم يعطى تكرار قوله تعالى «لكم» من بيان فضل الله عز وجل على الإنسان للذى هو خير ما خلق الله وخلق له ما فى السموات وما فى الأرض، وقد قال تعالى فى الأثر الشريف: «**عبدى، خلقت لك ما فى الأرض جميعًا وخلقتك لنفسى فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**»، ولا تكاد تخلو آية من آيات القرآن من فضائل لا فضيلة تؤخذ، ومن أمور ينكرها العقل السليم حتى تحذر وتنبذ.

ويوم علم أكثم بن صيفى حكيم العرب بما عاد به رسولاه إلى النبى ﷺ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وكان الرجل ما يزال على شركه لكن أنوار الآية بلغت من نفسه مبلغا، ونفذ بعض نورها إلى قلبه، فقال لقومه -الذين حالوا دون أن يأتى محمدًا ﷺ ظنًا منهم أن أكثم وهو حكيم العرب يأتيه غيره، ولا يأتى هو أحدًا-: «يا قوم، أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل وكونوا باتباعه رءوسًا قبل أن تكونوا أذنابا، فوالله إن هذا الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الرجال حسنا». ولقد كررت هذا الموقف من أكثم، لبيان قيمة كلام المنصفين.

إنها آية واحدة من سورة النحل تؤلف سجل الفضائل والمناكر جميعًا، فما من فضيلة إلا وهى مندرجة تحت ما أمر الله به من عدل وإحسان وبر ذى القربى. وما من رذيلة إلا وهى لا تتجاوز ما نهى الله عنه من الفحشاء والمنكر والبغى، ورضى

الله عن أبى الحسن على بن أبى طالب فقد أجمل العدل فى الإنصاف، وفسر الإحسان بالتفضل.

وبسط ابن عطية ذلك فقال: «العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات، وترك الظلم والإجحاف. والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حد الأجزاء منه داخل فى العدل، والتكميل الزائد على الأجزاء داخل فى الإحسان».

ومن كلام الإمام ابن العربى رحمه الله «العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه وتقديم رضاه على هواه، واجتناب الزواجر، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. ومن العدل مع النفس لزوم القناعة بكل حال ومعنى، وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، لا فى سر ولا فى علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل من ذلك الإنصاف وترك الأذى».

ولا أسترسل فى الكلام عن الإحسان وإيتاء ذى القربى وهو طيب محبب، ولا مع أمهات الرذائل فى الآية التى ختمها الله بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. لأؤكد أن هدايات الله فى كتابه إيجابا وتركا أو أمرا ونهيا، إنما هى عظات ربانية دافعة إلى الكمالات حاجزة عن سفساف الأمور.

سور القرآن وآياته وكلماته هى الإطار المقدس لضروب التربية، ووجوه التعليم والهداية التى ناط الله بها سعادة المؤمنين أفرادا وجماعات حين يترابطون ترابط سور القرآن، ويتكاملون تكامل كلماته، ويؤلفون مجتمع الخير على النحو الذى تؤلف به حروف القرآن الكلمات فى الآيات والسور جميعا.

ولقد عرف العرب حتى والقرآن ينزل، القصيدة والبيت والقافية، وكان القرآن كلام الله جاريا فى مساره الربانى سورة وآية وفاصلة.

والسورة من القرآن طائفة مستقلة من آياته ذات مطلع ومقطع أى لها بداية ولها نهاية، وهو اصطلاح مأخوذ وملحوظ فيه سور المدينة الذى توضع فيه لبنة إلى جوار لبنة، كما توضع الكلمات بعضها بجوار بعض مؤلفة الآيات، التى تؤلف هى كذلك سور القرآن.

والآيات فى كتاب الله تعالى طائفة من الكلمات فيها مطلع كذلك ومقطع مندرجة فى سورة من القرآن على النحو الذى يعلن حكمة الله وعلمه، وهذا المعنى الاصطلاحى لم يغب عنه مفهوم الآية فى اللغة فهى تطلق ويراد بها المعجزة، كما فى قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] أى معجزة ظاهرة، ويراد بها العلامة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقد تطلق على العبرة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [هود: ١٠٣] .. أى عبرة لمن يعتبر، وتطلق على الأمر العجيب كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] وربما أطلقت على الجماعة كقولك: خرج القوم بآياتهم، أى بجماعتهم، أى أنهم لم يتركوا وراءهم أحدا. وقد أطلقت كثيرا فى القرآن على البرهان والدليل كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢] أى من براهين قدرة الله وقوته وحكمته.

وحكمة الله بالغة فى مجىء القرآن آيات وسورًا تيسيرًا على المسلمين لمعرفة الآيات التى يتم بها التحدى، وتجزئ بها الصلاة، وليتحدد به وبالسورة الموضوع ولتتم منة الله على رسوله وعلى المؤمنين بقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] وذلك يتاح والآيات مفصلة والسور مستقلة بما أراد الله أن يتبينه المؤمنون من أغراضها وقضاياها، ففى السورة جملة من الأغراض، وعدد من القضايا والتوجيهات.

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: «إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين أو المؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلا أو

بابا، ولكن للقرآن أغراضًا يبرزها بصور مختلفة، فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه، جاء بها يجذب إليه الأذهان، وتساوق خطرات القلوب مع مراعاة التناسق وحفظ الأسلوب البليغ، هذا كلام لا يصدق إلا فى كلام الله تعالى وحده، فهل نعطى القرآن الكريم من النظر والتأمل والدراسة ما هو أهله حتى نصنع به مجتمع القرآن الأول مرة أخرى؟

فالقرآن خليق بإعادة النظر فيه وإعمال العقل فيما بدى لأول مرة لقارئه وسامعه وكاتبه من مغازيه، فإنك بكل مرة من إعمال الفكر والسمع والبصر فى كتاب الله تجد المزيد من عطاء القرآن باعتباره كلام الله الذى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ويعلم ما يصلح الناس ويقودهم قودًا رفيعا إلى مستوى «عباد الله» الذين لا يرضون عن كلامه بدلا ولا يبغون عن هداياته حولا. ورضى الله عن ذلك الإمام الذى قرأ كتابا للإمام الشافعى ثلاثين مرة فقال ما قرأته مرة إلا أفدت منه علما نافعا وإدراكا واسعا وأين ما كتب الإمام الشافعى وغيره من أوائلنا على جلالة قدرهم من كتاب الله تعالى الذى يجعلك أمام تعدد أغراض السورة من سوره، وكأنك فى روضة غناء يانعة الثمر زكية الورود والرياحين عذبة المياه واسعة الظل فى أفق فسيح مريح، وجل كتاب الله عن أن تحيط به الأمثال إلا على نحو يقرب أيسر شيء من معانيه ومغازيه.

* * *

دروس من سورة الجمعة

من خلال آيات سورة الجمعة، وآيات إيجـاب صلاتها بخاصة، نطالع قول الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة: ١٠].

وهى فى سياقهـا الخاص. لا مانع بحال أن تكون فى ضرورة السـعى لاكتساب الرزق. وتحصيل ما قـسم الرزاق لنا من أمور المعايش. مع مثيـلاتها من مثل قول الله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك: ١٥]. ونحن مطالبون بالتماس الرزق، وطلبه من حسان الوجوه. وبشريف الوسـائل بعد أن أوجبـه الحق تبارك وتعـالى -فضلا منه ورحـمة- على نفسه، وتكفل به للمؤمن والكافر والبر والفاجـر، والأخذ بالأسباب استجابة لأمر الله. والمعطل للوسـائل المشروعة رضى بأن يأكل كـما تأكل الأنعـام والهوام، وإن كانت هى تسـعى إلى ذلك، وتأخذ بالإلهام مـا يشبه بهـا من وسائل، وفى مملكة النمل والنحل وغـيرها من مخلوقـات الله دروس حكيمة ونـظام وتدبير واحتـياط يخفى على الإنـسان المستـخلف فى بعض أحيانـه، والنبى ﷺ يقول: «**لو توكلتم على الله حق التـوكل لرزقكم كمـا يرزق الطير، تغـدو خماصـا وتروح بطانا**» رواه ابن عمر رضى الله عنه -الترمذى وحسنه.

إن غدوها أول النهار خـالية البطن، ضرب من التوسل لتحصـيل رزقها، وهى تروح أخرة يومها وتعود وقد أخذت لنفسها كفايتها من طعام وشراب. وربما عادت بميسور غذاء أو بحسوة ماء لصغار لم يقووا بعد على طلب حاجة الحى الضرورية. فقال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [هود: ٦] فطيور السماء والأسمـاك وأحياء الماء، وما نعلم وما لا نعلم من الأحياء، عوالم وأمم لهـا أساليب حياتها. ولها ضمـان الله وكفالة ما

لابد للأحياء منه قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولو أطلق الله قوله تعالى فى ايجـاب الرزق وتيسيره لطالبيه لكـان من حقه عز وجل أن نستيقن من خبره، ونستقـبل بعرفان فضله متواتر إحسانه. لكن الله الذى يعلم أن من عباده من يحارون فى هذه الحقيقة التى يصدقها واقع الناس، قد أقسم على ذلك فقال:

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

وإيراد السمـاء والأرض فى الآية والقسم بمالكهما دون مـا وراءهما من ملكوت الله العجيب وأسمائه الحسنى وصـفاته العلا، دال على بدء الأرزاق ومنتهاها وبيان أنها عطاء الله لمن يترددون بين السموات والأرض، وأن من رحمة الله بنا أن مفاتح الرزق ومنائح الخير من لدنه لا من عند الناس وإن بدت من عطـاء بعضهم لبعض منذ جعل الله بعـضهم لبعض سـخريا، لأن قلوب الناس بين أصبـعين من أصابع رب العـالمين، وآياته المتلوة والمجـلوة فى إسـداء الخيـر، وجـمـيل عـداته تعـالى للمحسنين مما يزيد به الله الذين آمنوا وأحـسنوا بذلا. بينما هى حجة الله على من بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

وبنو آدم يعمرون الأرض التى استخلفهم الله على إبلاغـها كمالها الممكن. بعد أن جعل لهم الأرض مهدا وسلك لهم فيها سـبلا، وأجرى بحارها وسير أنهارها. وجعل الجبال رواسى فيها وأوتادا.

وأخرج زروعـها وجعل منـها حبـا وعنبا وقضـبًا وزيتونـا ونخلا وفاكـهة وأبا ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

كل ذلك وما وراءه سخره الله لنا، رزقا ومتـاعا وانتفاعا. وعونا على أن نكون أقدر ما نكـون على العمل، وفى ذلك ما يسقط أعـذار الكسالى الذين يريدون أن يحيوا كـيفما اتفق دون أن يجـشموا أنفسهم أى عنـاء فى الإسهام فى دفع دولاب الحياة إلى الإمام.. وأنظر وأنعم نظرك فى قول الله تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٤].

فكم عـددت كلمة «لكم» فى تلكـم الآيات؟ وإنها لتـعنى مع امتنان الله بهـذه الهبات، علينا أن نجـنى الثمرات، وأن ننقل بالفلك إلى أبعد الغـايات، وأن نسبر أغوار البحار التماسًا لما فيها من خيرات. وأن نفيد من الأنهار وراء الرى الضرورى لنا ولزروعنا ودوابنا كل ما يمكن أن يعين عليه العلـم، وأن نستخلص من الشمس والقمر مـا فيهما من طاقة وبركـة، وأن نجعل الليل والنهار ميدانا موصـولا للحياة والحركة آخـذين لأنفسنا ما يجنبهـا من كلال العمل نومًا ورياضـة وغذاءً وصلات نشد بها الـعرى بيننا فى فرصة الحيـاة الواحدة، فإنها وعـاء الإيمان والعلم والعمل الذى هو ثمرة الإيمان والعلم. وهو حين يكون صالحًا دلالة لا تدفع وحجة ناهضة على العلم النافع والإيمان الصحيح، وإنهـا لوجبات رزق واسع من الله الذى يذكر من يذكره ولا يضيع أجر من أحسن عملا.

﴿ ابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

* * *

أدعية من القرآن والسنة

١- في القرآن الكريم:

خلد القرآن الكريم من دعاء الأنبياء والصالحين طائفة من الكلمات المؤمنة التى تسقى غراس الإيمان واليقين فى الأنفس وتؤكد أن الله وحده هو الذى ينبغى أن يسأل ويقصد بكل حال، وأن تبقى نماذج ينظر إليها ويقاس عليها، عصراً بعد عصر، لتبقى رسائل صاعدة إلى السماء قبلة الدعاء، حتى يجدها المؤمنون يوم القيامة عند ربهم من أزكى طاعاتهم، وأنفس عباداتهم..

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠].

وتتبع آيات الدعاء فى القرآن الكريم سكينة أنفس، وراحة أرواح، وقرة أعين، وهو على ذلك دراسة ومعرفة للظروف التى اخترق فيها الأجواء هذا الدعاء، واستقبلت فيها رحمة الله تلك الضراعات، لنقدم منها لأنفسنا السلوك الذى نرتفع به إلى مصاف هؤلاء الأسلاف فى مرضاة الله تعالى..

ومنذ تقع عينك على فاتحة الكتاب، يطالعك أول ما علم الله المؤمنين أن يسألوه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وماذا وراء أن يسأل المؤمن مولاه الذى أخلص العبادة له، وجرد التوكل، فجعله إليه وعليه، فى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] وأن يسأله ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهو الإسلام الذى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على المؤمنين، ورضيه دون سواه دينا وامتن به تعالت آلاؤه فقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام طريق الله الذى يهدى إليه ويدل عليه من أحبهم واصطفاهم لنفسه «**ومن أعطاه الله الإيمان فقد أحبه**» كما قال الرسول صلوات الله عليه. وصدق الله العظيم.

﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾ [الحجرات: ٧].

ولقد وصف الله الذين أنعم عليهم بالإيمان، بأنهم «غير المغضوب عليهم» بإيثارهم الباطل واتباعهم الهوى، وكفرهم بالله، وغضب الله على هؤلاء، شأن من شئونه تعالى، يترتب عليه عقوبته وانتقامه، فغضبه سبحانه، لا يشبه غضب المخلوقين بحال، ورحمته لا تشبه رحمتنا لمن نحب ونؤثر، تعالى الله عن أن تشبه صفاته صفات عباده علوا كبيرا..

كما وصفهم بعد ذلك بأنهم غير الضالين، فالذين لم يذعنوا للحق وقد لاح دليله، واستقام سبيله، ونبذوه وراء ظهورهم، شغلا لغيره ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾ [يونس: ٣٢]. هؤلاء أهل غضب الله، ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١١٧].

والذين لم يظهر لهم الحق، فهم كالشياه التائهة فى الصحراء، لا يهتدون سبيلا، هم الضالون. وفى تفسير الشوكانى قال القرطبى.. الضلال «هو الذهاب عن سنن القصد، وطريق الحق» ومنه ضل اللبن فى الماء: ﴿**أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ**﴾ [السجدة: ١٠] أى غبنا بالموت وصرنا ترابا.

قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير سورة الفاتحة: ﴿**وَلا الضَّالِّينَ**﴾ «بلا» لما فى ﴿**غَيْرِ**﴾ من معنى النفى أى وغير الضالين ففيه تأكيد للنفى، وهو يدل على أن الطوائف ثلاث: المنعم عليهم، وغير المغضوب عليهم، والضالون، ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضًا، لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية، واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون منها إلى المطلوب، ولا يهتدون فيها إلى

مرغوب ولكن فرقا بين من عـرف الحق فأعرض عنه على علم، وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدى إلى الجادة الموصلة منها».

وقال الامام ابن كثير فى تفسـيره «المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق، وعـدلوا عنه، وغير صراط الضالين، وهم الذين فـقدوا العلم، فهم هائمون فـى الضلالة، لا يهتـدون إلى الحق، وأكد الكلام «بلا» ليـدل على أن ثم مسلكين فـاسدين، وهما طريقة اليـهود وطريقة النصارى» ولعل ابتـداء الدعاء فى كتاب الله بهذا الذى ذكرناه من سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ يؤكد لك أن نعمة الله على المسلمين بالإسلام كبـرى، وأنها ينبغى أن تشكر، وأن شكرها الكامل فى التـزامها عقيـدة وعبادة وسلوكا، وإلا كـانت دعوى وزعمًا لا يرتفع فـوق رءوس الأدعياء شبرا. . والدعاوى إن لم تقيموا عليهـا بينات دعاتها أدعياء. وفى التأمين بعد هذه الكلمات من سورة الفاتحة دعاء أيضًا، فـإن معناه «استجب يا ربنا» وهو متأكد فى حق المصلى إماما كان أو مأمومًا أو منفردا، ومستحب بعد ذلك للمؤمن دعا هو أو قرأ أو سـمع. . وفى الصحيحـين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

وعن أنس قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**أعطيت أمـتى -آمين- فى الصـلاة وعند الدعـاء، لم يعط أحـد قـبلى إلا أن يكون مـوسى، كـان مـوسى يدعـو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بـ«آمين» فإن الله يستجيبه لكم**».

فاللهم اشرح صدورنا بنور الحق حتى نلتـقى على جلاء الدعاء فى كتابك وسنة نبيك آمين. .

* * *

المكر والماكرون فى كتاب الله

١- فراسة المؤمن:

إذا خالطت بشاشة الإيمان قلب إنســان، ونشطت فى طاعة الله أعضاؤه، رزقه الله صدق الفطنة، ومنحه صحة الإدراك، وحبـاه دقة البصر فى كل ما يدور حوله ويضطرب بين يديه من أحداث، وهيأ له من أمره رشدًا، فرأى الحق حقا واستعان بالله على سلوك سبيله، ورأى الباطل باطلا، واستعاذ بالله من أن يغشاه أو يقع فى أحابيله. قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]

والنبى ﷺ يقول: «**المؤمن كيس فطن**» أى عاقل مدرك.

ويقول: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

وكان أبو حـفص عمـر رضوان الله عليه يقـول: «لست بخِب -خادع مـاكر- والخِب لا يخدعنى».

٢- المكر والماكرون فى كتاب الله:

إن فراسة المؤمن هى الإطار الأصيل لسعة الحيلة وحين التدبير، وسياسة الأمور على أساس من وضـوح الرؤية، واستهداف النصـفة والعدل فيمـا نأتى وما نذر، وليس شىء من ذلك من المكر السيئ الذى أكـد الله أن جرائره لا تحيق إلا بأهله، وأن مصايرة لا تلحق غير الذين نصبوا شباكه، وأقاموا على طريق الأبرار أشراكه، وفى مشـركى العرب، وهـم مثل لمن سبـقهم من الأمم التـى عتت عن أمـر ربها وتمردت على رسله، ولمن لحقهم من يـهود كانوا يعرفون محـمدا صلوات الله عليه كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وما يزال اليهود ما بقى منهم فرد واحد «أشد الناس عداوة للذين آمنوا».

قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

ولقد ورد المكر بهذه الصفة مقرونا بوعيد الله وتهديده مرات فى القرآن الكريم.. قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [النحل: ٤٥].

وقال: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥]

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠].

ونسب -سبحانه- المكر للكفار مرات، وللمجرمين كرات فقال تعالى: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل: ٢٦].

وفى قوم نوح عليه السلام قال سبحانه: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح: ٢٢].

وحكى الله مقالة الذين كذبوا صالحا عليه السلام من قوم ثمود، واطيروا به، وكادوا له، فجرعهم الله كئوس كيدهم. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ

بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ النمل: ٤٨- ٥٣].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويمن الله على رسوله صلوات الله عليه، ويواسيه آنًا بعد آن من إساءات المشركين، فيقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويقول: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

ويقول: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

٢- مفهوم مكر الله:

ولقد وصف الله بالمكر نفسه فى أكثر من موضع فى كتابه على طريق المشاكلة. كما يقول علماء البديع -فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وليس مكر الله من ذلك المكر الذى يحق به أقوام باطلا ويبطلون حقًا ويخادعون به سواهم عن حقائق الأشياء وصحائح الأنباء -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- وإنما يفهم المكر فى جانب الله عز وجل بمعنى مجازاته للماكرين على ما دبروا ومكروا جزاءً وفاقا.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

ولقد ذكر الإمام القرطبى فى تفسيره للآية أقوالا اخترنا منها قول الزجاج.

«مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الافتراء».

كما قال الإمام القرطبى عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] .. «أى أن ما يأتيهم من العذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر».

٤- طبائع عدونا لا تخفى:

والمؤمنون، انطلاقا من هذه الحقائق، بصراء عارفون بعدوهم وحيله وقدرته على إلباس الوقائع غير ثيابها، للتورية والتمويه والتوصل إلى ما عرف به وعهد عنه من اغتصاب كل ما تبلغه يده، وانتهاب ما تناله وسائله، سجية تلك فيهم غير محدثة وطبيعة ليس إلى انفكاكهم عنها من سبيل. قال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ولكن هذا البصر بالعدو ومكره ووساوسه ودسائسه ينبغى أن يلقى من المؤمنين إجماعا وأن تزيد نسبته فيهم ارتفاعا، لا بمجرد الكلام يطلقونه، ولا الشارات يرفعونها قد أنحى الله باللائمة على أقوام فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وإنما يكون ذلك بتقدير الموقف وما يعوزه من جهاد جاد، ومن إعداد وأمداد، كل بحسب ما يستطيع أن يقدمه للمعركة، فلا تكون جبهة مواجهة نلقى فيها بخيرة الرجال وذخيرتنا من القادة والأبطال، ووراءها جبهة لاهية تمثل الأمة شعبين لا شعبا، وجماعتين متباينتين لا جماعة عازمة مصممة على أن ترد العار، وتسترد البلاد من الغزاة الكفار، وهى يقظة ساهرة مع ذلك على حماية صفها دائمًا من كل انقسام وفرقة وخصام، وبلبلة رأى.

إننا نقاتل عدوا شرسًا، واستعمارا حاقدًا، ومطايا تسلم ظهورها بيننا لهؤلاء وأولئك وهم يؤدون رسالتهما فى التهوين من أمر الدين، والنيل من أقداس

الإسلام، ومحاولة صرف الأمة عن ماضيهـا، لتعيش لساعتها لا يشدها إلى المجد ماض، ولا تسندها فـي حاضرها قـوة ولا كثرة مـال، ولا مضاء رجـال. . وماذا يكون الفناء غير هذه الحال؟

إن عقيـدتنا باقية عزيزة، ولن يزول غيـر كريم إلا أولئك الذين لا ينصرون الله على أنفســهم وأشواقهم **﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** [محمد: ٣٨].

وما ينبـغى أن تطلب النصرة من غـيرنا قبل أن نرتفع إلى مـستوى الإيمـان وما يوجبه من جـهاد الأعداء، ومواجهة الخـصوم صفا واحدا «كأنهم بنيـان مرصوص» بعد أن اسـتعلنت أمـريكا بعداوتنـا، وحسبت أن إسـرائيل ستكون جـوادها الرابح وجسرها الذى تعبره مرة أخرى إلى بلادنا، وأنها ستجنى بها خيرا «وهل يجنى من الشوك العنب»؟! وأمـريكا فى ذلك خادمة مـخدوعة، فإسـرائيل هى إسرائيل منذ كانت؛ لا ترى فى الوجود غير نفسها ولا تبصر على أرض الله سواها، ومن عجب أن تنسى أمريكا ما تذكـره ويذكره الناس من كلام الزعيم الأمريكى الكبيـر بنيامين فرانكلين مما صـار واقعًا ملـموسًا. . والبـقية تأتى، قـال: «هناك خطر كبيـر يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الخطر الكبيـر هو اليهودية؛ ففى أى مكان حل فيه اليهود كـانوا السبب فى خفق القيـم الأخلاقية وانحطاط الأمانة الـتجارية، وإذا لم نمنعهم من دخول أمريكا بموجب الدستور ففى أقل من مائة عام سيتدفقون إلى هذه البلاد بأعداد هائلة إلـى درجة أنهم سيحكمون ويحطمـون نظام الحكم القائم الذى بذلنا نحن الشعب الأمريكى من دمنا وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا وحريتنا الشخصية فى سبـيل إقامته، إذا لم نمنـع اليهود من الإقامـة فى أمريكا بموجب الدستـور ففى خلال مائتـى عام سيكون أطفالنا يعـملون كخدم فى الحقـول ليطعموا اليهـود بينما يجلس هؤلاء فى بيوتهم يفركون أيديهم ويحصلون ما ربحوا.

ولقد صـار أمر اليـهود فى أمريكا أكـثر مما توقـعه فرانكلـين، وها هو ذا أحد حاخامـتهم -فيـشمر- يقول: «إن اليـهودى يبقى يهوديًا دائمًـا حتى ولو ارتد عن

دينه، فـماذا ارتكب هذه الخطيـئة مـا بقى يهـوديًا على الرغم من ذلك، وهو لن يستطيع أن يحرر نفسه من أمر يهوديته».

ولقـد تنصـر درزائيلى رئيس وزراء بريـطانيـا وغيـره، وإنما تنصـروا لخـدمـة يهوديتـهم، وكان بلفور وعـشرات من أولئك الذين خدمـوا اليهودية وكشـفوا عن وجه الصـيهونيـة منذ عام ١٨٩٧، ومـازالت الأيام تكشف من ذلك ما فـيه بلاغ وعبرة لقوم يعقلون.

٥- يا قومنا أجيبوا داعى الله:

إن الجهاد وحدة، والجهاد المقدس لإعـلاء كلمة الله وإحقاق حقه لم يعد منه بد ولا بديل له فى هذه المرحلة من حيـاتنا بعد أن تواترت الأنباء وقـامت الأعمال لا الأقوال، شـاهدة بسخائم أنفس الأعداء، وتبـييتـهم لأمتنا، ولأتباع عيـسى عليه السلام، كذلك يقول الزعيم الصهيونى المعروف تورمان بنتويش: «ليس من المعقول أن تبقى فلسطين المستقبل محدودة بحدودها الحـالية، ففى استطاعة اليهود الانتشار والتوسع إلى جميع البلاد المحيطة بنا من البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات، ومن لبنان إلى النيل، فهذه البلاد التى أعطيت لشعب الله المختار».

هذه صور من مكر القوم، نراها فى حلقات من «المكر والماكرون فى كتاب الله».

إن مر الأيام وكـر الشهور والأعوام لتـزيد إيماننا بأن يهود شـر الناس وأحرص الأجناس على الكيد الموصـول للإسلام والمسلميـن، وجل الله الذى أوجب عليهم اللعنة بمثل قوله ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ..**﴾ [المائدة: ٧٨]... حتى قال تعالى ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...**﴾ [المائد: ٨٢]. إنها آيات ينـبغى أن نمعن فيـها النظر ونمعن التأمل، فلعلهـا تعيد إلينا شـيئًا من الحذر من أولئك الذين كـانوا منذ كانوا أعداء الحق لا يرضون به بدلا ولا يبغون عنه حولا...

لكنهم وإن طال المدى واتسعت سـاحة غفلتنا عن الله عز وجل ومـا أوجبه من

السهر على حدود الإسـلام. بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وقول رسول الله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله**».

وحين نأخـذ ما ورد فى الأثر «أنت على ثغـر من ثغور الإسلام فـلا يأتين من قبلك» فنكون أيقاظا واعين آخذين من الله عز وجل قوله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فنجـد أنفسنا فى الميـدان وحدنا . . . ولكننا نجـد الله عز وجل يمنحنا مـا منح المسلمين يوم بدر وهو يمد المسلمـين بملائكته ويقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا...﴾ [الأنفال: ١٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

* * *

قبسات من سورة الجمعة

فى نظرة لآيات سورة الجمعة يبدو أنها مدنية، إذ لم يظهر اليهود فى الرسالة الخاتمة إلا بعد الهجرة، ولم يجتمع المسلمون على هذه الصلاة إلا فى المدينة. على أن الذى جمعهم فيها مصعب بن عمير رضى الله عنه بأمر جاءه من الرسول قبل أن يهاجر ﷺ إلى المدينة.

أو أن الذى جمعهم عليها سعد بن زرارة بدون أمر النبى عليه الصلاة والسلام..

ويوم الجمعة وصلاته بارزان فى السورة، فلم يذكر اسم يوم فى القرآن سواه، ولم تأخذ صلاة ما أخذت صلاته من تنويه بوجوب السعى إليها، وإلى ذكر الله الذى حصره بعضهم فى خطبة الجمعة، وقرر بعض الأئمة أن حضورها شرط فى صحة الصلاة، على ما ذكروا من أنها خطبتان يقوم فيهما الإمام بدليل قول الله تعالى ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا...﴾ [الجمعة: ١١].

ويجلس بين الخطبتين جلسة خفيفة، وتختلفان طولاً وقصراً وموضوعًا وكون خطبة الجمعة وشهودها شرطًا فى صحة الصلاة يعطيها من الاهتمام ما يدعو إلى الحرص عليها، وإعمال الفكر، وجمع الخاطر فيها، حين يتناولها من يفهمون أنهم متأهلون لهذا المقام الذى يخلفون عليه النبى ﷺ والذين قاموا من بعده على أمر المسلمين من خلفائه والذين اتبعوهم بإحسان إلى عصور الخير والصلاح.

والسورة تبدأ بتسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم، تسبيحًا لا يحدد بزمن أو حال، فكل من خلق الله يستوجب الله منهم حمده وتقديسه الذى فطن إليه واجتمع كل شىء عليه، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كان ما تعنيه «ما» أن غير العاقل يسبح لله، فكم فيه من إيجاب ذلك على العقلاء المكلفين المستخلفين الذين لا ينبغى أن تسبقهم العجماوات والجمادات ونحوها إلى حق الله تعالى فى الطاعة والعبادة. والسورة تعلن فضل رسول الله الذى بشر به عيسى فى السورة قبلها فقال ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فهو رسول الله من قومه، كما كان كل رسول سبق ونبى تقدم من قومه كذلك، ورسالة إلى قومه بلسانهم، كى يفهموا عنه، ويفيدوا منه، ولا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [الجمعة: ٤]. ويجلو الله أبرز مهام نبينا محمد ﷺ بقوله ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وما أجمل «ويزكيهم» وسطًا بين تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، فالتزكى ثمرة التلاوة والأخذ بكتاب الله، وهى سبيل التعليم، فإن نور الله لا يُهدى لعاص، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وإعلاء دور النبى ﷺ إعلاء لقدر أمته التى إن برزت أميتها وأنها لا تكتب ولا تحسب غالبًا فى مقابلة أهل الكتاب، وأمم المرسلين الأولين، فإنها علمت الأمم وهدت البشرية بما أفاء الله بالإسلام من علم هو أصل كل علم، ومصدر كل معرفة فيها هدى ونور وبلاغ للناس إلى آخر الزمان..

وفضل هذه الأمة يعلو ويكتمل لصحابة النبى ﷺ، ثم يكون لتابعيهم وتابعيهم على قدر استمساكهم بسنته، والتزامهم لما بلغهم ﷺ من لدن مولاه.. والنبى ﷺ يضع سلمان الفارسى بإسلامه بموضعه فى قوله «**سلمان منا آل البيت**»، فما كانت الأحساب الزاكية شيئًا إذا وضعت فى كفة ميزان أمام الإيمان بالله تعالى.. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوم سلمان هم المقصودون بقول الله تعالى ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وهو فهم سائغ وقول له اعتباره بين أقوال الآية.

ومع فضل عمـر بن عبد العزيز بن مـروان الذى اعتبره البعـض خامس الخلفاء الراشدين، سُئل عبد الله بن المبارك، وهو من هو علمًا وإنصافًا ومعرفة بالرجال.. أى الرجلين معاوية بن أبى سفيان، وعمر بن عبد العزيز أفضل فقال: «الغبار الذى دخل أنف فرس مـعاوية أفضل عند الله من مائة عـمر بن عبد العـزيز» وقد يكون الحكم بادى الشدة، لكن ابن المبارك يرطبـه ويخفف وقعه على الأنفس وهو يردف قائلاً:

«لقد صلى مـعاوية خلف رسول الله ﷺ فـقرأ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فقال معاوية: آمين.

وابن المبـارك رحمـه الله لم ينظر إلى عبـد شـمس ولا أميـة، ولكنه نظر إلى الصحـبة ولقـيا رسول الله ﷺ والعـمل بين يديه، فقـد كان من كـتاب الوحى، وقصـته عندما كـان فى مجلس عـمر حين أذن لبـلال ولم يأذن لأبى سفـيان فى الدخول عليـه، وقال: «والله لو لقينى بلال فى بعض سكك المدينة مـا وسعنى أن أتقدم عليه».. إنه الإيمان الذى يرجح بكل مـوزون والإيمان بالمرسلين هو مبعث الإكبـار، وأخذ توجيـهاتهم مأخـذ الجد هو مظهر الطاعـة والإذعان لهم، ولما لم يعمل بنو إسرائيل بالتـوراة ضرب لهم الله تعالى مثل الحمار يحمل أسـفارًا فهو لا يدرى أحريرًا يحمل أم حـديدًا، وعلمًا هاديًا أم ضلالا بعيـدًا.. وتتتابع الآيات، تبطل دعواهم أنهم أولياء الله دون غيرهم، فـهم ليسوا من ذلك فى شىء، وليسوا أبناء الله وأحباؤه، فقد دحض الله تلك الكلمـة، فما يزيدون على أن يكونوا بشرًا كسـائر من كذب بآيات الله فلم يتـمنوا أن يدركهم الموت، حـتى يواجهوا عـقبى كفرهم يوم تُجزى كل نفس بما كسبت..

وتتوالى الآيـات تقدر يوم الجمـعة وصـلاته، وبعض ما ينبغـى لها من آداب، وبيان أن ذكـر الله، وهو الخطبة لهـذه الصلاة فى أظهـر الأقوال، وهى مما يتـأخر بعض المصلين عنها وربما لم يـحضروها ويضيـقون بها ذرعًا حـين تطول إذ يتولى أمرها من لا يحسنون، أو تقصر، فلا تلمس قلبا.

وتنتهى السورة بموقف الذين تركوه يخطب، ورجعوا إلى قافلة فيها ما يحتاجونه من أطعمة وزاد، فليقرأها عبيد الحظوظ الدنيا، ليعلموا ماذا قال الله لأسلافهم، وماذا يعنى قول رسول الله **«لو خرجوا جميعًا لملأ الله عليهم الوادى نارًا»** فاعتبروا يا أولى الأبصار.

ولقد ظلم الناس فى العصور الأخيرة يوم الجمعة، فجعله بعضهم للنوم وجعله آخرون للخروج إلى المتنزهات واشتغل فيه غيرهم بالمسلسلات ولغو الحديث فى الإذاعات والخروج مبكرين إلى نوادى القرى التى تغص بالغافلين قبل موعد (اللعب) بساعات.

وظلمه بعض الذين يتولون أمر خطبة الجمعة التى سماها الله عز وجل ذكر الله فى قوله ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، واعتلى المنابر من لم يرشحهم علم ولا عرفوا بما ينبغى أن يقال من فوقها، وما أكثر مصاب المنابر بأولئك الذين يقولون إن معى تصريحًا من بعض المسئولين، وهم والذين صرحوا لهم خليقون بأن يُقال لهم (ليس بعشك فادرجى) فمتى يسلم المنبر من الذين يقتلونه ظالمين. فليس لهم من معرفة البر والخير والآثام والمعروف (ولا قلامة ظفر).

وفى السورة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥].

وإيثار الكلب فى هذا السياق. والكلب فى بعض المأثور يضرب مثلاً فى الوفاء لسيده. والشاعر العربى يقول:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى ممن نرى أحدًا

إن الكلاب لتهدى فى مرابضها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدًا

وغفرانك اللهم فبقدر ما يسرنى محسنون من الوعاظ والخطباء أكاد أخرج من جلدى فى مساجد قليلة يثب على منابرها أدعياء العلم الذين يقال لهم مثل قول الله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] إلى هذا المدى من الآية، وهم فى حقيقة أمرهم أبعد ما يكونون عن ختام الآية.

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وليس للقوم حظ من تلاوة الكتاب على وجه الحق والصواب.

وبارك الله فى القرآن الكريم الذى يزيد الله به المؤمنين إيمانًا، والذى ندعوه تعالى صادقين أن يفتح قلوبهم وأذهانهم للقرآن حتى نلتقى وإياهم على جادة الحق وعلى صراط مستقيم.

* * *

وعادت للحق نورانيته

القرآن الكريم يذكر الإسراء بخـاصة فى هذه الآية المصدرة بما يقنع من تنزيه الله عن أن يعـجزه الإسراء بمصطـفاه، على ما عـرف الناس من معنـى الإسراء، ومن المسجد الحـرام إلى المسجد الأقصى، ومـا أجل وصف النبى صلوات الله عليه فى مقام الإعزاز والتكريم.

فى هذا المقــام الذى يعـجـز الكلام عـن أن يصـفـه، يصف الله مــصطفـاه «بالعبـودية»، وما أجلهـا وأسمـاها، وهى تثير أمـثالهـا فى وصف الله للنبى فى مواقف ومقامات نذكر منها قـوله تعالى فى أعقاب بدر وغنائمها: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] أن الله هو الذى أسرى بعبده.

وكان هذا الإسراء «ليـلا» حتى يبقى آية تطيب بها نفـوس، وتتصدع رءوس.. وكان هذا الإسراء مـبتدئا من منزل الوحى، ومنتهـيا إلى أرض الوحى الذى ذهب فى الزمن بعيـدا حتى عبثت به الأهواء أو كـادت، فجاء الوحى الأخيـر ليرد إلى الحق قوته ونورانيته فى الدين الخاتم، والرسالة العامة.

وإلى المسجـد الأقصى كان مـسرى النبى، ومنه ابتدأ مـعراجه، فيـه التقت جبـهة الأنبـياء، ليعلم الناس أن الإسـلام كلمة الله الخـفية البـاقيـة برسالاتهم جميعًا.

فلولا القرآن الكريم ما عرفنا أبا البشر آدم عليه السلام ولا حواء أم البشرية على سواء، ولا عرفنا أن الله عز وجل ألف بينهما وبث منهما رجالاً ونساء، ولا عرفنا أبا المرسلين نوحًـا عليه السلام وكـيف لبث فى قومه ألـف سنة إلا خمسين عـامًا يدعو إلى الله عز وجل ليلاً ونهارًا كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً

وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧]

ولا عـرفنا أبا الأنبيـاء إبراهيم عليـه السلام ولا الـكليم موسى ولا كلمـة الله عيسى، ولا فهـمنا أن الله عز وجل جعل ليلة الإسراء والمعراج فرصة يتحـقق فيها قول الله تعالى لمصطفاه ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] .

فلقد حـشر الله عز وجل لمصطفـاه الأنبياء والمرسلين فـى بيت المقدس ليلة، إذ على نحو ما فصلته السنة المطهرة والسيـرة العطرة، وفيها استبان وجه الحق وعلت راية التوحيـد وكان أمر محـمد فى أقل القليل كما قـال الخليل إبراهيم وهو يسمع والمؤمنون معه إلى ثناء النبى على ربه بعد أن أثنوا جميعًا على الله عز وجل، فعطر الزمان والمكان قول إبراهيم عليه السلام «بثناء محمد على ربه فضلكم جميعًا».

إنهـا الليلة التى طـوى الله فيـهـا أبعـاد الأرض بالإسـراء، وقـارب بين أقطار السمـوات بالمعراج حتى كـان النبى عليه الصـلاة والسلام من ربه فوق الســموات السبع ووراء سـدرة المنتهى، أهلا لتكريم الله عز وجل الذى رفـعه إلى ذلك المكان الذى لم تطرقـه قدم ملك ولا رسـول ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وقـال: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٧، ١٨].

* * *

تأملات فى القرآن الكريم

فضل القـرآن الكريم على ما عرف الـناس -منذ كانوا- من كلام، كـفضل الله تعالى على جمـيع خلقه، وكل ما لله تعالى من نعوت الجلال والكـمال والجمال، والعلم المحيط، يتمـثل فى القرآن الكريم كذلك على نحو لا يمكن أن يشاركـه فيه غيـره. أو فى شيء منه فهو كـلام يرى فى ضوئه ما فى غـيره بالنسبـة له، جلاءً وتصديقًا لقوله -جلت آلاؤه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

والنظرة الأولى فى القـرآن الكريم تتأدى بالمنصف -لا مراء- إلى أنه كـتاب الله حقًـا فهو يعرض قـضايا الأزل والأبد. ويخاطب بذلك كله خـطابا عاما لا يتقـيد بالزمان الذى نزل فيه على نبينا صلوات الله وسلامه عليه. ولا بالبقعة التى ارتضاها الله منزلا للوحى.. ومهـدا للتوحيد. ومنطلقـا للشريعة الخاتمة إلى مـا ورائها من المنازل. ومن بلغتهم من الناس سودا وبيضا وصفرا وحمرا، عربا وعجما..

وكان عموم خطاب القرآن بالتكاليف الإلهـية شاهدا ودليلا -من شواهد وأدلة- على أنه كلام الله لا كلام مصطفـاه، فالأمر بإقامة الصلاة، وصيام رمـضان مثلا، يعطى المكلفين فى مختلف منازلهم فرصة الحركة إلى ذلك على صورة تختلف فى الزمان من مكان عن مكان وإن لم تخـتلف قيد شعرة عن قـوله صلوات الله عليه «**صلوا كما رأيتـمونى أصلى**» أخرجـه البخارى، وما توافـرت الاستطاعة. وتيـسر المكان. فالدين يسر. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والمعصوم ﷺ يقول: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فجالسًا، فإن لم تستطع فمضطجعا..**) الحديث.

ونحن نقـرأ قـــول الله تعـالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُـرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فنرى الآية -وأمثالهـا كثير فى كتاب الله- حجـة ودليلا على عموم رسالة الإسلام.

والقرآن كتاب يحشد الله فيه ما يوائم هذا العموم من شؤون الأفراد والجماعات، مؤمنـها وكافـرها، وبرها وفاجـرها، ومن الأمور التى يقـتضـيها حـال أولئك فى

منشطهم ومكرههم وعسرهم ويسرهم. وعلى كل حال. ويكون ذلك على مقتضى ما أسلفنا من العموم والخطاب العام الذى يتسع للناس فى مختلف عصورهم ودورهم. وإن كان السبب فى بعض ذلك خاصًا، فإن العبرة -كما قالوا- بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والظاهرة الرائعة التى توقظ الانتباه، وتثير الأحاسيس جميعًا، هى حديث القرآن عن القرآن من أجل أن يحكم المسلمون وثاقهم بكتاب استبانت مقاصده، وظهرت غاياته، وبدت ضرورة الأخذ به.

والنسيج على منواله فى شتى شؤون الحياة والأحياء فما يغنى عنه غيره فى ذلك مثقال ذرة ولا يسد مسده سواه قيد شعرة، وإن القرآن ليغنى عن كل كتاب، ولا تكاد هذه الكتب سماويها ووضعيها تغنى الناس ساعة من نهار عن أيسر قدر من كتاب الله.

وأنعم نظرك فى واحدة من الآيات القرآنية التى يتحدث الله فيها عن القرآن وهى قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].. فإنها تواجهك بطائفة من الحقائق التى تطيب بها الأنفس التى لم تفسدها الأهواء. ولم تؤفها آفة عقلية أو نفسية مما يصيب أعداء الحق فى أعصار وأمصار، وفى طليعة تلكم الحقائق أن إنزال القرآن كان علامة كبرى على شرف القرآن، إذ بدأ نزوله فى شهر اختصه الله بعبادة نسبها لنفسه جلت آلاؤه وكل العبادات له فقال: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾، وكما أن ذلك شرف للقرآن، فهو شرف للشهر الذى أنزل فيه، وكان إنزاله مبدأ اصطفاء رسول، وابتداء رسالة، وقيام أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ [سورة القدر].

وحقيقة أخرى وهى أن القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى أى الكتب المنزلة، والفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل.

والله تعالى يصف القرآن فى عدد من الآيات بما وصفه به فى قول﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾.

فهو هدى للناس، هـدى فى نفسه لجميع الناس وأنه من جنـس الكتب الإلهية مصدرا ونسبة، ولكنه الجنس العالى على جميع الأجناس فإنه آيات بينات من ذلك الهدى السماوى والوحى الإلهى، وإذا كانت كتب الله فى نبعها الأول، كلها هدى -وهى كذلك- فإن القرآن ببيانه- فى أقل القليل- يفضلها جميعًا، وهل كان كتاب دانيال النبى، الـذى أنزله الله يهتدى به من يقـرؤه عليهم، إلا ألغـازا ورموزا، لا تفهم مراداتها الإلهية إلا بشق الأنفس.

والتوراة التى أنزلها الله فيها هدى ونور لم تـتضح الأحكام فيها على النحو الذى تتراءى به فى القـرآن. وعلى حين كان يخـفى على تلاميذ عـيسى عليه السـلام ما يشافههم به من المواعظ والأحكام، كان القرآن.. وما زال وسيبقى.. سهل التناول. يسره الله بقـوله وجعله بين الحكمة والحكم إلى المدى الذى امتن به مـرات فى سورة القمر فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.. وفى كل مرة تكررت فيها هذه الآية قدمت الجـديد الناهض من فضل الله وهداه. قال ابن كـثير ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى سهلنا لفظه ويسرنا مـعناه لمن أراده، ليتذكر الناس كما قال ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

قال مجاهد: ولقد يسرنا القرآن للذكر.. يعنى هونا قراءته.

وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن.

وقـال الضحـاك: عن ابن عبـاس: لولا أن الله يسره على لسـان الآدميين مـا استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

وإن تأمل القرآن الكريم ليزيدك إيمانا على إيمان بما يعنيه قول الله تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ... ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فالقرآن الكريم الذى نزل من السماء الدنيا عن طريق جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ مكيًا ومدنيًا وسفرًا وحضرًا وليلاً ونهارًا يسوق لنا شهادة أنه لا تنفد عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، وحينما نزل قول الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥].

كان الله تعالى يعنى مشركى مكة. ولقد أثارت الآية حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس إلى المدى الذى قال فيه: إنه لابد أن يقوم قتال بين المسلمين والمشركين. ومرت سنوات حتى هاجر المسلمون هجرتيهم إلى الحبشة والهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة.

والآية مما يقرؤه المسلمون... حتى فُرض الجهاد فى السنة الثانية بعد الهجرة، وتحقق قول الله عز وجل: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾.

ولقد قال الله تعالى عن أبى لهب وحمالة الحطب:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ... ﴾ [المسد: ١].

وفيها يقول الله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ٣]... ومرت أعوام حددها بعض المفسرين بأنها كانت خمسة عشر عاما كان من الممكن أن يقول أبو لهب كلمة الإسلام لكنه لقى مصرعه دون أن تنفرج عنه شفتاه فكان ذلك إعجازًا من كتاب الله عز وجل يسميه بعض العلماء الإعجاز التاريخى بعد ما مر من آية سورة القمر.

إلى جانب الإعجاز البيانى والإعجاز العلمى الذى علت راياته فى أيامنا تلك، وستعلو وتعلو إلى أن تنتهى الحياة وأن نرى الآخرة إن شاء الله جنة ونعيمًا وملكًا كبيرًا ويراها المشركون نارًا وسعيرًا. وجل الله الذى وسع كتابه الآخرة والأولى ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]

* * *

الطيبـــات.. هـــى الحـــلال الذى يتحقق بعرق الجبين

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].. الطيبات التى أمر الله بها المرسلين فى هذه الآيات من سورة (المؤمنون) هى التى أمر الله بها المؤمنين فى سورة (البقرة) فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وإليها نادى الناس فقال فى سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وليست هذه الطيبات مجرد ذلك الطعام الذى ينفذ إلى الأنوف ريحه، ويجتذب الأبصار شكله، ولكن الطيبات فى دين الله هى الحلال الذى نحرزه بعرق الجبين، وكد اليمين، ومراقبة الله الذى شرع ما نأخذ. والوسائل التى ننال بها ما أعطى الله، لا ما زخرفته الأهواء، وألقى عليه الشيطان طيوبه ومقبلاته وفاتح الرغبة فيه، ولو أحصى الناس ما أحل الله تعالى فى قائمة أخرى ثم تأملوها منصفين، لعرفوا أن الله ما منعهم إلا الخبيث الضار، ولا أباح لهم غير النافع، الذى يرفع بهم أنفسًا وأبدانا فى مجال الصحة والخير ورضوان الله.

والآيات الكريمة التى حدد الله فيها المحرمات من المأكولات والمشروبات سائرة على الألسنة، جلية المغزى، بينة الحكمة، يدعم ذلك كله العلم المعملى، ويزداد به الذين آمنوا إيمانًا، ولا يجادل فيه غير الذين يتبعون أهواءهم بغير علم، ولا ينصفون الحق من أنفسهم.

وفى تفسير المنار «إن الله تعالى ما حرم شيئًا إلا لضرره فى الجسم أو العقل أو الدين أو المال أو العرض».

ومن شأن الحرام يأكله أقوام، أن يبعد بهم عن رضوان الله فى الدنيا والآخرة، والنبى صلوات الله عليه يقول: «**كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**».

والتهاون فى التحرز عن الحرام، والسباق المحموم فى جمع المال بأية وسيلة، ومن أى طريق، هما سبب هذا التخلخل الذى حاق بأسر، وسر ذلك الفساد الذى خر فيه إلى الأذقان بعض الآباء والأبناء، والنبى صلوات الله عليه يقول لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**».

والذين يأكلون الطيبات ويعملون الصالحات يرعون أخوتهم ويلحظون وحدة صفهم، ويعتصمون بحبل الله جميعًا، فلا تفرقهم الأنانيات، والصوالح الخاصة، ولكنهم يذكرون كيف جمع الله أوائلهم بالإسلام من فرقة، وألف بين قلوبهم من شتات فأصبحوا بنعمته إخوانا، يوحدون الله، ويفردونه بالطاعة، ويقصدونه فى حوائج دينهم ودنياهم دون سواه، مؤمنين بأن توحيد الله ووحدة الكلمة هما دعامتا العزة فى الدنيا والفوز برضوان الله يوم نلقاه.

فهل تسارع أمة التوحيد إلى ضرورة الوجود.. بوحدة الكلمة؟!

● الطريق إلى الله:

يقول الإمام الجنيد: الطريق إلى الله عز وجل مسدودة على خلق الله تعالى إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ والتابعين سنته، كما قال الله عز وجل. ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...**﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن الحاجة ماسة إلى تدبر آيات الحلال والحرام فى كتاب الله عز وجل، لنمضى فى نورها آخذين ما أحل، الله معرضين عن كل ما حرم، وستجد الله عز وجل يقول: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣].

والآية وإن كانت أجمع ما قال الله تعالى عن المحرمات بعامة فى كتابه، فإننا نجد مثل قول الله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ**

به...﴾ [المائدة: ٣] الآية، وهى آية تؤلف أسفارًا عن حكم الله عز وجل فى كل واحدة من المحرمات فى هذه الآية.

ولا ريب أن الدم «وقد ذكـره الله تعالى فى آية أخـرى بوصف «مسفـوحًا» إن خالط بعض اللحوم مشروعًا، فإنه أشـد شىء لقبول التلوث عندما يتعرض للجو. والميتة قبله ما مـاتت إلا لتمكن الضعف منها أو إصابتها بما نسمـيه حديثًا «أنفلونزا الطيور» ولحم الخنزير الذى قـال فيه العلمـاء الكثير مما ينفـر منه ويصد عنه.. إلى آخر الآية يتصل بـقول الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ...﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية.

إلى آيات كثيرة فى كتاب الله عز وجل، فى الاعـتصام بحبلها أمن وسلامة دين ودنيا. وجل الله الذى يقول: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

* * *

تفسير موجز لسورة الإخلاص

إنهـا سورة تمثل فى المصـحف سطرًا واحد، إنهـا أقصـر سور قـصار المفـصل بإطلاق وإنها تعـدل ثلث القرآن، وهى من كـلام الله الذى لا يقاس بالكم ولا بما يشغل من حيز، إنها سورة الإخلاص.

بسم الله الرحمن الرحيم. . ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾.

والسورة على وجازتها هى سورة العقيـدة بكل ما توصى من توحيد الله وقصده بكل حال، وأنه الأول فلا شىء قبله، والآخر فلا شىء بعده، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

روى الإمام البخارى عن أبى سعيـد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ «قل هو الله أحد» يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ وذكر له ذلك وكأنه تقال السورة فقال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيـده إنها لتعـدل ثلث القرآن»**، أجل إن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، فهى تمثل أهم مقاصده الكبرى وأسمى مرادات الله من إيحاء القرآن إلى خاتم الأنبياء ﷺ. . إنها تجرد العقيدة لله الواحد المقصود بحق فى العـبادة وفى الاستـعانة، وتنزهه سـبحانه وتعـالى أن يكون له مكافئ لا ينازعه فى بعض ذلك ملك مـقرب أو نبى مرسل فضـلاً عن أى إنسان وراء هذين من خلق الله ومخلوقاته. ورحم الله شـيخ الإسلام ابن تيمية فهـو يقول فى كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»: ولم يأمر الله قط مخلوقًا أن يسأل مخلوقًا وإن كان قد أباح ذلك فى بعض المواضع ولكـن لم يأمر به، بل الأفـضل للعـبد ألا يسـأل إلا الله، كما ثبت فى الصحيح فى صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يستـرقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربـهم يتوكلون، فجعل من صـفاتهم أنهم لا يسترقـون أى لا يطلبون من غيرهم أن يرقيـهم ولم يقل لا يرقون وإن كان

ذلك روى فى بعض طرق مسلم رحمه الله فإنه خطأ، فإن النبى ﷺ رقى نفسه وغيره وإن لم يسترق صلوات الله وسلامه عليه. . فالمسترقى طالب الدعاء من غيره بخلاف الراقى لغيره فإنه داع له النبى ﷺ، يقول لابن عباس رضى الله عنهما: «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**» متفق عليه.

وفى وصاة النبى ﷺ لمعاذ: أوصانى خليلى ﷺ بسبع أوصيكم بها: «**وألا أسأل أحدًا شيئًا**».

ولقد كان لسورة الإخلاص أصداء فى نفوس الصحابة، فهذا صحابى كان يكثر من قراءتها فسألوه فى ذلك فقال لهم: إننى أحبها لأنها نسب الله، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبشره بحب الله تعالى له. . وسورة الإخلاص خالصة لله وإن كانت مراده لعباده وأمره الذى بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين، ورحم الله تميم بن باديس فهو يقول:

فكرت فى نار الجحيم وحرها ... يا ويلتاه ولات حين مناص

فدعوت ربى أن خير وسيلتى ... يوم المعاد شهادة الإخلاص

الله أحد لا إله إلا الله وحده، إنها عقيدة المسلم وهى بمنزلة عقل العاقل، وقلب الحى، ووجدان الإنسان السوى، ماذا يبقى لإنسان حُرم من هذه الجوارح جميعًا؟

وهل خاطب الله تعالى عباده أو كلفهم إلا من جهة قلوبهم وعقولهم؟ والذين اضطربت عقيدتهم، واعتل دينهم، وضعف يقينهم فى وعد الله لأوليائه ووعيده لأعدائه لا يبقى لهم فى الخير سهم وإن زعموا أن الثقافة واتساع آفاق المعارف تبلغ بالناس ما يكفى من خلق وسلوك، وأن التربية والرياضة النفسية وسائر الرياضات ترتفع بالأنفس إلى مراتب الأبرار دون ما حاجة إلى التكاليف والعبادات التى مضى بزعمهم زمانها، ولقد يرجى حصول بعض ذلك، وقد يتحقق، ولكنه إن قام كان كسحابة الصيف أو كخيال الطيف لا بقاء لهما، أو كنار القش تعلو صاعدة فى الجو، وتأخذ بمجامع الأبصار هنيهات تكون بعدها رمادًا وكأن شيئًا لم يكن، أو كالهشيم المتراكم إذا هبت عليه الرياح تبدد وتناثر لا يعصمه من العاصفة شىء وهو

فى الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعقيدة المسلم قوة دافعة إلى الصالحات، وتقابلها عقيدة أخرى تفعل المقابل لهذه الصالحات، ومن حولنا أقوام يتحركون بعقيدتهم الباطلة إلى كثير مما يريدون، بينما الذين ينتسبون إلى الدين الحق ربما أخلدوا إلى الأرض وشدهم إليها بعض الغفلة عن توجيهات دينهم، وكأنهم فى واد وعقيدة المسلم فى واد، والذين لا يعيشون بعقيدة حقة يتخلخل واقعهم كل يوم ولا تجتمع لهم كلمة، وأمة التوحيد تجد نفسها دائمًا فى الطريق السوى وهى تقرأ هذه السورة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

فيا أمة التوحيد إن سعادتكم فى «لا إله إلا الله» فى الإيمان بالله، فى الثقة فى الله عز وجل، ولى من اتقاه، فقولوا دائمًا:

لا إله إلا الله، وأنتم تنشطون لعبادة الله الذى يعين من استعانه ويهدى من استهداه، والله الحفيظ عليكم.

* * *

سورة الكوثر

سورة الكوثر إحدى قصار السور، بل هى وسورة الإخلاص أقصـرها جميعًا، فكل منهمـا تمثل فى المصحف سطرًا واحدًا، وإن كـانت سورة الكوثر أقل آية من أختها.

وإذا كانت سورة الإخلاص من خوالص السور لله، وهـى تبرز توحيد الصفات الإلهية، فإن سـورة الكوثر من خوالص السـور للنبى صلوات الله وسلامـه عليه كسورة الضحى والشرح، فكل سورة من هذه الثـلاث تتحدث عن جوانب خاصة وخالصة فى الرسول عليه الصلاة والسلام.. والسور كلها مكية، وقد نزلت سورة الكوثر على رسول الله فى ظروف كان فيهـا صلوات الله عليه أحوج ما يكون إلى تأييد الله وتثـبيتـه لمصطفاه، ومواسـاة ربه وتسليته له فى مـصابين كلاهمـا فادح، فالأبناء الذين كـان المجتمع المكى يتـكثر بهم من قلة، ويعتز بهم من ذلة، ويغدو الرجل فى قـمة الشـرف والمجادة بقـدر ما له من أولاد حـتى قال تعـالى: ﴿**وَمَا أَمْـوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَـرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَـمِلَ صَـالِحًـا...**﴾ [سبأ: ٣٧].

هؤلاء الأبناء يمتحن فيـهم سيدنا رسول الله، فيحتسـبهم عند الله وهم فى عمر الزهور، ويجد القراء فيـهم من آيات كثيرة وعد الله فيهـا الصابرين بجزيل الأجر، وصدق الله العظيم ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ**﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

لكن الشيء الذى هو أفدح من ذلك والذى كان يعتصر قلب النبى الإنسان، إنما هو شماتة قـريش فى مصاب النبى بأبنائه، وغبطتـهم بانفراط عقدهم واحـدًا بعد واحد، واستعلانهم بذلك حتى يقول أحدهم للآخـر لقد بُتر محمد.. ويقولون لا يلبث محمد أن يدركه ريب المنون، وهو أبتر لا عقب له فتعـود الجاهلية أدراجها، وينطوى علم الإسلام.. فنزلت هذه السورة.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر].

ويا لها من ثلاث آيات فيهن أكرم تسلية، وأعظم مواساة، وتوكيد أن الله أعطى نبيه من الخير الكثير الذى لا ينفد، ولكنه يتصل ويتجدد، إنه الكوثر الذى ينتظم الدين والدنيا معًا، والأولى والآخرة على سواء فلا ينتهى بانتهاء حياة النبى، ولا بانقضاء الحياة كلها، ولكنه يلتمع ويتراءى فى الحياة منذ اختص الله به مصطفاه ويجده فيما وراء الحياة هنالك عند الله عز وجل يوم يقوم الناس لرب العالمين.

«إن محمدًا صلوات الله عليه رحمة الله للعالمين، ورسالته المتمثلة فى القرآن والسنة ونور وشفاء لما فى الصدور ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم إن وراء هذا الخير الكثير، ذلك الشرف الذى أسبغه الله وأضفاه على مصطفاه، فقد سماه الله الرءوف الرحيم، وهما اسمان من أسمائه سبحانه وتعالى: وقد شق الله له اسم محمد من اسمه عز وجل كما قيل:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقرن الله اسم نبيه باسمه تباركت أسماؤه، فلا يدخل أحد الإسلام إلا من باب الشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد صلوات الله عليه بالنبوة والرسالة..

ولا يؤذن للصلاة مؤذن إلا بالشهادة لمحمد بالرسالة بعد الشهادة لله جل وعلا بالوحدانية..

ثم هو خاتم المرسلين، وسيد المرسلين، ونبى الأنبياء، وأمته خير الأمم فى الدنيا والآخرة.. فإذا وقفنا عند هذا المدى من الخير الكثير الذى أعطاه الله لنبيه عجزنا عن حصره وإحصائه، فإنا نراه فى القرآن والسنة الصحيحة، صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى يوم يقول كل نبى

«نفسى نفسى» ونراه أول داخل إلى الجنة، وأوفر خلق الله حظًا منها، وما أعظم الجنة من عطاء، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولقد حصرت الأحاديث الصحيحة «الكوثر» فى أنه نهر فى الجنة ووصفه بما تكاد القلوب تطير شوقًا إليه حيث هو فى دار المقامة، لكن حبر هذه الأمة عبد الله ابن عباس قال «الكوثر الخير الكثير».

يقول الإمام ابن تيمية فى تفسير السورة: «وهو من الخير الكثير الذى آتاه الله فى الدنيا والآخرة، فمما أعطاه فى الدنيا الهدى والنصر والتأييد، وقرة العين، وشرح الصدر، ونعيم قلبه بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمه نعيمٌ فى الدنيا ألبتة... وأعطاه فى الآخرة الوسيلة والمقام المحمود، وجعله أول من يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه فى الآخرة لواء الحمد، والحوض العظيم فى موقف القيامة إلى غير ذلك، وجعل المؤمنين أولاده وهو أب لهم، وهذا ضد حال الأبتر الذى يشنأه ويشنأ ما جاء به» وقال: «والمقصود أن الكوثر نهر فى الجنة، وهو من الخير الكثير الذى أعطاه الله رسوله ﷺ فى الدنيا والآخرة».

.. إن قول الله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر» امتنان إلهى على النبى بما آتاه مولاه من بره الباقى وكرمه المتجدد، وإذا كان الآباء يصنعون لبعض الأبناء مجدًا، ويصنع بعض الأبناء لآبائهم مجدًا، فإن الله قد أغنى نبيه عن هذا وذاك بما اختصه به وآثره مما أسلفنا من عطاياه، وإنسان هذا شأنه، صلوات الله عليه -جدير بأن يكون لربه ذاكرًا ومولاه شاكرًا، أفلا ترون الله يعلمه ذلك على ما فطر هو عليه صلوات الله عليه فيقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

إنه صلوات الله عليه جاء بالإسلام من لدن مولاه ليقضى على الشرك وآثاره فى الأنفس والآفاق، فى العبادات والأخلاق، فى السلوك والتصرفات جميعًا، وها هو ذا يأمره مولاه بأن يجرد صلاته لله، فالصلاة عماد الدين فإذا أخلصها المؤمن لربه انطلق منها بالإخلاص والتجريد والصدق لما وراءها من التكاليف.

وأمره بالنحر مجردًا لله وحده عن أدنى حظوظ الشرك، ليأخذ منها الفقير حظه ونصيبه المقدور له فى أموال ذوى المال بغير منٍّ أو تكدير، كى ينطلق المؤمن الذى جرد عمله لله فى النحر إلى ما وراءه من الأعمال بعمل مقبول، وتصرف رفيع جليل، وسعادة بالبذل لا يحسها البخيل ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ له...**﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وما أكرم ربنا وأعظم حفاوته لنبيه، وهو يرطب نفسه ويثبت فؤاده من لغو اللاغين، بأنه أبتر، وتربص المشركين به ريب المنون، حتى يكونوا وكأن لم يكن رسول، ولم تكن رسالة.. حين يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ فلست أنت الذى لا عقب لك كما يقول مبغضوك وأعداؤك أعداء الله، وأعداء الحق.. ولكنهم فى الحقيقة هم المبتورون المقطوعون عن الخير فى حياتهم، وها هم بعد مماتهم لا يذكرهم أحدٌ إلا بما هم أهله من صغار وزراية واحتقار.

يقول الإمام الشوكانى فى تفسير الآية: أى أن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعم خيرى الدنيا والآخرة، أو الذى لا عقب له، أو الذى لا يبقى ذكره بعد موته. وظاهر الآية العموم، وأن هذا شأن كل مبغض للنبى ﷺ، ولا ينافى ذلك أن الآية نزلت فى العاص بن وائل أو غيره، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

يقول الإمام ابن تيمية «إن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة، وما يجتمع للعبد فى الصلاة لا يجتمع له فى غيرها من سائر العبادات كما عرفه أصحاب الهمم العالية والقلوب الحية.. وما يجتمع له فى نحره من إيثار الله، وحسن الظن به، وقوة اليقين والوثوق بما فى يد الله أمر عجيب، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص.. وقد امتثل النبى ﷺ أمر ربه، فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر، حتى نحر بيده فى حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة، وكان ينحر فى الأعياد وغيرها..

صلوات الله وسلامه على من اختصه فى هذه السورة بعطاياه، وأمره بالتزام تقواه، وذم من أبغضه، وحقت من عاداه حتى نلقى الله.

وإنى لأتساءل أيكون (أبتر) ذلك الرسول الذى يذكره المسلمون فى شهادتهم لله عز وجل مع ربه فى صلاتهم بالوحدانية.. وتبقى رسالته فى مد موصول يستقبل بابها فى روسيا وأمريكا وفى كل أقطار الدنيا من الخاصة ومن يسمونهم العلية من أطباء وساسة وأصحاب فكر من الرجال والنساء على السواء، ونحن نسمع فى هذا الشهر (صفر ١٤٢٧هـ) أن عددًا من النسوة فى روسيا الملحدة قد أخذهن رفق الإسلام ونوره فكن مددًا لأمة ذلك النبى الذى دعوه (الأبتر) ظالمين عادين.

• تشريع الأضحية وماذا يمكن أن تؤديه فى تربية المسلم؟!

استهدف رسول الله ﷺ من أوائل أيام الدعوة، توحيد الله، ووحدة كلمة الأمة، بأن يعتصم المسلمون بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا.

ولقد دعمت العبادات الإسلامية والتوجيهات النبوية هذين الهدفين، فأكرم ما يكون الإنسان حين يؤمن بالله، ويعطيه ولاءه كله، ثم وهو يرتبط بعد ذلك بإخوانه حتى يكون وإياهم على قلب رجل واحد، كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وسبيل هذه الأخوة فى الله أن يتعاون المسلمون ويتضامنوا ويتواصلوا، ويعطى الغنى الحق المعلوم فى ماله لإخوانه فيسترق بذلك قلوبهم، ويستوجب حبهم، ويكفكف دموعهم، ويشفى مواجعهم.. لقد أعطاهم ما لا يفنى فى عشية أو ضحاها فأعطوه به ودًا يبقى، وإخاء يقوى، وأكرم بهما من عطاء.. وتأملوا من آيات سورة الحج هذه الفقرات:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ .. حتى قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

وقال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

لقد كانوا فى الجاهلية يتحرجون من الأكل مما أهدوه للحرم، فأباح الله للمسلمين ذلك، فيما جاء من قول الله فى الآيتين ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

إن الأكل هنا جبر لخاطر الفقراء، من سأل فيهم ومن لم يسأل، وإذابة للحواجز التى تصنع فى بعض الأنفس، ودلالة على حقيقة الإخوة التى لا يضائل منها فقر أو قلة. والأكل الذى تكرر فى الآيات أسلوب إلهى فى دعم المودات، وتوكيد ما بيننا من صلات. والأضحية للمقيم والهدى يُساق للحرم من حر المال وشريف الكسب ثمرة إيمان وأثر يقين فى أن ما عندنا يفنى، ويبقى ما عند الله الذى يجزى المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين.. ومن طابت نفسه بالمال يبذله فى الأضحية والهدى ابتغاء رضوان الله وجميل مثوبته، هان عليه أن يبذله فى سبيل دينه ووطنه، رفى سبيل حماية الحق، ونصرة الإخوان، وفى ذلك ما فيه من تربية المسلم على طاعة الله وعلى الفضائل والكمالات، وقيام المجتمع المسلم الذى يتواسى فيه المسلمون ويتعاونون على البر والتقوى.

والمسلم يرجع بالأضحية يبذلها إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فتهون النفس بعد بذل المال فى مرضاة الله وطاعته والاستجابة لأمره.. ويا لها من دروس يفيدها المسلم من مشروعية الأضحية.

* * *

آية الحقوق العشرة!!

بلغ الإسلام القمة وجاوز المدى، وهو يفرض آدابه، ويضع قواعده للتعايش الصحيح فى حياة تسودها الرحمة، ويظلها الأمن والسلامة، إنه يسارع إلى ذلك، فور إرسائه أساس الإيمان بالله والقيام بحق عبادته يبتغى بها المؤمنون وجهه ويستنجزون وعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

فلنتأمل معًا قول الله فى آية الحقوق العشرة ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

إن الله يكشف فى آية واحدة هذا الجانب الراشد من دستوره الخالد، فهو يوجب الإيمان والعمل ويقرن العقيدة بثمرتها ويقيم البناء ويبين سبل الانتفاع به، نرى ذلك كله منتظمًا فى هذه الآية وفى آيات القرآن الكثيرة التى لا ينفرد فيها الإيمان عن العمل على وجه يؤكد أن الإيمان بدون عمل ضلال، وأن العمل بغير إيمان مضيعة وخيال. وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد الذى يقول «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وأن أقوامًا غرتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لوا أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**».

ويقول الإمام على كرم الله وجهه «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

ويقول حجة الإسلام الغزالى «العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم كيف يكون»؟!

إن الإيمان بالله وأداء طاعاته سبحانه هى حقه على عباده، بعد أن خلقهم فأحس الخلق، ورزقهم فضاعف الرزق، وهداهم للإيمان وزينه فى قلوبهم وكره إليهم

الكفر والفسـوق والعصيان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الذاريات: ٥٦- ٥٨] ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾ [الزمر: ٢، ٣].

روى معـاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «**أتدرى ما حق الله على عـباده؟! قلت: الله ورسولـه أعلم. قال: حق الله على عـباده أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدرى ما حق العباد على الله إن فعلوا ذلك؟! قلت الله ورسوله أعلم -قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار**».

وعبادة الله تعبيـر جامع لإفراد الله بالطاعة، والائتمار بما أمـر به من خير، وما نهى عنه من شر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وما أكرم الإنسان حين يراه الله حيث أمره، ولا يـجـده حيث نهاه.

* * *

فى حضرة القرآن الكريم

كان إقبال رمضان فى عصور الخير، يصبغ الحياة كلها بالخير والبركات والتشمير للطاعات، والاشتغال بكل ما يعتبر ذكرًا لله تعالى.

وقد رووا أن إمام اللغة والأدب أبا عمرو بن العلاء كان إذا دخل رمضان هجر الشعر والأدب واشتغل بالقرآن الكريم يتلوه وينعم نظره فيه، ويقدم من عطائه الذى لا يتناهى ما يعينه الله عليه للمسلمين.

وعلوم الأدب والشعر واللغة تثرى الإفادة من القرآن، ويطل بها المؤمن على مراد الرحمن من كلامه، وقد كان كثير من ألفاظ القرآن لا يتضح معناه لرجل كعمر بن الخطاب رضوان الله عليه وهو العارف بلسان العرب، الذواقة لأقوالهم، فربما أعانه معنى كلمة من كلماتهم على كلمة من كتاب الله تعالى.. رووا أن أبا حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه توقف فى قراءته عند قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ..﴾ [النحل: ٤٧] وكان يحدث المسلمين فى خلافته، ولم يتفهم لمعنى الكلمة وتداركه الله برجل جاء من البادية لتوه يقول: يا أمير المؤمنين «تخوفنى مالى أخ لى ظالم» فقال سبحان الله.. تخوفنى تنقصنى، أو يأخذهم على تخوف.. أى على تقص من غيرهم.. وكان ذو النورين عثمان بن عفان رضوان الله عليه يديم النظر فى المصحف وهو الإمام جمع الله به المسلمين على إمام مبين، بعد أن كان القرآن متناثرًا فى صحف عند أم المؤمنين حفصة من خلافة أبى بكر إلى اجتماعه فى صدور بعض أصحابه وسألوا عثمان: لم تديم النظر فى المصحف؟ فقال: «إنه كتاب ربى وسيدى وحق على العبد إذا جاءه كتاب سيده أن يتأمله» والقرآن جدير بالاهتمام حفظًا وتلاوة ودراسة وائتمارًا بأوامره، وانتهاء عن زواجره وانتفاعًا بعظاته، وإفادة من معطياته وتوجيهاته.. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

إنه منهل العقيدة، ومنهج العبادة، ودستور السلوك، وكتاب الأزل والأبد، وجامع الدنيا والآخرة، يرشد الحاكم، ويؤنس العالم، ويحفز العامل، ويحفظ بناء الأسرة، ويقدم حوافظ المجتمع.. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠]. وإن الآية من آياته، بل الفقرة من فقراته، لترجح بحكمة الحكيم، وعلم العليم فى الحديث والقديم.

وقد كان أكثم بن صيفى حكيم العرب فى الجاهلية وتأخر إسلامه على رغمه، فقد حال دون ذلك نفر من قومه، لكنه آخر الأمر أزمع أن يأتى رسول الله ﷺ أو يختار من يوفده إليه ليعودوا من عنده بما يسمعون منه وأرسل رسوليه إلى النبى ﷺ فسألاه من هو؟ وما هو؟ فلم يزد فى الأول عن محمد بن عبد الله ولم يزد فى الثانى عن رسول الله ﷺ، وسمعا منه القرآن وعادا بما سمعا من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩]...

فقال أكثم لقومه: «أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل وكونوا باتباعه رؤوسًا قبل أن تكونوا أذنابًا... فوالله لو لم يكن هذا الذى يدعو إليه محمد دينًا لكان فى أخلاق الرجال حسنًا».

وفى دنيا الناس من الشواغل الصارفة عن الأمن والاستقرار مالابد لهم معها من القرآن يطمئن النفوس، ويثلج الصدور ويفعم بالسكينة الأرواح.

يروى الإمام البخارى حديث أسيد بن حضير رضى الله عنه: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس - تحركت فى مدار قيدها - قال: فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريبًا، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره، رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها،

فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال: **اقرأ يا ابن حضير.. اقرأ يا ابن حضير.** قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحى، وكان منها قريبًا، ورفعت رأسى فانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلمة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها. قال رسول الله ﷺ: **أوتدرى ما ذاك؟** قال: لا قال: **تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**».

إن القرآن سجل عزتنا، وإنه هويتنا ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ**﴾ [الأنبياء: ١٠] ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾ [الزخرف: ٤٤]، فهل نقرأه واعين ونتلوه متدبرين كما قال رب العالمين: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩].

* * *

الاتعاظ والاعتبار بآثار من مضوا

قل للذى تاه فى دنياه مفتخرًا ضاع افتخارك بين الماء والطين
إذا تفقدت فى الأجداث معتبرًا هناك تنظر تيجان السلاطين

السلاطين الذين يديرون للدين ظهورهم وما أكثرهم، يتبقى فى وجدان كل حى تقدير وإعزاز لمثل صلاح الدين، ومن تقدموه وجاءوا على أعقابه فى أقطار وأعصار وآيات القرآن التى لا نحصيها ههنا عدا، فوجب على المسلمين أن يسيروا فى الأرض للاعتبار والاتعاظ بما كانت عليه وكان أهلها من علو وعمران، وملك وعزة شأن، وما صارت إليه، وصاروا هم بين الجنادل والحفر وليس لهم من سلطان الأمس إلا الخسران، فى مراحل زمان عرفت من حَكَمَ فبر وأقسط وأصلح، وعاش بجميل الأحدوثة ولسان الذكر وسيعيش على هذا النحو حتى يجمع الله الخلائق، ويجزى المؤمن الصادق والكافر والمنافق ويكون المنافقون كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

وإذا كان الكفار يجتمعون للبادرة الأولى إذ يجتمعون لإيجاد البادرة التى يبررون بها احتشادهم لاستئصال شأفة الحق، والتعفية على أهل الحق، أو القعود لهم كل مرصد فى شتى اتجاهات الحياة بغفلة أهل الحق أحيانًا عن ربهم ودينه، ويجد الكافرون لهم أعوانًا ممن يحصون على الإسلام وما هم منه فى شىء، أو من غير المسلمين ممن أسخط عليهم عز وجل المسلمين ما لم يقاتلوا فى الدين وتكون ألسنتهم معنا وقلوبهم مع عدونا إلى المدى الذى يكونون فيه بعد، ألسنة وقلوبًا لعدونا جهرة وفى غير اعتدال، وصدق العظيم ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**

﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وما أكثر المنافقين الذين يجدون اليوم فرصتهم فى المجتمع المسلم، والذين سماهم الإمام الجليل أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى الدمشقى فى أمهات كتبه وسلط عليهم الأضواء بضلالهم حتى لتراهم عبر العصور، وبخاصة إذا واتاهم بعض السلطان، ودان لهم -إلى حين- الزمان- كما أسلس ابن تيمية لقلمه العنان للتعريف بهم وبخطرهم.

إن آيات القرآن لتوجب إنعام النظر فى آثار من مضوا للاعتبار كما أسلفت والتأسى، وإتمام ما بدأوا من الصالحات، واجتناب ما خروا فيه إلى الأذقان من ضلال وخسران، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨]. وقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، ولا أستقصى مثل هذه الآيات، لأعرض طرفًا من ذكر القرآن لنهاية الفراعنة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ١٧-٢٩].

وأود أن نرجع الطرف كرات، والذهن مرات فى قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لنعرف أن الطغاة يوم تتنفس بمهلكهم الأرض

الصعداء، وتستريح من ثقل ظلمهم، يروحون دون أن يتركوا أثرًا من الصالحات، ولكن أممهم يجدون فى كل واد أثر من ثعلبة، قال الإمام ابن كثير فى تفسيره «لم تكن لهم أعمال صالحة صعدت فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم» وأورد آثارًا صوادق فى هذا المعنى، وشروحًا تتفق وما بين يديك كل الاتفاق، فهل يزن أقوام أعمالهم والزمن متاح والفرصة ممكنة للصلاح والإصلاح قبل أن يقول قائلهم غدًا ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦].

* * *

الحياة لا تخلو من هموم

أصحـاب الحق يلقون الصـعاب والمشـاق تتعاقب عـليهم، ولكنها لا تثنى من عزيمتهم على إعلاء راية الحق ودعوة الآخرين إلى رحـابه الحانية ما بقى فيهم قلب ينبض وعين تطرف . .

والمسلمون من حـول رسول الله، وأحفـادهم وذراريهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها امـتداد صالح لأوائلهم فى صدق الإيمان والولاء له والجهـاد فى سبيله وافتداء دعوته بكل مرتخص وغـال، مستعذبين العذاب ومستـمرئين الصعاب حتى يحق الله حقه أو يلقوا الله شهداء دون ذلك . .

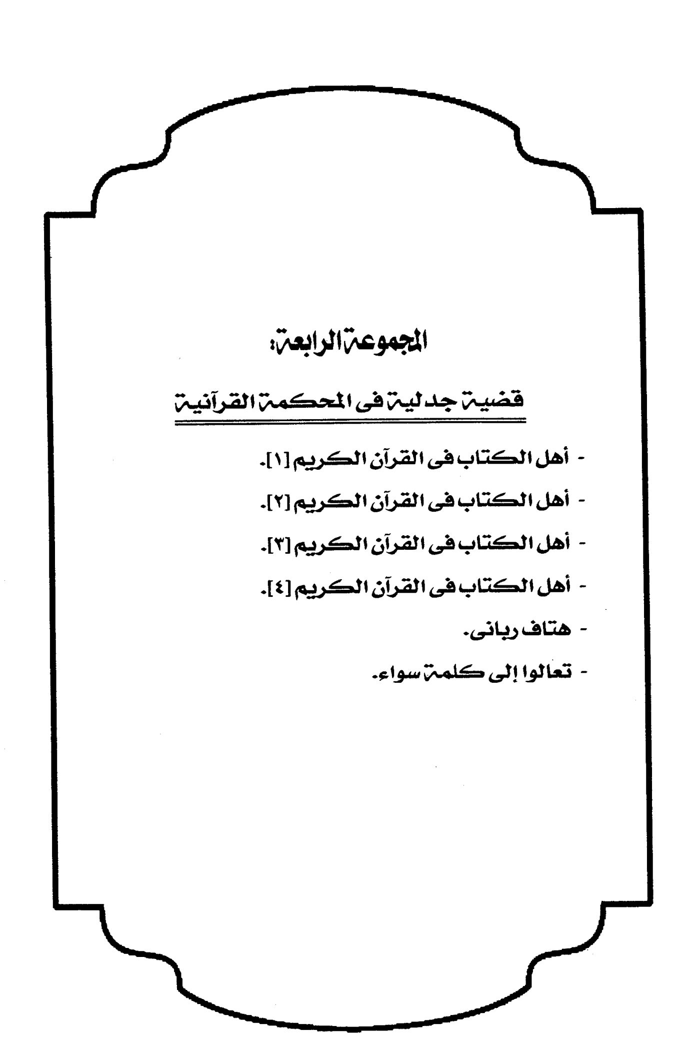
إن حياة الحى لا تخلو من هموم، والفارغون وحـدهم هم الذين لا ينهضون بتبعة، ولا يشعرون أنهم مـسئولون عن واجب يؤدونه ويدفعون به عـجلة الحياة إلى تقدم وازدهار، وأصحـاب الهمم العاليـة يأبون أن يضام دينهم، أو يســام الخسف وطنهم، أو يهون فى أى جانب من جوانب المجتمع الإسلامى إخوانهم، ويذودون ذلك كله بما يملكون من وسع وإمكان، ولا يزيدهم كيد الكائدين، ولا تآمر المتآمرين إلا صمودًا فى وجه الباطل، وتأهبًا لدحض غاراته وقهر غزواته، وإصرارًا على أن يحـيوا بالحق، أو يصنعوا من أشـلائهم وجمـاجمهم جـسورًا للذين يواصلون المسيرة من بعدهم عـلى طريق الحق. الطريق الذى يجتازه دائمًا أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجـرات: ١٥] . .

والأيام الحاسمة التى تعيشها أمتنا تبرز للدنيا أصالة معدننا، وقوة إيماننا، وصدق إدراكنا وتصورنا للظرف القاسى الذى تتألب فيه علينا قوى الشر، وتتنادى من وراء صنيعتـها إسرائيل للبطش بنا، وطمس معالم أثمن حضارة أرسى قـواعدها محمد

صلوات الله عليه بالإسلام وروى القرآن الكريم والسنة المطهـرة أشجارها حتى آتت أكلها بناء وعلمًا وعملاً وسلوكًا وتشريعًا.

إن الأيام الحاسمـة التى يواجهها أصحـاب الحق فى بلاد الإسلام وديار العروبة تردها قبل كل شىء إلى الله وإلى دينه وهداياتـه الرشيدة فى كتابه المحـفوظ وسنة نبيه وحيـاة سلف هذه الأمة الذين فهموا الحيـاة على حقيقتها وعـرفوا أنها سجن المؤمن وجنة الكافر وأنها -وهى كـذلك- منطلق المؤمنين إلى العزة والكرامة اللتين لا سبيل إليهما إلا بجهاد الذين يضعون أنفسهم بغيًا وعدوا على رقاب العباد، وقد عقدنا مع الله عـهد الجهاد إلى النصـر أو الشهادة، وقدّر كل مؤمن دوره فى خط المواجهة أو فى الجبهة الداخلية الصامدة المتراصة الجادة فى حقول الإنتاج، فى سهر ويقظة لحماية الحق من كل متربص به ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* * *



المجموعة الرابعة:

قضية جدلية فى المحكمة القرآنية

- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [١].
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٢].
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٣].
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٤].
- هتاف ربانى.
- تعالوا إلى كلمة سواء.

أهل الكتاب فى القرآن الكريم [١]

المسلمون يندفعون من يومهم إلى غدهم بقوة يستمدونها من ماضيهم؛ فلا انفكاك لهم بحال من ذلك الماضى. وإن قال شاعرهم:

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

ذلك بأن المسلمين يرتبطون فى عقيدتهم وعبادتهم ومقومات حياتهم بدينهم الذى ينطق به عليهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وسلوك أولئك الذين خرّجتهم مدرسة النبوة، وكانوا بشهادة النبى صلوات الله وسلامه عليه من بعده أهل الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة..

والله تعالى يرد مصطفاه إلى سيرة من تقدمه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فيقول:

- ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ...﴾ [هود: ١٢٠].

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ...﴾ [يوسف: ١١١].

- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ [الممتحنة: ٤].

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ...﴾ [الممتحنة: ٦].

ولقد ذكر الله من رسله وأنبيائه من ذكر فى بعض الآيات(٨٣-٨٧ من سورة الأنعام)، ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

وبقى رسول الله ﷺ للمؤمنين كما قال ربهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ [الأحزاب: ٢١].

«إن التاريخ خير معلم، وأصدق ملهم، وتلك حقيقة خلصت لأوائلنا حتى قال أحمد شوقى رحمه الله:

وإذا فـاتك التـــفـات إلى الماضى ... فـقـد غـاب عنك وجـه التـأسى

والشيخ رشيد رضا يقول فى الجزء الأول من تفسير النار:

«علمنا الله هذا... الاهتـمام بالتاريخ والاعـتبار بحـالات الأولين بما قيل من أخبار الأمم، وأنعم على أمتنا التى لا تختص بشعب ولا جنس -بهذا القرآن وكان لهم به نعم لا تحصى، تعرف من الكتاب والسنة، منهـا أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصـبحوا بنعـمته إخوانا، ومنهـا أنهم كانوا مسـتضعـفين فمكن لهم فى الأرض وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجـعل لهم السلطان عليها، ومنها أنه جعلهم أمة وسطا لا تفريط عندها ولا إفراط، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا، والذين قصروا وفـرطوا، ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألوانا من البلاء والنقم، بعنوان الأمة، فـإن التتار إنما نكلوا بها وتبروا ما علوا تتـبيرا، لأنها الأمة الإسلامية، ثـم زحف عليها الغربيون أيام الحروب الصليبيـة، وجاسوا خلال الديار لأنهـا الأمة الإسـلامـية، ثم إن الـفتن لا تزال تحل بديارها وتنقـصهـا من أطرافها، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الأمـة الإسلامية، وقد مرت عليها قرون وهى لا تعتبر بما مضى ولا تتـربى بما حضر، بل جهلت الماضى فحارت فى الحاضر لا تعرف سـببه ولا المخرج منه... والمسلمون فى الحبـشة وإريتريا ولبنان وغيـرها فى بلاد عربية وآسيـوية يواجهون كـرات يهودية وصليبـية غاشمـة تعمل بضراوة وغـباوة كـذلك لاستئـصال شأفـة الإسلام والتـعفيـة على آثار المسلمين، ويحاول أمثـالهم فى أقطار عزيزة مثل ذلك، ويقولون مـستخفين تارة ومـستعلنين تارات: عودوا إلى بلادكم فى الحجاز، ناسين أن الفتح الإسـلامى بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه كان رحمة وحياة لمن لا ينصفون الحق من أنفسهم، وليسألوا

التاريخ عن أعدل فاتح وعن الرومان الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من جلودهم نعالا، ومن الشعور حبالا قبل أن يكرم الله مصر بالإسلام..

وماذا أذكر ههنا، وماذا أدع؟!.. إن اذاعة صوت أمريكا منذ ليال تقول إن تحالف الكتائبيين والشمعونيين اضطروا خمسة وسبعين مسلمًا فى بلدة الخيام فى جنوبى لبنان إلى الالتجاء إلى المسجد ثم قتلوهم عن آخرهم فى بيت من بيوت الله. ويذيع ذاك صحفيان يهوديان، والدم يقطر من أيدى الجميع بعد مذابح صبرا وشاتيلا والمسلخ فى بيروت وفى قرى جنوب لبنان وفى فلسطين المحتلة.

أيكون ذلك العمل إنسانيًا مع قوم يحمى دينهم معابد أهل الكتاب وشيوخهم ونساءهم وصغارهم؟

حاش لله والمثل: وهو أدل ما يساق فى هذا السياق أن ما يرويه ماضى أهل الكتاب الذين بقيت حجة القرآن الكريم قائمة عليهم منذ كانوا تتواتر عليهم أنعم الله ولا يذكرونها ويكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، قال تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ...﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ [آل عمران: ٢١].

والآية إخزاء إلهى لأبناء هؤلاء الآباء حين رضوا ذلك من أوائلهم وذكروه وباهوا به، كما قال الإمام ابن الجوزى وغيره من المفسرين.

ويهودهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ...﴾ [البقرة: ٩١].

وما قتل هؤلاء أنبياءهم فى ميادين القتال ولكن غيلة وغدرا فهم أحقر وأدحر من أن يلاقوا الرجال لقاء الأكفاء أو يعاملوا غيرهم معاملة الشرفاء وأحفادهم فى الأرض المحتلة وحيث كانوا على غرارهم، وقد أشبع هذه الحقيقة بجلاء الشيخ محمد أمين الشنقيطى فى عرضه لقول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا...﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فقد انتهى من بحث طيب نظر فيه مع هذه الآية إلى وعد الله بنصر رسله إلى أن قال (لم يقتل رسول فى جهاد) كما جزم به الحسن وسعيد بن جبير والزجاج والفراء وغير واحد) جزء (١) ص٢٥٨ «أضواء البيان».

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن بنى إسرائيل قتلوا ثلاثة وأربعين نبيًا من أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلا من عبَّادهم فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعًا فى آخر النهار. وفى رواية ذكرها ابن الجوزى أنهم قتلوا هؤلاء الأنبياء ثم عادوا إلى سوق بقلهم!!

وهرقل ملك الشام وكان أكبر علمائها يومئذ بالنصرانية، لم يلبث أن سمع من أبى سفيان ما سمع عن رسول الله حتى عقب عليه بما يشهد بإنصافه وفي إسلامه كلام كثير فقد قال:

«إن يكن ما تقول حقًا إنه لنبى، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى»..

ودعا هرقل بكتاب قد بعث إليه رسول الله ﷺ فقرأ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين «و» ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...﴾ [آل عمران: ٦٤].

فلما قرأه ثار لغط القوم، وانتهى به الأمر إلى أن جارى قومه، وحسبنا أن نستذكر أقواله وهى تبرز صدق فهمه وإنصافه واعترافه بنبوة رسول الله ﷺ. والحديث فى الصحيحين، ويستكمل فى الجزء الأول من الفتح ص ٣٥. والرجل لم يمزق رسالة رسول الله إليه كما فعل كسرى فمزق الله ملكه.

والقرآن الكريم يجدد بصدر سورة الروم موقف الرسول من انتصار فارس على الروم حتى جاء وعد الله وفرح المسلمون بنصرأهل الله على الفرس.

وفى كل يوم جديد تشرق نفوس أقوام بحقائق الإسلام فى شرق وغرب، ويجد الدين الحق طريقه إلى عقول وقلوب، لم يعوزها فى ذلك الفتح الجليل إلا مجرد التجرد والسلامة من التشبث بالباطل وترديد ما قاله الأولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١-٢٢].

ومؤلفات الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد وتصريحاتهم وحفاوتهم بالإسلام، هى بسبيل من مشاعر من ذكرنا ومن لم نذكر عن رفق الإسلام منذ كان دون أن يكون من وسائله خوادع الحس ومغريات الجنس وشهوات المادة وزخارف الدنيا وما يقوم وراء الأسوار الصفيفة الشامخة فى صروح الكفر فى أقطار وديار، لا أحسبهما يخفيان حيالهما أجزاءً من هذه التى تتخذ مع من يعملون فى وضوح الحق السفر الصريح. ذلك هو الحق وليس من قبيل الحديث عن النفس، والله أعلم بنا من أنفسنا ...

هذا الذى يتواثب على الذاكرة من ذكريات العمل للدعوة الإسلامية مما نتذكره بعون الله بعد حين.

وعلم الله أننا كنا بانطلاق من روح الإسلام وسماحته ننشط لما يلقيه على الكواهل غير المسلمين من أمورهم المعاشية ونرفعها إلى المسئولين بقدر ما نعرف أنها حق لهم، وكنا نرد عجب المتعجبين من القيام بواجب إنسانى لهؤلاء الناس بأن من البر أن لا تخذل من قصدك لحق يعتقد أن فى استطاعتك أن تنهض به، غير منفعل بالنظرة الضيقة فى إسداء الخير لدين أو صحبة أو قرابة، والمثل الذى يحفظ إلى ذلك من أمثال لا تحصى فى دين الله -قول عبد الله بن عمر صاحب رسول الله ﷺ «**وابدأ بجارنا اليهودى**» يوم أمر أحد غلمانه بذبح شاة والتصدق فى جيرانه.

إن الله وصف المنافقين بأنهم ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البقرة: ٩] وأنهم لم يؤمنوا كما آمن الناس، وقد بلغوا فى عتوهم مبلغا قالوا معه ﴿**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**﴾ [البقرة: ١٣]وأنهم. . ﴿**إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ [البقرة: ١٤] فوضعهم الله فى مواضعهم الحقة وضرب فيهم الأمثال وتوعدهم بسوء المآل، وأورد العليم الخبير من صفاتهم فى الجحود وكفران الإحسان بعدما استهدفوا من نكال آل فرعون الذى نجاهم الله منه، وقالوا أرنا الله جهرة، وحاشاه أن يكون كمثله شىء وأن تدركه فى الحياة الأبصار، فأخذتهم الصاعقة ببغيهم ثم بعثهم الله أحياء بعد موتهم لعلهم يثوبون إلى رشد فيما يقولون ويعملون، وتابع العليم بهم وبمن خلق إحسانه إليهم، فظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى خير ما يؤكل غذاء وحلوى، وأمرهم سبحانه أن يلتمسوا العيش رغيدا فى بيت المقدس أو فى أدنى منزل منه، فما أطاعوا أمر الله ولا اهتدوا بهداه، وكما اتصلت فيهم أنعم الله فجحدوها تابع فيهم سبحانه أخذه وعذابه

فمـا نفعتـهم هذه ولا تلك ولا أجدى عليـهم عطاء ولا ابتلاء، فكَشـفوا عن طبيعة فيهم هابطة.

والآيات من سورة البقرة ما تزال تبدى من خلائق القوم -يهود ونصارى- عجبًا يضاعف الحاضر من غرابته، وهو يوجب أن نكون أيقاظا حول الحق الذى اقتضت مشيئـته تعالى شأنه أن نذود عنه ونحمى حماه مـسترخصين فى ذلك الأنفس حين تتعين فداء.

وفى دنيا الناس باطل يسـتطيل ويستهدف الإسلام، ويتكتل مـن حوله مبطلون ليس معهم عليه دليل ولا لهم فيه حق.

* * *

أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٢]

إن الذين يستهدفون جلاء حقيقة إلهية فى كتاب الله الكريم، أو إبراز قضية من قـضايا السنة المطـهرة، يمضـون إلى غايـاتهم فى نور القرآن والسـنة، غيـر ملقين أسمـاعهم لصيـحات باطل تتردد فى فـترة من فتـرات الزمان، أو فى أى مكان، آخذين ذلك الأدب من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، والله تعالى يقول لمصطفاه:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولقد كان النبى ﷺ فى ذلك القدوة الحسنة لصحبه، حتى قال تعـالى فيهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال فـى خواتيم سـورة الفرقـان من صفـات عباد الرحـمن ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

يمضى المسلمون إلى غاياتهم النبيلة لا يزايلون آدابهم التى توارثوها جيلا عن جيل، وقبيلا فى أعقاب قبيل، من كتاب ربهم وسنة نبيهم، القولية والعملية على سواء.

«ولو أنهم ردوا منكر القول وزوره بحجة الحق، وقوة الصدق ما اعتدوا أبدا ولا جاوزوا مشارع الصواب» قال تعالى:

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النسـاء: ١٤٨]. ولكننا نرجـو عفـو القادر الذى يملـى للظالم حتى إذا أخـذه لم يفلته.. وهو تعالى يقول.. ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

ولقد قال أحدهم لابن عباس رضى الله عنهما: هل علىَّ من جناح إن آخذت من ظلمنى؟! فقال: لا. ثم تلا قوله تعالى:

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

وإنى لأذكر، كأن ذلك الساعة، أننى كتبت من قرابة ثلاثين عامًا كلمة فى مجلة «نور الإسلام» التى كانت وما تزال تصدرها إدارة الوعظ فى الأزهر. وكان عنوان الكلمة «الجامعة الإسلامية.. بعد الجامعة العربية» وكانت الجامعة العربية وليدة ما تزال فى السنة الرابعة من عمرها تقريبا، وكانت الفرحة بقيامها أملا فى إمكان جمع الصف الإسلامى وتوحيد أممه وشعوبه فى جامعة إسلامية، وكان الجو الذى كتبت فيه بحثى قبيل موسم الحج فى ذلك العام، فاسترعيت الانتباه إلى إمكان جمع شتات أمتنا الكبرى التى تجتمع فى الصلاة خمس مرات فى كل يوم وليلة، وتجتمع فى الأعياد على نحو أظهر وأبهر، وتجتمع فى فريضة الحج من كل فج عميق فى مهد التوحيد ومنزل الوحى، فى عرفات وغيره من مشاهد الفريضة الخاتمة!!

ولم يمض طويل زمن حتى حمل البريد إلىَّ رسالة أحد القسس من بلدة اسمها صفط الخمار بمديرية المنيا يومئذ، وهى فى صعيد مصر، وتبعد كثيرا عن بورسعيد التى كنت أؤدى فيها آنذاك أمانة الدعوة إلى الله، وفى الرسالة من سخائم النفوس، وأوغار الصدور، والضيق بالإسلام الكريم ما أجتزئ منه بمجرد الإشارة إليه، ولون الماء من لون الإناء كما يقولون، وصدق الله الذى يعلم من خلق، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩].

وحسـبى أن أورد هذه العبارة من رسالة القس فـهى أخف ما فيهـا . . قال «أى جامعة إسلامية تريدها يا شيخ معوض؟! عوضك الله خيرا فى الإسلام»!!!

ولقد رددت على الرسالة، ولكن العهد حينئذ، ونظام الحكم، وضيق المسئولين بكلمة الإسلام حالت دون نشر ما كتبت وللبحث والرسالة والرد عليها فرص تحين إن شاء الله مقرونة بذكريات ليس إلى نسيانها من سبيل مع قسس كانت تجمعنا بهم صوالح المناسبات، ولا يعلق بالخواطر من أقوالهم وأفـعالهم ما يثير ريبة أو يدعو لإنكار، وبورسعيد تذكر ذلك العهد وكم ذكرونى به حين كنت بينهم من أيام تجدد عهد الدعـوة فى ظروف طغت فيها مـادية «المدينة الحرة» على طبيعـة الهدوء التى عرف الناس بها بورسعيد من قديم.

أجل إن مـا يتـهاوى إلى الأسـمـاع فى هذه الأيام من برم بتطـبيق الشـريعـة الإسلامية فى بعض أقطارها، واستعـلان أقوام كانوا منذ قريب يدعون إلى «وحدة الأمة» و «وحدة الكتب الدينية» التى تملأ خواء الأنفس، وفراغ الأرواح من سلطان الدين والإيمان اللذين هما فى المناخ الإسـلامى البلسم والشفاء والهـدى والضياء، ولا شىء من ذلك فى غير كلمة الله الأخيرة. . الإسلام!!

استـعلان هؤلاء باستنكارهم لتـحكيم الشريعة الإسـلامية فى برقيـات وبحوث ونشرات صفـراء. . وإعلان الصوم أياما. . لا إلى الموت كما فـعل ويفعل أقوام - يكشف عن خبيئة هؤلاء القناع ويسلط النـور على ما يصطنعونه حينا بعد حين من كيد وحـيلة وخداع، ويضيف جديدا من الشـواهد على أن المسلمين وحدهم- هم صمام السلام، وألوية الوئام منذ أعطى نبـيهم صلوات الله عليه «أهل الكتاب» من يهود عـهده «لهم مـا لنا وعليهم مـا علينا» . . وما يعنيـه قوله «أحب أن يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة».

ولا يحسبن أحد أن هـذه السماحة تعنى الضعـف أو المواربة والخداع، كلا وإيم الحق، وليسأل من شاء التاريخ القريب والبعيد.

ألا لا يجـــهـلن أحـــد علينـا فنجـهـل فـوق جـهل الجـاهـلينا

وما يضائل من حـرصى على متابعة ما بدأته من بيـان «أهل الكتاب» فى القرآن والسنة أن أدعو من ينصف من «أهل الكتاب» إلى استجلاء حرص النبى ﷺ على دعوة القـوم إلى الإسلام ابتداء بالأهم فمـا يليه، وباب بعث معـاذ إلى اليمن فى الصحيـحين وفى مسلم بشرح النووى يورد رواية «**فليكن أول ما تدعوهم إليـه عبادة الله، فإذا عـرفوا الله فـأخبـرهم**. . الحديث» وقـد أورد الإمام النووى كلامـا للقاضى عـياض كـأنه الإلهـام فى هذه الأيام، أو رؤية الغيب مـن وراء ستـر رقيق، قـال النووى: «قال القاضى عياض:

وهذا -ما يـستفـاد من الرواية المذكورة يدل على أنـهم- أهل الكتاب- ليـسوا عارفين الله، وهو مذهب حذاق المتكلمين فى اليهـود والنصارى، أنهم غير عارفين الله تعالى، وإن كانوا يعـبدونه ويظهرون معرفتـه، لدلالة العقل عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف الله تعالى من كذب رسولا».

قال القـاضى عياض رحمـه الله: «ما عرف الله تعالى من شـبهه وجسـمه من اليهود، أو أجـاز عليه البداء أو أضاف إليـه الولد منهم، أو أضاف إليه الصـاحبة والولد، وأجاز الحلول عليه والانتقال والامتزاج من النصارى» .

«أو وصفه بما لا يليق به، أو أضاف إليه الشريك والمعاند فى خلقه من المجوس والثنوية، فمعـبودهم الذى عبدوه ليس هو الله، وإن سموه به، إذ ليـس موصوفا بصفات الإله الواجبة له».

«فإذن ما عـرفوا الله سبحانه، فتـحقق هذه النكتة، واعتمد عليـها. وقد رأيت معناهـا لمتقدمى أشـياخنا، وبهـا قطع الكلام أبو عمـران الفارسى بين عـامة أهل القيروان عند تنازعهم فى هذه المسألة» أ. هـ[1].

وفى القرآن الكريم آيات تنطق بهذا النحو من الفهم بـصراحة، لا يعتريها شىء من الخـفاء أو اللبس، وآيات أخـرى تطول بها أعناق طوائف اتسـموا بالإنـصاف والبراءة مـن اللجاج والخلاف والاعـتسـاف، وذهبوا بحظ وافـر من الإيمان الواثق والإذعان المطمئن للإسلام.

(١) شرح الإمام النووى لصحيح مسلم، جـ١ ص١٩٩، ٢٠٠.

وكم نجد اليوم غير أستاذ فى جوانب من شرق الدنيا وغربها، قد خلعوا أردية التعصب للباطل، والتشبث بما تواصى به غيرهم لمجرد أنه مواريث أوائلهم، ونظروا فى القرآن والسنة بتجرد وصدق فى نشدان الحق، فانكشف لهم من خلال الإسلام عقيدة ومنهاج عبادة وسلوك ما صرحوا به ولم يلمحوا، وأعلوا حجته على مأثورهم من معتقدات لا تتماسك أمام النظر السليم والعقل القويم» وهكذا يشق الحق طريقه، ويشرق ويتألق، قاهرا الأوهام وسجف الظلام التى تكتنفه وتعترض بفعل الأقوام مساره.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطى -رحمه الله- فى كتابه «أضواء البيان» جـ١ ص٧٤ عند تناوله لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، ووصى بذلك فى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٨]... ثم عقب رحمه الله على قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ...﴾ [البقرة: ١٣٦] «لم يبين هنا ما أوتيه موسى ولكنه بينه فى مواضع أخرى، وأن ما أوتيه موسى هو التوراة التى نوه عنها بالصحف فى قوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩]- لقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وهو التوراة، «وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما فى قوله ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ..﴾ [الحديد: ٢٧]... إنها ليدٌ بيضاءٌ للقرآن على القوم وهو يسمى كتبهم، ويعرِّف ويشيد بخصائصها فى زمانها.

أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٣]

الذين يستجلون إنصـاف القرآن لأهل الكتاب -يهود ونصارى- باعتـباره الثبت الإلهى الوحيد الذى حفظه الله منذ كان من أن تمتد إليـه الأهواء أو تلحقه مفتريات الأعداء، يزدادون بالنظر الموصول فى الآيات التى نادتهم «يا أهل الكتاب» والآيات التى أخـبرت عنهم بذلك أو باسم «يهـود ونصـارى» أو بصفـاتهم التى تنم عنهم وتدل عليـهم، أو بأنهم «أهل الإنجيـل» كمـا تطالع المتأمل لسـورة البقـرة(١) وآل عمـران(٢)، والنسـاء(٣)، والمائدة(٤) والعنكبـوت(٥) والأحزاب(٦) والحديد(٧)، والحشر(٨) والبينة(٩) وغيرها(١٠) يزدادون يقينًا بأن الإسلام هو دين الله ونعمته التى أتمها على المسلمين، وأن القـرآن كتاب الله حقا وهو يخاطب الأقـوام ويخبر عمن أنصف منهم ومن مارى فى الحق واعـتسف، وآثر هواه على هدى الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ولقد عرف الرسول صـلوات الله عليه اليهود، وشافهـهم أول من عرف وشافه من أهل الكتاب بعد أن هاجر إلى المدينة، وكـانوا على بينة من أمر نبى يُبْعث فى آخر الزمان يعرفـون صفاته وتتحرك ألسنتهم بسـماته ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويتوعدون به -وقد حـان حينه وتقارب زمانه- غيرهم من مـشركى يثرب، ولكن الذين ما حفظوا عهود موسى عليه السلام، والذين جرعوه كئوس الخلاف عن أمره مترعة، والذين لم يحفظوا التوراة التى استحفظوها فحرفوها حتى أنسوها ووضعوا

(١) البقرة فى آيتى ١٠٥، ١٠٩ عدا الآيات التى سماهم فيها باليهود والنصارى أو صفهم بها.
(٢) آل عمران فى اثنتى عشرة آية من ٦٤- ١٩٩.
(٣) النساء فى أربع آيات من ١٢٣- ١٧١.
(٤) المائدة فى ست آيات والسابعة خطاب لأهل الإنجيل من ١٥- ٧٧.
(٥) العنكبوت فى الآية ٤٦ وفيها الرفق فى خطاب خيارهم.
(٦) الأحزاب الآية ١٦. ٧- الحديد: ٢٦.
(٨) الحشر: ٢، ١١. ٩- البينة: ١- ٦.
(١٠) لم تستقص الآيات التى نودوا فيها بغير أهل الكتاب.

مكانها من كلام غير الله ما لا تثبت نسبته إلى السماء حجة، ولا يقوم على ذلك بها دليل.. هؤلاء الذين لم يكن حظ عيسى عليه السلام من أحفادهم أطيب من حظوظ من سبقوه، كان أحفادهم أمناء على أحقادهم المورثة ومكايدهم لمن عداهم، فشعارهم هى كل اتجاه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[1].

فإنهم يطلقون «الأميين» فى كل من ليسوا يهودا، ويعاملونهم كما يشهد عليهم التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون[2] بأحط ما تعامل به الحيوانات.

وفى باب الهجرة من صحيح الإمام البخارى رحمه الله جـ٢ ص٢٣٠ طبعة الحلبى القاهرة ١٣٧٢هـ من حديث أنس بن مالك قال «فلما جاء نبى الله ﷺ - أى إلى المدينة- جاءه عبد الله بن سلام فقال:

أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىَّ ما ليس فىَّ.. فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ.

يا معشر اليهود. ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى جئتكم بحق، فأسلموا قالوا: ما نعلمه، فأعادها صلوات الله عليه، ثلاثا عليهم، وهم يجيبونه كذلك، قال: فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاش لله، ما كان ليسلم -وكررها ثلاثا وكرروا ما قالوا- قال ﷺ: يا ابن سلام اخرج عليهم فخرج فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ» أهـ.

---

(١) سنتناول هذه الآية بالبيان بعون الله.

(٢) التلمود من كتبهم المقدسة، والبروتوكولات نشر الأستاذ محمد خليفة التونسى.

والصحاح كلها روايات أخرى بزيادات تشهد بطبيعة يهود، واستمساكهم بباطلهم، ودورانهم حول أنفسهم وأنانيتهم وعبادة ذواتهم، والنظر بعين المَقت لسواهم، ولا أدل على ذلك من حوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لهم، وحوار ابن سلام رضى الله عنه، ذلك الحوار الذى لم يثر فيهم مقنعا ولا أدرك من قلوبهم موضعا، وقد لا يكون قرع منهم مسمعًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]. . . حتى قال فيهم رب العالمين ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال: ٢٢].

والأيام والليالى تؤكد أن الأبناء على هوى الآباء «ولا تلد الحية إلا حية» وأنهم فى بغيهم وصلفهم وغيهم على قلب رجل واحد، رجل حاقد واحد -سواء فى ذلك أحبارهم ورجال دنياهم، وقديمًا قيل «من التعذيب تهذيب الذيب، ومن العناء رياضة الهرم» و«شديد عادة منتزعة» إن القوم يملكون اليوم مقاد الإعلام العالمى المجنون، ويتلاعبون بالأفكار، ويتوسلون بكل سبيل إلى استثارة الغرائز واستمالة الأغرار، وإشباع أهواء من يحسبونهم قادرين على خدمة أغراضهم فى قيادة العالم، والتصرف فى مقدارته كما يشاءون، ويجامعهم فى كثير من هذه المكايد أقوام فى نفوسهم كحز المدى على الإسلام والمسلمين، يدخلون معهم تحت عنوان «أهل الكتاب» ويدنى بعضهم إلى بعض -إلى حين- فرصة يظنونها تعين على التمكين من المسلمين، وبينهم من الخلاف الواغل ما لا يخفى على بصير، واصطلاحهم الظاهرى على ذلك فى هذه الأيام، كسحابة الصيف، وخيال الطيف لا تلبث الأعين أن تبصرها حتى يدركها الزوال، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

إننا نأبى أن تستبد بنا الغفلات، أو تستهوينا الشعارات أو يخدعنا عن حقائق الأشياء كلام مُنَمق تردده كالببغاوات أبواق الشرق، أو حديث مزوق يرسله فى الإسلام أقوامٌ هم أصداء للغرب وأفكاره وتصوراته ومطامحه وأطماعه.

فإن هؤلاء جميعًا «هم العدو» الذى ينبغى أن نعرفه ونكشفه فى نور الإسلام وضياء الحنيفية السمحة التى يظلمها من يقيسها بغيرها.

إذا أنت فضلت امرءًا ذا نباهة على ناقص، كان المديح من النقص

إن الرسول قد حاور اليهود وعاهدهم وواثقهم، وواثق من بعدهم غيرهم، فهل أجدى الحوار؟ وهل أغنى عن الجهاد الجاد مع يهود بخاصة نُبل النبى وفضله؟ الجهاد الذى يسترد الحقوق، وليس منه بحال صراخ الصارخين الذى يصم الآذان فى أماكن وأزمان، وحين تقرع الحجة الحجة، ثم لا ينتصف البرهان، وتفقد الكلمة معناها يكون إباء الرجال متمثلا فى القتال، لا فى الهمس والدس والتآمر فى الدروب والأوكار، هو الطريق الذى يحق الله به حقه وينصر جنده، ويحمى أقداسه، ويعز عباده وبلاده.

إذا الحرب حلت ساحة القوم أظهرت عيوب رجال يعجبونك فى الأمن
وللحرب أقوامٌ يذودون دونها وكم قد ترى من ذى رواءٍ ولا يغنى!

وكنت من أكثر من ثلاثين سنة قد قلت فى موقف من مواقف الدعوة إلى الله:

إن جرى غيرنا مع الكفر يبغون سوى الأرض دولة فى السماء
وتهنَّوا بقوةٍ مكنتهم بعض حين من كاهل الضعفاء
واستطالوا بعلمهم وهو منا نهلوه، وأفحشوا فى الجزاء
وسعوا سعيهم ونحن نيام نتغنى بعزة الآباء
إن يكن ذاك شأنهم فعلينا وزر ما كان، لا على الأعداء
شغلتنا عن الجهاد رءوس نشأوا فى مهاد الاستخذاء
لا يرون الجهاد إلا كلامًا فى كلامٍ لا فى صفوف الفداء
أى وربى جناية الغرب فينا دونها من رجالنا هؤلاء

وما أهون الكفاح، وأيسر الجهاد إن كان هو ذلك الذى يضحك الثكالى فى أماكن وأزمان!!

إن إنعام النظر فى آيات سورة البقرة يضعنا أمام حشد طاغ من تعنت يهود مع الذى آتاهم من أنعمه ما لم يؤت أحدا من العالمين، ومع ملائكة الله الذين هم

بأمره تبارك وتعالى يعملون، ومع أنبيائهم على النحو الذى سنجلوه مرات -إن شاء الله- ومهما اجتهدنا فى ذلك فما نحن ببالغين من بيانه المدى الذى بلغوه..

ولا يخطئ الصواب من جعل «أهل الكتاب» مرادين فى كلام الله عن الكافرين فى صدر سورة البقرة، فكلامه عن المنافقين ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٨]، وما وراءها من آيات قرر الله فيها أنه: يستهزئ بهم عدلا وقسطا لاستهزائهم بالمؤمنين، وآيات ضرب لهم فيها الأمثال على أنهم «صم بكم عمى» وأنهم لم ينتفعوا بالحق الذى عرفوه كما لم ينتفع أقوام فى المثل الآخر ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ [البقرة: ١٩]

وأهل الكتاب هم بنو إسرائيل «يعقوب عليه السلام» ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [فاطر: ١٨] ويفد علىَّ من ذاكرتى مثل الفتى الذى قال لأخيه «لأهجونك» قال له أخوه كيف تهجونى وأبى أبوك وأمى أمك؟ فأنشد:

أبوك أب حـــر وأمك حـــرة وقد يلد الحرَّان غير نجيب!

وخطاب الله لبنى إسرائيل فى عهد سيدنا محمد صلوات الله عليه تذكير وتبصير للأبناء بسوالف هبات الله وإحسانه إلى الآباء.

قال ابن الجوزى «المراد من ذكرها أى فى قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٠] شكرها، أى إيجاب شكرها، فإن من لم يشكر فما ذكر»[1].

وفى إجمال واع دال لما تكفلت به سورة البقرة من أغراض قال الشيخ رشيد رحمه الله[2]:

«ثم خص بنى إسرائيل بالدعوة تاليا عليهم ما لم يكن يعلمه محمد لولا وحيه تعالى له، فذكرهم بنعمه، وأمرهم أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم رسله، ونهاهم أن

(١) زاد السير جـ١ ص٧٣.
(٢) تفسير المنار ص١٠٦، ١٠٧.

يكون المعاصرون له منهم أول كافر به، وحاجهم فى الدين بتذكيرهم بأيام الله، وبأهم الوقائع التى كانت لسلفهم مع كليمه، من كفر وإيمان وطاعة وعصيان، ثم بالتذكير لهم وللعرب بهدى جدهم إبراهيم الخليل، وبنائه لبيت الله الحرام، مع ولده إسماعيل، ودعائهما إياه تعالى أن يبعث فى الأميين رسولا منهم، وبأن علماءهم يعرفون أن محمدا هو الرسول الذى دعا به إبراهيم وبشر به موسى -كما يعرفون أبناءهم، وبأن فريقًا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون، أى والفريق الآخر يؤمنون به، ويعترفون بوعد الله لإبراهيم ثم لموسى بقيام نبى من أبناء إخوتهم مثله».

ويردف الشيخ رشيد قائلا: «بدئ هذا السياق بالآية ٤٠ من السورة؟ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ....﴾ [البقرة: ٤٠] وانتهى بالآية ١٤٢ منها[١] وتخلله بعض الآيات الموجهة للمؤمنين للاعتبار بما فيه من شئون أهل الكتاب السابقين والحاضرين من اليهود بالتفصيل، ومن النصارى بالإجمال، إذ لم يكن أحد منهم -أى من النصارى- مجاورا ولا مخالطا للمسلمين فى تلك الحال، فإن نزول البقرة كان فى أول عهد الهجرة، وما تقدم يناهز نصف السورة وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة..» أهـ.

لكن الشيخ محمد عبده -رحمه الله- يضيف لهذا الكلام الجليل إضافات جزيلة الفائدة نلحقها بهذا الكلام إتماما للموضوع فى هذا السياق وإجابة على سؤال قد يعرض وهو: لِمَ أعطى الله كل هذا الاهتمام لبنى إسرائيل؟! قال الشيخ رشيد:[٢] قال شيخنا فى سياق درسه ما مثاله:

«اختص بنى إسرائيل بالخطاب، اهتمامًا بهم، لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية، والمؤمنة بالأنبياء المعروفين، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين[٣]، ولأن فى دخولهم فى الإسلام من الحجة على النصارى وغيرهم أقوى

(١) وهى قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ....﴾ إلخ. وسنعرض لها إن شاء الله.

(٢) جـ١ من تفسير المنار ص٢٨٩ وما بعدها.

(٣) إن شدتهم على المؤمنين من جهتين: مكايدهم وسوء مكرهم بهم، والثانية وهى أشد وأمعن لأنهم عرفوا الحق وعادوه وافتروا عليه الأكاذيب- الكاتب.

مما فى دخول النصارى من الحجة عليهم، وهذه النعمة التى أطلقها فى التذكير لعظم شأنها هى نعمة جعل النبوة فيهم.. ولذلك كانوا يسمون شعب الله -كما فى كتبهم- وفى القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم.. ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله، منحهم إياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكرا، وأشدهم بنعمته ذكرا، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبى يرسله لهدايتهم، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض عن الإيمان، وسبب إيذاء النبى عليه الصلاة والسلام لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى محصورٌ فيهم، وأنه لا يبعث نبيًا إلا منهم، ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته وقفى عليه الأمر بالوفاء بعهده» أهـ.

وحتى نبلغ هذه الآية إن شاء الله وما بعدها نتساءل: هل تغير إلى الأحسن أهل الكتاب من يهود فحفظوا العهود وأنجزوا الوعود، وانطفأت فيهم جذوة الأنانية، وصاروا شيئًا آخر غير أصولهم الذين قال الله فيهم ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠].

* * *

أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٤]

لا يبعد عن الصواب من يرى «المنافقين» جرثومة يهود، لقد أفرد الله فى صدر سورة البقرة الحديث عن المنافقين بعد حديثه عن الذين كفروا. والإمام القرطبى يقول فى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ...﴾ [البقرة: ١٣].

«وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود، أى وإذا قيل لهم -يعنى اليهود- آمنوا كما آمن الناس: عبد الله بن سلام وأصحابه، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء يعنى الجهال والخرقاء»[١].

إن اليهود يجامعون المنافقين بما استوجبوه بكفرهم فى عاجل أمرهم وآجله، ويذهبون بعد كل خسيسة ونقيصة تطالع القارئ لآيات سورة البقرة تحدثت عن بنى اسرائيل باعتبارهم أصل اليهود والنصارى، وكأننا نرى تلكم الآيات تمسك بمخانقهم، وتكشف عن خبيئتهم وتدعهم تفسيرا حيا، وواقعا بشريا لما ترويه إلى أبد الدهر من صفاتهم وتصرفاتهم.

فإذا انتهينا من كلام الله عن المنافقين، ومررنا بخشوع ويقين على مشاهد وجود الله، وشواهد نسبة القرآن إلى من أنزله معجزة خالدة تالدة على مصطفاه، وفى ذلك ما يسكت المتكلمين بالإنكار والمماراة فى هذه الحقائق المجلوة البينة، وإن كان الذى يعلم من خلق قد قضى فيهم قضاءه بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا..﴾، قال الإمام القرطبى: «وهذا من الغيوب التى يضربها القرآن قبل وقوعها»[٢].

واجهنا معجزة القرآن فى عرضه لأمور كثيرة تكون بين الغرض الواحد التفاتة عقلية وروحية هادية وتنقلا يجم الخواطر، وينعش البصائر فتستقبل الكلام فى السياق الأول.

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٢٠٥ طبعة دار القلم.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٢٣٤.

أقدر ما تكون تفهما واستيعابا ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

والمفسـرون يرون فى قوله تـعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً...﴾ [البقرة: ٢٦].

أن اليهود هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦].

قال الحسن وقتادة: «لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل، ضحكت يهود، قالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزلت الآية..

والآيات -بعد- وإن ذكـر الله فيها صـفات «الفاسقين» الخـارجين عن طاعة الله تعالـى كفرًا أو عـصيـانا فلا يمتنع أن تكون فـى يهود [1] فهم -لا ريب- ناقضو العـهود، وما أقطعهم لمن كان ينبـغى أن يصلوه وقد عرفوه كمـا عرفوا أبناءهم، مما تحدثت به كـتبهم وأنبـياؤهم، وتأمل مثل قـوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ...﴾ [البـقرة: ٤١]، حلقـات فى سلسلة تأخذ من الـقوم بالنواصى والأقدام..

وكم هى لمحة ذكية أن يقول الإمام القرطبى فى قوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٨].

«فإن قـيل: كيف يجـوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لـم يكفروا بالله؟!.

«فالجواب مـا سبق من أنهم لما لم يثبتـوا أمر محمد عليـه الصلاة والسلام ولم

---

(١) قال ابن الجوزى فى تفسـيره للآية «وفى المراد بالفاسقين هنا ثلاثة أقوال: أحدها أنهم اليهـود كما قال ابن عباس» ١ هـ جـ١ ص٥٦ وهم راحلون فى القولين الآخرين.

يصدقوه فيـما جاء به فقد أشركـوا، لأنهم لم يقروا بأن القرآن من عند الله، ومن زعم بأن القرآن كلام البشر فقد أشرك، وصار ناقضًا للعهد..»[1].

وتتصل الآيات فى بيان مقاصد عليا وغايات رفيعة، ثم ترانا من الآية ٤٠ حتى نهاية كـلام الله تعالى عن تحويل القبـلة أمام صور إحسـان الله إلى بنى إسرائيل، وأنعمه عليهم إلى مدى لم يكن من قبل لغيرهم، وإن لم يثن منهم إلى الله عنانا، ورحم الله ابن قيم الجوزية فقد قال:

«فالأمة الغضـبية هم اليهود، أهل الكذب والبهت والغـدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء وأكلة السـحت -وهو الربا والرشا، أخبث الأمم طوية، وأردأهم سـجية، وأبعدهم مـن الرحمة، وأقـربهم من النقمـة، عادتهم البـغضاء، ودينـهم العداوة والشـحناء، بيت السـحر والكذب والحـيل، لا يرون لمن خـالفـهم -فى كفـرهم وتكذيبهم الأنبـياء- حرمـة، ولا يرقبـون فى مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا لمن وافـقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمـأنينة ولا أمنة، ولا لمن استـعـملهم عندهم نصيـحـة، بل أخبـثهم أعـقلهم، وأحذقهم أغشـهم، وسليم الناصية -وحاشاه أن يوجـد بينهم- ليس بيهودى على الحقيقة، أضيق الخلق صدورا، وأظلمهم بيـوتا، وأنتنهم أفنية، وأوحشهم سجية، تحيتهم لعنة، ولقاؤهم طيرة، وشعارهم الغضب، ووثارهم المقت»[2].

إن ابن القيم -رحمه الله- يقدم بهذه العجالة دراسة فاحصة مستوعبة عن يهود، مبدؤها ومستمدها كتاب الله، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من سورة الفاتحة، فـقد سماهم النبى صلوات الله عليه، وما لعاقل معـدل عما سمى رسول الله ﷺ فى حديث عدى بن حاتم، كما أخـرجه الإمام أحمد وغيره بإسناد حسن، وقـال الإمام القرطبى «ويشـهد لهـذا التفسـير قوله سـبحانه فى اليـهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢) كتابه «هداية الحيارى» ص٨ توزيع الجامعة الإسلامية.

وقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (1) . أ هـ: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

إن القوم محجوبون بقبائحهم عن رضوان الله، فكم حرفوا كلامه، وعصوا رسله وقتلوا أنبياءه والذين يأمرون بالقسط من الناس، وكانوا من خلال كل جريمة خلقية، وكأنما قدت قلوبهم من الحجر، وإن تراءوا فى صور البشر، فلا عجب أن يضرب الله فيهم الأمثال فى غير مجال وما يزال قيد الخاطر قول الله فى المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا..﴾ وما وراءه فهى بيهود أشبه، وهم فى قصة البقرة التى أمرهم موسى أن يذبحوها فجادلوا أول الأمر فيها حتى ذبحوها، وما كادوا يفعلون حتى انجلى حكم الله وحكمته.. على طبيعتهم فى التعنت وسوء الأدب واللجاج مع نبيهم، ألا تراهم يقولون غير مرة لموسى عليه السلام ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وهو تعالى، ربه وربهم ورب كل شىء، بعد أن جهلوا أمر نبيهم عن ربهم أن يذبحوا بقرة ونسبوا إليه للاستهزاء بهم؟!

إنها طبيعة القوم مذ كانوا إلى اليوم وما بقى منهم واحد، «وشديدٌ عادة منتزعة». وليس عجبًا أن ينتهى ذلك السياق بقوله تعالى فيهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

ومهما تعددت أقوال المفسرين فى الذين قست قلوبهم ههنا، فإن قوم موسى هم المرادون أولا وأخيرا وعلى كل حال، فما كان أهل القتيل إلا نفرا من بنى إسرائيل، «قال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القتيل، لأنهم حين حيى وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب بعدما رأوا هذه الآية العظمى.. أن

(١) الفتح/٦- تفسير القرطبى ١٤٩-١٥٠.

يضرب القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فيتكلم.. ولم يكونوا قط أعمى قلوبا ولا أشد تكذيبا لنبيهم منهم عند ذلك..»[1]

والقوم يتجاهلون حقائق وحقوقا بغيًا وعدوا، ويصور لهم ضلالهم، ووهمهم وباطل فهمهم أن الوجود كله لهم، وليس لسواهم حق فى شىء، فيفضح الله دخيلتهم، ويهتك أستارهم، ويقلق أسرارهم، ويقيض للبشرية من يتابع ذلك من رجال السياسة وزعماء الإصلاح فى عصر بعد عصر، ليكون الناس من هؤلاء القوم أيقاظا حذرين من شرور ومكايد تختفى وتبين بحسب الظروف والأحوال.

وإذا كان الحديث عن أهل الكتاب يهود ونصارى، وهم وكل مبطل اليوم كما كانوا فى كل يوم مضى على قلب رجل واحد فى العداوة للإسلام والكيد للمسلمين، فلا بأس فى أن أورد ههنا كلامًا لمارتن لوثر الذى يذكر على رأس الثورة التى يسمونها ثورة الإصلاح المسيحى فى القرن السادس عشر الميلادى، فهو يقول، (وأين عقول النصارى -إن كانت لهم عقول)؟.. مما يقول.؟!

«هؤلاء هم الكذابون الحقيقيون، مصاصو الدماء، الذين لم يكتفوا بتحريف الكتاب المقدس وإفساده، من الدنة إلى الدفة، بل إنهم ما فتئوا يفسرون محتوياته حسب أهوائهم وشهواتهم، وما كل هذه الآهات -والتنهدات والحسرات المتصاعدة من أعماق قلوبهم إلا تعبير عن انتظار اليوم الذى يستطيعون فيه معاملتنا، كما سبق أن عاملوا الوثنيين وعبَّاد النار خلال العهود الغابرة أيام الملكة استير فى بلاد فارس.

«أواه لكم، هم مغرمون بقصة استير لانسجامها مع أمزجتهم المشغوفة بالدماء، ونفسياتهم المغرمة بالانتقام، ومع تعطشهم للإجرام.. إن التاريخ لم يعرف بعد شعبًا مصاصًا للدماء، ولهًا بالانتقام الدموى كالشعب اليهودى.. أقول وهى اليوم ترمى غيرها بدائها وتذرف دموع التماسيح ودماء غيرهم تتقاطر من بين الأصابع، متناسية أن للناس عقولا وأبصارًا وأفئدة. ويتابع مارتن لوثر قائلا: «الشعب

(١) القرطبى ص ٤٦٣.

اليهودى الذى يعتبر نفسه الشعب المصطفى المختار، كذريعة يتخذها مبررا ليبيح لنفسه قتل الآمنين وسحقهم وشنقهم..

«إن أول ما ينتظره اليهود من «مسيحهم المرتقب»، مبادرته إلى ذبح جميع شعوب العالم وإبادتها، مستخدمًا سيف الانتقام الدموى «اليهودى» كما حاولوا أن يفعلوا بنا، نحن المسيحيين، وكما يودون لو استطاعوا تكرار المحاولة بنجاح».

وكم هى صيحة تبددت فى فضاء الغفلات قول لوثر يومئذ «ولن يعرف التاريخ كذلك شعبا بمستوى الجشع الذى يتميز به اليهود، فهكذا كانوا، وهكذا هم اليوم، وهكذا سيبقون إلى الأبد، وهم يمنون النفس الآن.. والرجل كان يتكلم فى القرن السادس عشر -بأنه حال ظهور «مسيحهم المرتقب» فسيبادر أيضًا إلى جمع ذهب العالم وفضته ليوزعها بالتساوى عليهم».

ويردف لوثر قائلا «وبينما يغفو الأمراء وأصحاب السلطة والمسئولون فى العالم، غافلين عما يدبر حولهم وبين ظهرانيهم يتابع اليهود سرقة وسلب ما يريدون من خزائن هؤلاء وصناديقهم المفتوحة، والمسئولون بذلك إنما يخاطرون بأنفسهم وبرعاياهم، حينما يتركون اليهود يمتصون دماءهم ويسلخون جلودهم برباهم الأسطورى الفاحش وأساليبهم الاحتيالية الخادعة.. وهكذا يتحول الأمراء والمسئولون.. وهم أصحاب المال الشرعيون أصلا -إلى شحاذين فقراء فى بلادهم».

وكأنى بالرجل وبيننا وبينه هذه القرون يرى بعض الواقع فى ديارنا بخاصة وفى العالم عامة!! «وفى كل واد أثر من ثعلبة»!..

ثم يقول الرجل بمرارة وأسى تعتلج بهما أنفس كثيرين وإن كان الواقع اليوم أقض وأوجع.. «لقد استولى اليهود على أموالنا وأرزاقنا، فأصبحوا أرباب نعمتنا على أرضنا وفى وطننا، وهم المنبوذون».

أقول: لقد صنع منبوذو الأمس لأنفسهم وطنا، واتخذوا القدس له عاصمة، وهم يعملون جهرة للانسياب والتسلل إلى مقدسات أخرى وديار، وما كان شىء

من ذلك يكون لولا غيبة الدين ومـا يستتبعه من أنانيات وغفـلات يقول فـى مثلها أبو بكر الصديق رضى الله عنه:

«لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق». .

ومـارتن لوثر يذكر يقظة القـوم وتناجـيهم بصـوالحهم الخـاصة، ويبـرز بعض مبادئهم وأفكارهم التى يتواصون بها باغين فيقول:

(وهم يتهـامسون فى مـجالسهم الخاصـة لترسيخ إيمانهم بأنفـسهم وكراهيـتهم العميقة لنا):

«اسـتمـروا فى تنفيـذ خططنا، وستـرون أن الله لن يتـخلى عن شعـبه المنبـوذ المضطهد، إننا لا نبذل جهدا ولا نعـمل، بل نحن استمرأنا البطالة والكسل، فمن ليس يهـوديا هو الذى يجب أن يعمل ويعـرق من أجلنا، ونحن من تجب أن تجنى ثمار كده وأرباح تعبـه وعرقه كى نصبح تدريجيًا، أسياد العـالم، وتتحول شعوب الأرض بـدورها إلـى عبيد لـنـا وخـدام. . امضـوا فـى ثبات -هكذا يقول اليهود- يا أبناء إسـرائيل الأعزاء، فى السـير على هذا الطريق، فـاليوم الذى سنكون فـيه أفضل مما نحن عليه الآن، آت لا ريب فـيه، إن مسيحنا المنتـظر سيظهر إذا واصلنا السير على هذا المنوال، فنكون دائمًا من الـغانمين الرابحين، بربانا الفاحش، وتظفر أيدينا فى النهاية بكل أملاك وأموال الوثنيين والملحدين».

ويتحدث لوثر بعد أن أورد من تهامس القوم ما أورد. . فيقول:

«لقد لـقنهم آباؤهم وحاخـاماتهم، منذ نعـومة الأظفار الـكراهية السامـة لكل غريب عن ملتـهم، لا يدين باليهـودية، وما برحوا حـتى يومنا هذا يمضون -دون كلل- تلك الكراهية المجـسدة فى كل فرد منهم، حتى إن الكراهيـة تغلغلت- كما جاء فى الزبور ١٠٩- فى أجسادهم ودمائهم، فـسيطرت عليهم، وغلفت عظامهم وأدمغتهم فغدت مـنهم وفيهم كما هى حياتهم وكيانهم، وكمـا أنه يستحيل عليهم تغيير أجسادهم ودمائهم وعظامهم وأدمغتهم، كذلك يستحيل عليهم أن يتخلوا عن طباعهم المتأصلة فـيهم، كالتكبر والغرور والجشع والحـسد، لذلك لا مفر لهم من

بقائهم على ما هم عليه: طماعون، حاسدون مرابون -إلى أن تحل الساعة التى يبيدون فيها أنفسهم بأنفسهم أو تقع المعجزة»[1].

وينتهى الرجل وهو لوثر المصلح النصرانى فيقول:

«فلتكن أيها المسيحى، على ثقة من أنه ليس هناك من عدو لك مبين، بعد الشيطان سوى اليهودى السام ببغضائه، القاسى بحقده، الطافح الناضح بالجشع والطمع والشراهة، الذى يسعى بكل جهده، ويتمنى من كل قلبه، ليكون «يهوديا» حقيقيا بكل ما فى الكلمة من معنى.

وكل ذلك يبرهن على أن حكم المسيح فيهم كان عادلا من وصفهم بالسامين المنتقمين، الحيات، الأفاعى الضارة، القتلة المأجورين، وأبناء الشيطان، الذين يقتلون ويلحقون الأذى بالآخرين غيلة وكيدا وغدرا، لأنهم أضعف وأعجز من أن يفعلوا ذلك علنا وبصورة مكشوفة اهـ[2].

إن كلام المصلحين النصارى والحكام عبر القرون فى «يهود» يطول ويكثر، وكلامهم وكلام اليهود عن «النصارى» كذلك، وجل الله الذى يقول:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

* * *

(١) لقد انتهى زمن المعجزات وعلى المؤمنين وهم يودون التفسير أن يذكروا قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد :٤].

(٢) بتصرف من كتاب «اليهود» للأستاذ زهدى الفاتح.

هتاف ربانى

إن أهل الكتاب حيث كانوا فى القرآن الكريم، هم أتباع موسى وعيسى عليهما السلام فى عصرهم، ومنذ تحدث إليهم نبينا محمد صلوات الله عليه بآيات الله الصادعة بالحق الهادية إلى حق الله فى توحيده فى العبادة والقصد، وتنزيهه عن الصاحبة والولد وعن السند والشريك، والضن بدينه أن يُضَافَ إليه، أو يُنقص منه ما لم يأذن به الله ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [سورة الإخلاص].

﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

والقرآن الكريم يولى أهل الكتاب عنايته بحفاوته بخطابهم، ودعوتهم إلى الإذعان للحق الذى جاء به البشرية عربها وعجمها وأبيضها وأحمرها، محمد ﷺ من أنهم من أمة الدعوة أولاً، ثم إنهم أوتوا شيئًا من العلم، وأنهم يزعمون اتباعهم لأنبيائهم واستمساكًا بما جاءوا به. ولو أنهم أنصفوا ما تابع عليه موسى وعيسى والأنبياء من بعدهم، وما قفى على آثارهم فيه نبينا محمد صلوات الله عليه كما يظهر فى قول الله تعالى المصطفاه:

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] لكانوا أولياء الله.. الذين يسارعون إلى التصديق بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.

أجل لو أنهم أخذوا أنفسهم بدعوة التوحيد، وهى نداء الفطرة بين أعطاف الناس، ولدوا عليها وشبوا ودرجوا كما قال النبى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة..**» لاستجابوا غير مترددين إلى نداء الإيمان وهتاف القرآن ودعوة محمد ﷺ عن ربه ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن أولى الناس لا ريب بالإيمان بالله، هم الذين اتبعوا رسله وانتسبوا إلى أنبيائه وكان لهم ذكـر سائر فى كتـاب الله يوم كانوا يقارعـون كفر أصحـاب الأخدود، وضلال الشرك بصـوره وألوانه المتمثلة فى عـبادة الكواكب وغيرها من كل مـعبود باطل. .

إن حجـة القرآن قائمـة على كل ذى مسكة من عقل مـنذ جاء به البشـرية نبينا محمد ﷺ قوى الحجة، واضح المحجـة، جامعًا لكل ما تفرق فى التوراة والإنجيل قبل أن تنالهـما الأهواء، . . والنظرة فى الآيات التى لا نحـصيها ههـنا تقفنا على نماذج من أهل الكتاب نـوه بهم القرآن وباهى بإيمانهم وأمـانتهم وصـدق تقديرهم للقرآن الكريم، وجـعل إنصاتهم لتلاوته على الوجـه الذى يقول فيـه رب العالمين ﴿ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٥].

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

أجل. . إن حـفاوة القـرآن بأهل الكتـاب على هذا النحـو الذى جلونا بعضـه ونجلوه بقدر ما يعـين الله بعد، شهادة بصدق نسبـة القرآن إلى الله، وبأن الإسلام هو دين الله المهيمن وكلمته التى لا يُعبد الله بحق بغيرها.

* * *

تعالوا إلى كلمة سواء

إن الإسلام يحمل أمارات أنه دين الله، وكلمتـه الأخيرة إلى الذين أوتوا العقل السليم والإدراك السوى، وهل يخـاطب الناس فى الناس إلا عقولهم ومـداركهم، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

ومن هذه الأمارات والـشواهد أن كتـابه الخالد، يذكـر ما سـبق الإسلام من رسـالات إلهيـة بما هى أهله من حـفاوة وإعـزاز، ويذكـر المرسلين صلوات الله عليهم، وصالحى الناس فى عصور وديـار بما هم أحق، وأهله من توقير وإكبار، منطلقًا من ذلك إلى المهمة التى جاء بها الإسلام مهيمنا بكتاب الله وسنة مصطفاه على ما سبقهما وتقدم عليهما باعتباره الدين الخاتم، والكلمة التى يؤديها الرسول الذى كانت رسالتـه عامة شاملة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وكلمة العالمين تعنـى اليوم ما كانت تعنيه يوم نزلت، ويخـاطب رسول الله بها كل من كـان فى عصـره، كمـا يخاطـب بها من جـاءوا من بعده حـتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وليتـتبع كل عـاقل حديث القـرآن عن موسى وعيـسى عليهـما السـلام، فمن سبقهما من خيرة الله ورسـوله لا اختلاف بين الناس فى أمرهما، وتصديق الجميع بهما والتصديق بموسى وعيسى ومـحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وليس أولى بإبراهيم إلا الذين اتبـعوه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [عمران: ٦٧].

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [آل عمران: ٦٨].

فقـد ينفع تتبع ما تحـدث به القرآن عن موسى وعيـسى عليهمـا السلام فى أن تجتمع على نداء مـحمد عن ربه ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن ما أمر الله به فى هذه الآية هو لب الرسـالات السماوية جميـعًا، وهو إفراد الله بالعبادة، والنهى عن أن نشرك به أحدًا من خلقه أو مخلوقاته.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وإذا لم تكن الكلمـة السواء التى لا يلتـقى الناس على أمثل منهـا وأهدى هى عبادة الله وحده. . فماذا تكون؟

إنها العدل والحق والصراط المستقيم الذى من زل عنه جهل وضل ضلالاً بعيدًا، ومن التزمها أسلمـه الله زمام الحياة، وجمع عليه شمـله. . وكان والذين آمنوا معه خير أمة أخرجت للناس.

فهل نستـجيب إلى هدايات الله فى كتابه، حتى نكون مـؤمنين حقًا بالنبى ﷺ صدق وهو يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به».

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

* * *

المجموعة الخامسة:

القـــرآن.. وأســـرار ترتيبـه ونزوله وقراءاته

- القــرآن وضـجـيج البـاطل.
- حول ترتيب السور فى القرآن.
- تخـمـيس القـرآن وتعـشـيره.
- خـذوا من القـرآن.
- دعـاء ختم القرآن.

القرآن وضجيج الباطل

إن القرآن حجة لك إن بنيت به عقيدتك، وأقمت على أساسه ما أوجب الله على العباد المكلفين من تكاليف، وسلكت سبيله بالتحلى بفضائله، والتخلى الكامل عما حذر منه، ونهى عنه، وهو حجة على من تولى عنه، وآثر عليه كلام من يجهلون أضعاف ما يعرفون، ويهرفون بما لا يعرفون، وما أكثر الأدعياء.

وخطاب الله تعالى فى كتابه يدور على ثلاثة أمور هى جماع كل شىء:

أولها: إرساء قاعدة الإيمان بالله وتجريد العقيدة من شتى الشوائب.

ثانيها: تقرير التكاليف والأحكام الشرعية على نحو من الإجمال الذى فصلته السنة المطهرة.

ثالثها: وضع منهاج السلوك الذى لم يدع فضيلة إلا استوعبها حصرًا وأمرًا، ولا رذيلة إلا أحصاها ذكرًا وزجرًا.

ويطالع الناظر المتدبر للقرآن الكريم من خلال هذه المقاصد الجامعة أحسن القصص، وأدل الأمثال، وغرر العظات والعبر من تاريخ من غبر بهم الدهر، وصاروا أحاديث وذكريات لأولى الألباب.

والقرآن وهو حجة الله لك أو عليك بما جلا وكشف من مرادات الله تعالى، يختلف قيام الحجة به -رحمة من الله بمن خلق- بحسب تأهل الناس واستعدادهم، فلينظر الناس أين يضعون أنفسهم بسلوكهم واختيارهم.

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه «طريق الهجرتين»: إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار فى زمان، وفى بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذى لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذى لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم.

ولقد أنحى الله بالملامة على بنى عبد الدار حين قالوا «نحن صم بكم عما جاء به محمد، لا نسمعه ولا نستجيب له» فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

والقرآن جهير الصوت، تذيعه إذاعات الأعداء فى جوانب هذا الكوكب بكرة وعشيًا، وما بين ذلك، وينفذ بسر الله فيه إلى قلوب لا تعرف لغته فتسفر وتستبصر، ويشق طريقه بوسائله الربانية فيهتدى بهداه من أراد الله أن يهديهم ويستخلصهم لنفسه سبحانه.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أجل تذيع القرآن أجهزة الإعلام المتنوعة وتكون برغمها من جند الله فى تحقيق عدته فى قومه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وتكون من حجج الله على أولئك الذين يقول اليوم لسان حالهم ما قال المشركون ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ...﴾ [فصلت: ٥].

فهل حُرموا العقل والتمييز كالصغار والمجانين؟ أم قصرت أفهامهم عن خطاب الله تعالى فى كتابه فصاروا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون؟ وكيف يكونون واحدًا من هؤلاء وبعضهم يلبس أردية العلم، ويشير إليهم الكثيرون بالأستاذية فى مشاهد ومقامات، وتقعدهم ظروف الحياة على كواهل الأمم والشعوب فترات من الزمان فينسون أنها سحابة صيف أو خيال طيف ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠]، فتوقن الأمم ألا عاصم لها من الجبابرة إلا الله الذى يملى للظالمين إلى حين. ويمعن العتاة فى عتوهم قائلين مقالة فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

إن الهدى -كل الهدى- فى القرآن الكريم، قال ﷺ: «من التمس الهدى فى غيره أضله الله»، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وماذا وراء الطبع على القلوب حتى لا ينفذ إليها من نور الإيمان شعاع؟

وماذا وراء أن تكون لهم أسماع ولكنها فسدت واعتلت فلا يرجى منها انتفاع؟

ومن (الفوائد) لابن قيم الجوزية قوله المستبصر: «تأمل خطاب القرآن تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية فى أقطار مملكته، عالمًا بما فى نفوس عباده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم منفردًا بتدبير المملكة يسمع ويرى، ويعطى ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيى، ويقدر ويقضى، ويدبر الأمور، نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك فى ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه، ويمجد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، يتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم، وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم، وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شُبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدى السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبيحها وآلامها، ويذكر

عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكـر غناه عنهم وعن جـميع الموجـودات، وأنه الغنى بنفـسه عن كل مـا سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من خطابه عتابه لأحبـابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصحح فـسادهم، حتى قـال رحمه الله: «فإذا شـهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيـمًا رحيـمًا جوادًا جميـلاً هذا شأنه، فكيف لا تحـبه وتنافس فى القرب مـنه..» وحب الله ورسوله طاعـة واتباع، وليس زعمًـا يزعم، ولا دعوى تدعى، ولقد قالوا إن أبا نواس وجد فى بعـض أوراق وراق فى بغداد هذين البيتين لأبى العتاهية:

تعـصى الإله وأنـت تظهـر حبـه　　　هذا لعـمـرى فى الـقـيـاس بديع

لو كـان حـبك صـادقًا لأطعـتـه　　　إن المحـب لـمـن يـحـب مـطـيـع

فود أن ذلك له بكل شعره.

ومن أصدق من الله قيلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وأسأل: هل التزمنا القرآن والسـنة؟!، أم قدمنا بين يدى الله ورسوله. والجواب بسرعة: انظروا الواقع فى دنيا الناس.

* * *

حول ترتيب السور فى القرآن الكريم

إن من خصائص القرآن الكريم باعتباره كتاب الرسالة العامة الخاتمة أنه واكب الدعوة خطوة فخطوة بما يناسب حال المدعوين فى مراحل الدعوة المختلفة وما يتفق ومداركهم وتأهلهم لتعميق عقيدة التوحيد والخطاب وتزكية الأنفس بكل ما لابد منه للتعريف بالله واستخلاص عظات ما سبق من رسل ورسالات وأمم آمن منها من آمن وكفر من كفر وتغطية مجتمع الوحى بالإجابة عما جد ويجد إلى آخر الزمان من أقضية وأحكام وعلاقات أفراد وشعوب.

ومن الخصائص التى انفرد بها القرآن على الكتب السابقة أنه نزل بما يكفل استيعابه وحفظه منجمًا على حسب الوقائع والأحداث وأقساطًا يؤلف بعضها الآية أو بعض الآيات على مقتضى حكمة الله فى ذلك. وكان نزول القرآن فى نيف وعشرين سنة منذ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥] وهى أولى آياته نزولاً حتى آخرها نزولاً وهى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ..﴾ [البقرة: ٢٨١].

وتبدو خصيصة ثالثة هى أن القرآن بنزوله على ذلك النحو فى نيف وعشرين سنة خالف ما ألف الناس ويألفون من كتب وبحوث تترابط فيها وحدة الموضوع بينما تتعدد مقاصد الله فى السورة الواحدة من كتابه وتكون بآياتها المختلفة كالروضة الغناء أنهارًا وأشجارًا وثمارًا وأزهارًا، ولله وكتابه المثل الأعلى.

يقول العلامة أبو الأعلى المودودى فى رسالته (مبادئ أساسية لفهم القرآن) تحت عنوان (كيف رتبت آيات القرآن).

إن القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذى سارت عليه الدعوة منذ بدئها حتى بلغت أوج الكمال، ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة فى شىء أن يختار لتدوين

الأجزاء المنزلة نفس الترتيب الذى كان ملتئـمًا مع سير الدعوة وتطورها، بل الأمر كان بحاجـة إلى ترتيب جديد يكون أكثر انسـجامًا وأشد تجانـسًا وأدق ارتباطًا مع الواقع الآتى بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة).

إن ترتيب آيات القرآن وتسـمية سـوره توقيفى -أى من عند الله تعـالى- يقول شيخنا محمد على سلامة رحـمه الله فى مذكراته (منهج الفرقان فى علوم القرآن- ج١ ص١٣٠ تحت عنوان: ترتيب آيات القرآن):

ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ثابت بالوحى وبأمر رسول الله ﷺ، فقد كان صلوات الله عليه يقول: «**ضعوا آية كذا فى موضع كذا**» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ وترادفت النصوص على كون ترتيب الآيات توقيـفيًا ووقع الإجـماع على ذلك. وقد ذكـر دليل الإجمـاع على توقيف ترتيب الآيات من قول عثمان لابن الزبير رضى الله عنهم (يا ابن أخى لا أغير شيئًا من مكانه).

وقد أخرج الإمام أحمد عن عثمان بن العاص قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: (**أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السـورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ٩٠].

فهذا الحديث صريح فى أن جبريل علم النبى ﷺ موضع هذه الآية من سورتها.

وروى الإمام مسلم عن عمر رضى الله عنه قال: (ما سألت رسول الله ﷺ عن شىء أكثر مما سألتـه عن الكلالة -أى حكمها- والكلالة: من مات ولا ولد له ولا والد. قال حـتى طعن بإصبعه فى صـدرى وقال: «**تكفيك آية الصـيف التى فى آخر النساء**».

وأخرج البخارى عن أبى مسعود عقبة بن عمرو البدرى رضى الله عنه أنه قال: قال النبى ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخـر سورة البقرة فى ليلة كـفتاه**» والآيتان هما: (آمن الرسول إلى. . . وإليه المصير. . . إلى آخر السورة].

ويقرر شيخنا سلامة رحمه الله أنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء وسورة الأعراف وسورة ألم تنزيل -السجدة- وهل أتى وغيرهما كما فى الصحيحين أو فى أحدهما وقال: وكان النبى ﷺ يقرأ السورة على ترتيبها المعروف الآن، فدل ذلك على أن ترتيب الآيات بالوحى، وقد مر بك أن إجماع الصحابة على ذلك.

ليس إذًا لأولية نزول الآيات اعتبار فى ترتيبها. لقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى وهى محفوظة فى أماكنها من سورها يقرأها الصحابة فى صلاتهم ويتلونها فرادى وجماعات ويتحاكمون إليها ويتمثلونها فى تصرفاتهم .

يقول العلامة المودودى فى كتابه الآنف الذكر ص٤١: (يجب أن يعرف الدارس أن الترتيب الحالى للقرآن ما قام به الذين جاءوا بعد النبى ﷺ بل توقيفى، وضعه النبى ﷺ نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام، وكان من عادته ﷺ أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتَّابه ويأمر بكتابتها، وأشار إلى تحديد موضع السورة وموضع الآيات ثم قال: (ووفق هذا الترتيب نفسه كان ﷺ يتلو القرآن فى الصلوات وغيرها من المناسبات، ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسونه، ولهذا كان من الثابت تاريخيًا أن اليوم الذى أكمل فيه نزول القرآن أكمل فيه ترتيبه، ومرتبه هو الذى أنزله، والذى أنزل القرآن على قلبه رتب القرآن على لسانه وما كان لأحد أن يتدخل فيه).

وأود كى تكمل الصورة لهذا الموضوع أن أضيف كلمات دالة من كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فهو يقول: وقد لوحظ من وقت مبكر أن مجموعات الآيات المنزلة لم تكن لتبقى منعزلة بعضها عن بعض ولا أن تتوالى فى ترتيب زمنى بعضها تلو الأخرى حسب نزول الوحى، فقد كانت مجموعات كثيرة منها تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى وتكون تدريجيًا وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها، وأن

بعضها كانت تضاف هنا والأخرى تتداخل مع غيرها هناك بحسب أمر الرسول الصريح الذى كان يتلقاه بدوره من الروح القدس حتى قال: وهكذا نرى أنه كان فى حياة الرسول مئات من الصحابة يطلق عليهم حفظة القرآن قد تخصصوا فى تلاوة القرآن وفى حفظه عن ظهر قلب وفى معرفة كل سورة فى هيئتها المؤقتة أو النهائية، فنرى ابن مسعود مثلاً يفخر بأنه حفظ أكثر من سبعين سورة من فم الرسول ﷺ، والرسول بدوره كان يؤكد أنه فى شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة وتلاوة الآيات التى نزل بها الوحى فى حضور جبريل، وأنه فى العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعل الرسول ﷺ يتنبأ بقرب أجله، هذا والله أعلم.

* * *

تخميس القرآن وتعشيره

وفق الله إلى الخير، الذين يحرصون على معرفة تحزيب القرآن وتربيعه وتعشيره وتخميسه، وتلك العلامات الثابتة على هامش صفحات المصحف الشريف، أن ذلك يدل دلالة صادقة على أننا نعطى القرآن الكريم بعض ما هو أهله من اهتمام ورعاية ونظر، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

إن آيات القرآن الكريم المدونة بين دفتى المصحف هى كلام الله تعالى ووحيه الصادق إلى مصطفاه ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

وكان نزوله منجمًا على حسب الوقائع والأحداث وبمقتضى ما أراد الله من إنزاله إلى مصطفاه أمرًا ونهيًا وإيجابًا لأحكام وهداية وعبرة، كل ذلك بلسان قومه لتتم به حجة الله فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ولقد بلغه الرسول ﷺ أمينًا ما غير ولا بدل ولا زاد ولا نقص، واستقبله الصحابة بما هو أحق به من حرص عليه، وسجله بعضهم فى السطور، وكان بديهيًا أن تكون كتابته على ما يعرف الناس وقتئذ من رسم وشكل وإعجام كما قال بعض العلماء. لكن ذا النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب مصحفه الإمام مجردًا من كل شكل وإعجام، ولم يكن فى ذلك شىء من العسير على الصحابة وتابعيهم بسليقة القوم السليمة وذهابهم بما امتازوا به على من سواهم بالفصاحة والبلاغة والفهم المدرك لكلمات القرآن وآياته وإن لم يكن على الشكل والإعجام المعلومين، فالشكل يحدد الحرف متحركًا أو ساكنًا فى بدء الكلمة ووسطها وآخرها يزيل عنه الأشكال والإبهام واللبس. والإعجام هو نقط الحرف ليتميز عن أشباهه من الباء والتاء والثاء مثلاً والجيم والحاء والخاء مثلاً والفاء والقاف.. وهكذا.

ولم يكن ذلك معروفًا عند العرب لما عرفت قبلاً من سليقتهم وامتيازهم على من سواهم بالفصاحة وعمق الإدراك للكلمات حين ينطقون على أساس من ذلك بالصواب من غير حاجة إلى ما يدل على بنية الكلمة وإعرابها.

وأذكر ههنا حقيقة تخفى على الكثيرين، هى أن القرآن الكريم يؤخذ أدق ما يؤخذ عن طريق التلقى والرواية، وكم يخدع نفسه من يحسب أنه قادر على أن يتعلم القرآن بنفسه من المصحف الشريف، وإن اعتماد النشء العزيز وشداة العلم على القراءة بأنفسهم مضيعة وبُعد عن الصواب لا ريب.

ولقد حدثت أحداث ووقائع بدا فيها انحراف بعض الألسنة بالهجنة واللحن نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم، ولقد سمع أبو الأسود الدؤلى رجلاً يقرأ خطأ قول الله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] فعطف (رسوله) بالجر على (المشركين)، وروع ذلك أبا الأسود، فسارع إلى استجابة رغبة قديمة لزياد والى البصرة كان قد تردد فى إنجازها وهى شكل القرآن الكريم. فلما كان عهد عبد الملك بن مروان شكَّل العلماء القرآن الكريم وتم ضبط الكلمات بعد ذلك بالنقط الذى هو الإعجام.

يقول الإمام القرطبى رحمه الله: «وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرد بذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد عليه تحزيبه، وأمر الحجاج وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك الذى سبقه إليه أبو الأسود».

قال الإمام القرطبى: وأما وضع الأعشار فقد قال ابن عطية: مر بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك. وأورد رحمه الله أن قول بعض العلماء إن تعشير القرآن وتخميسه وفواتح السور ورؤوس الآيات -أى بإطارات فيها اسم السورة وعدد آيها وكونها مكية أو مدنية وعلامات فى نهاية الآيات تعنى نهايتها أو

رقمها فى السورة، كان كل ذلك من فعل الصحابة رضى الله عنهم باجتهاد منهم.. وهو كلام لا يبعد.

لكن الذى صح أن مصحف عثمان رضوان الله عليه كان متجردًا من كل شكل أو إعجام أو تحزيب أو تعشير أو تخميس، وذلك شاهد أن مًا نراه على هوامش صفحات المصحف هو من الأعمال الجديدة الضرورية للانتفاع الكامل بكتاب الله، وأنها جاءت بأمر زياد لأبى الأسود الدؤلى أو على عهد عبد الملك وأمره للحجاج بأداء ذلك الجليل.. والشيخ الزرقانى رحمه الله يقول فى هذا السياق تحت عنوان «تجزئة القرآن»: «ولما امتد الزمن بالناس جعلوا يفتنون فى المصاحف أى بعد أن أخذت شكلها العثمانى المتجرد من كل نقط أو حركة أو سكون، فجزأوا المصحف عدة أجزاء.. فمنهم من قسم القرآن ٣٠ قسمًا وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره حتى إذا قال قائل قرأت جزءًا من القرآن تبادر إلى الذهن أنه قرأ من الثلاثين جزءًا التى قسموا المصحف إليه، وجرى على ذلك أصحاب الربعات إذ طبعوا كل جزء فى نسخة مستقلة ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه «ربعة» كالذى يوجد فى أيدى صغار التلاميذ وفى المساجد».

«ومن الناس من قسَّموا الجزء إلى حزبين ومن قسموا الحزب إلى أربعة أجزاء سموا كل واحد منها ربعًا. ومن الناس من وضعوا كلمة «خمس» بعد نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة «عشر» عند نهاية كل عشر منها».

«فإذا انتهت خمس آيات أخرى وضعوا كلمة خمس، فإذا صارت هذه الخمس عشرًا أعادوا كلمة عشر وهكذا دواليك إلى آخر السورة. وبعضهم يكتب فى موضع الأخماس رأس الخاء بدلاً من كلمة خمس ويكتب فى موضوع الأعشار رأس العين بدلاً من كلمة عشر وبعضهم يرمز لرؤوس الآى برقم وبعضهم يكتب فواتح للسور كعنوان..».

وإنى لأنتهى من هذا إلى التذكير بأن التعشير وأمثاله من تخميس وتربيع

وتجزىء قد ظهر فى عهد المأمون العباسى كما نقل القرطبى عن ابن عطية وغيره. ويرى آخرون أنه يرجع لعهد الحجاج فى العصر الأموى مساوقًا للإعجام والشكل، ثم إن التجزىء والتحزيب وتمييز السور وفواصل الآيات بعلامة أو رقم إنما يعنى الشكل والمظهر ولا تمس الأصل والجوهر، وهو فى الوقت نفسه ليس أمرًا منكرًا ولا يمكن بحال من الأحوال أن يسمى بدعة، فإنه معونة صادقة لمزيد من تبين كلمات كتاب الله وآياته وسوره، ولقد اتصل بى أخ كريم من المجلس الوطنى للثقافة والآداب والعلوم فى إحدى دولنا يسأل هل من بأس فى أن ندع كتب الأطفال وفيها آيات من القرآن يفصل الآية عن الآية نقطة أو فاصل مميز؟ فقلت له: إن الفواصل بين الآيات ضرورى وهو معتبر من العهد الأول لطبع المصاحف فإذا نقلنا إلى كتب الأطفال أو غيرها طائفة من الآيات كان من الخير وجود الفواصل بين الآيات وذلك أمر ينبغى الاهتمام به فى كتب الأطفال بخاصة ليشبوا ويدرجوا على أن هذه آيات يفصل بين بعضها وبعض بالنقطة أو الفاصل.

ولقد كان جبريل عليه السلام ينزل بما ينزل من آيات القرآن فيقول للرسول عليه الصلاة والسلام: ضع آية كذا بين آية كذا وآية كذا من سورة كذا، فيقول الرسول لصحابته رضوان الله عليهم: «**اجعلوها بين آية كذا وكذا من سورة كذا**».

فليبق للقرآن الكريم مزيد اهتمامنا به وسهرنا عليه، حتى لا يزعم زاعم بالباطل أنه يخدمه. والله يقول الحق ويهدى السبيل.

* * *

خذوا من القرآن

حفاوة القرآن بالعلم والعلماء أمارة أنه هبة الله، ومائدته الكبرى، وحبله الموصول بين الأرض والسموات، والمرء يجد نفسه فى القرآن الكريم أمام كلمة العلم ومشتقاتها وهى أقوى الأسباب، وأنقى الوسائل وأتقاها لعز الدنيا وأمن الآخرة، والكلمة فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة بحث متخصص ينتهى بصاحبه لا محالة إلى تقرير حقيقة أن الإسلام دين العالم، إن كانت هناك معتقدات فضيلة، فليس الإسلام أحدها بحال، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

وصدق الله العظيم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

ومع ما أتى الله سليمان وداود من سلطان قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] والعلم زمان الحكم وعصام النعم أن تتفلت وتزول، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إن الإسرائيليين الذين عبدوا العجل الذهبى انطلاقًا من فطرتهم المادية، ونظرتهم إلى المال على كل حال، هم سلف وخلف إلى يوم القيامة، يرون المال والقوة سبيل السلطان والملك.

والآية نص صريح فى ذلك الذى فـهموه والذى ردهم عنه نبيــهم إلى الصواب والحق الذى هو حق إلى قيام الساعة.

فقد اشتـرط الإسلام فيمن يتطاولون للملك أو يرشحـهم الصالحون لسلطانه أن يتوفر فيهم العلم وقوة البدن التـى تغلف العقل السليم كما قالوا «العقل السليم فى الجسم السليم».

فإذا اجتـمع العلم والقوة العاملة الراشـدة كان اجتماعـهما دون سواهمـا سبيل طريق العبادة، وسبيل الحكم الرشيد.

علم يجلو الحق وينير طرائق الرشد، وقوة تعين على إقامة المجتمع الفاضل على أساسه، وأهل العلم ظافرون منتصرون على كل حال، والمعصوم صلوات الله عليه يقول: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضيرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله**».

ويخامرنى نور الدين محـمود زنكى ملك مصر وسوريا.. فقـد كان عالمًا عابدًا لا يسافر سفـرًا ولا يرى فى حضر إلا ومعه إمامـه الذى يقرأ له كل يوم قسطًا من سنة رسول الله ﷺ ويعـرفه -وهو إمـام- فى الصلاة، ويشاوره فى قـضايا الدين والدنيا.

وما أنسى أن الصليبيين هاجموا ثغر دمـياط على عهده وكان نور الدين محمود الشهير يومئـذ بتل حارم وأفزعه النبأ، وكان ليلة فى مسجده بتل حارم على حدود تركيـا وكان ينزل إلى المسجـد أول نازل إليه، فناجى ربه: اللهم ادفع عن الإسلام كيد الصلـيبيين، ورد عن المسلمــين بغى عدوهم من أجل الإسـلام والقرآن لا من أجل نور الدين محمود، ومن هو نور الدين محمود «المـقلب» حتى تنصر الإسلام والمسلمين من أجله»؟

وانتهى من صلاته، وجاء لإمام المسجد الذى سبقه إليه الإمام نور الدين رجل، وقص عليه رؤيا رآها واقتصر ببعضها ولم يقلها كلها... يقول لهذا العالم.. لقد رأيت رسول الله ﷺ فى الرؤيا وأمرنى أن أخبر نور الدين محمود أن الله قد سمع

دعاءه، وحقق رجاءه، وأجلى اليوم عن ثغر دمياط هجوم الصليبيين قال: أعطنى أمارة أدعم بها كلامى، فإنى أخشى ألا يقبل الخليفة كلامى، فقال له: أمارة أنه قال كذا كذا وذكر كلمة «الكلب» فلما أخبر الشيخ الخليفة وبشره بجلاء الصليبيين قال له نور الدين: محمود أين الإمارة؟ قال إنك دعوت بكذا وكذا.. ولم يذكر «الكلب» فقال له: «أتمم الأمارة».. فذكر ما اختصر أولاً، وبكى نور الدين محمود فرحًا.. وجاء البريد بصدق ما أخبر به نور الدين محمود رضى الله عنه. والكلام عن العالم فى القرآن يقترن بالكلام عن العلم فى نور الدين محمود الذى كان يحرص على درس السنة النبوية باعتبارها الشارحة المبينة لكتاب الله. وعلماء الحديث يذكرون «الحديث الغض» والذى روى مسلسلاً بالتبسم دعوة، ولقد قرأ أمام الخليفة على حديثًا روى مسلسلاً بالتبسم ودعا الخليفة أن يبتسم، ولكن الخليفة قال: إنى أستحى من ربى أن أتبسم وثغر من ثغور المسلمين يحتله الأعداء»!!..

وأصداء احتفال القرآن بالعلم وإشادته بالعلماء وتنويهه بمن كانت صدورهم أوعية واعية لا مجرد حاوية لكتاب الله بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

ذلك كله يبرز الصلة الوثقى بين القرآن والعلم، بين الإسلام والحركة به إلى كل مراد الله، ومرادات الله تعالى هى سعادة المؤمن بدنياه، ومصيره إلى حيث يكون أسعد قلبًا وأرضى نفسًا مما كان فى هذه الحياة.

ولا يعدل من أهواء الناس وشهواتهم إلا القرآن، وكم كان أوائلنا يقولون: إن الغناء قرآن الشياطين، وهو رقية إبليس اللعين إلى ما يستهدف من أوليائه ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وكثيرون يعرفون فرق ما بين كلام الله وكلام الناس، غناء أو خطابًا، ولكنهم تغلبهم أنفسهم وهى تعرفهم عن كتاب الله -وقد يخطئ الرشد الغنى وهو عارف كما قال ابن رشيق.

والذين يشتغلون عن القرآن بما يقول بـنو الإنسان فى أى مكان، يقطعون حبالاً تصلهم بالله إن رعوا كـتابه حق رعاية، ويعرضون أنفـسهم لمهانة وضياع كـبيرين وكان فى إمكانهم دفعها بشىء من القرآن يكون شغلهم الشاغل ساعات من ليل أو نهار، وفى الأثر: «ما أعز أن يجهل قط، ولا أذل بعلم قط».

بالعلـم والمال يبنى الناس مـلكهم لم يبن ملك عـلى جـهل واقـلال

وإذا صنع لبـعض الناس بعض العـزة غنى أو منصب، فـإن ذلك لا يلبث أن يكون كنار القش تعلو فى الجو وترتفع أمام الأبصـار ساعة من ليل أو نهار ثم تمور رمادًا، وتتبـدد كسحـابة صيف، وتبقى العـزة بالعلم أخذًا وعطاء دفق كـلماتهم المضيئة. مـا عز باطل ولو طلع القمر من جبـينه. وكل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل يصير.

فـخذ من كـتاب الله مـواقره إلى العلم واصطـنع العلم النافع، وقيـد أوابك، واستفد شـارده، وامنحـه جهدك فى الليل والنهار، كما فعل الآباء، فكانوا بالعلم سادة زمانهم، وعزة إخوانهم، ورحم الله زبيدة فقد رأت الناس يتجمعون على عبد الله بن المبارك عالم القرآن فقالت: هذا هو الملك.

وكفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من ليس من أهله.

* * *

دعاء ختم القرآن

كم فى القرآن المجيد من لوحة فنية تبهر الناظر، وحجة عقلية لا يجد النصف عنها منصرفًا، فدلالة القرآن -كما قال الإمام ابن قيم الجوزية- سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتناولها الاحتمالات.

كم فى الكون المشهود من آية تستبى الخاطر وتسكت جدل المجادلين فى آيات الله بغير بينة من أمثال أولئك الذين عناهم الله سبحانه فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

والمؤمن لا يمل أبدًا شيئًا من كلام الله، ولا يستثقل النظر المتتابع فى مخلوقاته، فهى تروى فيه شجرة الإيمان، وتزيد فى واجب الوجود يقينه، وتعطيه ما ينفع ويفيد مما خاطب الله به رسوله صلوات الله عليه وهو يلقى المشركين فيدحض قالتهم، ويسقط حجتهم. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٦- ٦٩].

إن الآيات تدل فى بعض جوانبها على الصانع أولاً ثم على حكمته وحقه فى أن يعبد ويوحد، وأن الذين يرتابون فى شىء من ذلك ويشاقون فيه على غير هدى

من أمرهم، ولا صواب فى تصرفهم، ولا سلامة فى مداركهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ومرة أخرى فلن نحصى آيات القرآن التى تلفت الأذهان إلى أدلة إثبات الصانع الحكيم، وليت ذلك يمكن -إن مجرد سرد هذه الآيات من مواقعها فى سور القرآن متاع روحى وعقلى لا ينفد، وهو مع ذلك عمل صالح للقارئ والسامع على سواء - وليس فى دنيا الناس شىء يأخذ العناية التى منحها الله لكتابه الباقى والذين يصلون به أنفسهم على آية صورة هادية من صور الالتزام والاهتمام.

ورد عن قتادة عن أنس رضى الله عنهما قال: كان أنس إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا!! وإنه لدعاء يرتفع لا محالة إلى السماء بجناحين من ذكر وطاعة، يغلبهما إخلاص لله الذى يقول:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وما أكرم أن يحرص المرء على أفعال الخير يحشد إليها أهله، ويجمع عليها ولده، فيدرب هؤلاء وهؤلاء على الصالحات، وفى القمة من ذلك كتاب الله حفظًا أو تلاوة وتدبرًا وتمثلاً، وجزى الله أوائلنا خيرًا بقدر ما شرعوا لنا من سنن الهدى، نقلاً أمينًا عن الثقات وحرصًا على مرضاة الله، وحسن عبادته.

ولقد قالوا ليوسف بن أسباط: بأى شىء تدعو إذا ختمت القرآن؟ فقال: استغفر الله من تلاوتى، لأنى إذا ختمته ثم تذكرت ما فيه من الأعمال خشيت المقت، فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح.

وقرأ رجل القرآن على بعض شيوخه.. فقال: «فلما ختمته، أردت الرجوع من أوله، فقال لى الشيخ «اتخذت القرآن عملاً، اذهب فاقرأه على الله». وانظر ماذا يفهمك منه، فاعمل به».

ومرة أخرى: ليتنا ونحن نناجى الله بكلامه، نسأله أن يرشدنا إلى إحكامه وأحكامه وإلى مغازيه ومراميه، إلى أن نكون معه غادين ورائحين، ومصبحين وممسين، وعلى كل حال، وأعمالنا وأقوالنا ترجمان وبيان لما أراد الله من الإحسان إلينا والإنعام علينا بكتابه..

ومن الدعاء المأثور فى ختم القرآن بعد حمد الله والصلاة والسلام على مصطفاه.. «اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنوا إمائك نواصينا بيدك، ماض فينا حكمك عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا وغمومنا، اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يرضيك عنا، اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويتلوه حق تلاوته، اللهم اجعلنا ممن يقيم حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده، اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن فقاده إلى رضوانك والجنة، ولا تجعلنا ممن اتبع القرآن فزج فى قفاه إلى النار، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك... يا أرحم الراحمين».

والدعاء خفق قلوب وضراعة وأدب منيب، عارف لمولاه، خاشع لربه، راج مزيد هداه وكرمه ونداه، ونعمه ورضاه فى الحياة ويوم نلقاه ليس معنا من مالنا مال ولا من جاهنا جاه كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أجل -لا محيص حين يستعصى عرض آيات الله فى كتابه المقروء وفى كتاب الكون المشهود، من عرض آيات من هذه وهذه وإن كانت حجة القرآن أقوى وصلاً لما أسلفنا من ذلك بالتفصيل تارة وبالإجمال أخرى، والله المستعان على كل خير.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [الشورى: ٢٩- ٣٥].

يقول الإمـام الشوكانى فى تفسـيره «فتح القدير» بعـد إيراد هذه الآيات: «ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجـبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث». .

والسموات التى خلقها الله كما امتن بذلك فى هذه الآيات وغيرها، والتى رفعها كما قال ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧] وقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢] وقال: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٠] وقال: ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشـية: ١٨]؟! هذه السموات واحـدتها سمـاء. وهى فى اللغة كل مـا علا الإنسان من السـمو أى العلو. . قـال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فهـذا الفضاء اللانهائى سـماء، والسحـاب سماء، والكواكب سموات، يقول المرحوم الأستاذ محمد مسعود فى تقويمه:

«السموات السـبع المذكورة كثيرًا فى القرآن، هى هذه السـيارات السبع، وهى طباق، أى بعضهـا فوق بعض، لأن فلك كل منهـا فوق فلك غـيره، والأرض إحدى هذه السيارات، ولو لم تعتبر سمـاء بالنسبة للإنسان، لأنه يعيش عليها،

فالسيارات الكبيرة وإن كانت ثمانية إلا أن سبعًا منها فقط هى التى تعلو الإنسان، فهى السموات بالنسبة له.. حتى استأنس بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦].

قال الإسكندرى: «وطباقًا يحتمل أن يكون معناها كون السموات متوازنة، لأن لكل كوكب حيزًا، وهذه الكواكب مجموع الأجرام السماوية التى لا حد فى الفضاء لها، وتكون طباقًا باعتبار حركاتها وحيزها وطبيعتها، فإنها تنقسم إلى نجوم وشموس وكواكب وتوابع وذوات أذناب، وكلها بحسب الظاهر طبقات على حسب البعد عنها».

* * *

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
- نور من القرآن	٥
- نور من السنة	٦
- إهداء	٧
- الكاتب والكتاب -بقلم: الشيخ أحمد مصطفى فضلية	٩
- بين يدى الكتاب -بقلم: فضيلة الأستاذ الشيخ معوض عوض إبراهيم	١٩
المجموعة الأولى:	
كيف نحيا بالقرآن؟	
- القرآن يتحدث عن نفسه	٢٩
- أمة قدسها القرآن(١)	٣٤
- أمة قدسها القرآن (٢)	٣٨
- أمة قدسها القرآن (٣)	٤٥
- إنه القرآن كتاب الحياة والأحياء	٥٢
- القرآن الكريم يهدى التى هى أقوم	٥٤
- هكذا اعتنوا بالقرآن	٦٣
- القرآن منهج حياة	٦٥
- القرآن والحياة	٧٠
- اجعلوا القرآن إمامكم	٧٤
- القرآن كتاب الأزل والأبد	٧٨
- الإعجاز القرآنى	٨٢
- متى ننصف القرآن من أنفسنا	٨٦

- مـتى ننصف القـرآن ٩٢
- أنزل القرآن علـى سبعـة أحرف ٩٥

المجموعة الثانية:

من أى قراء القرآن أنت؟

- من قراء الـقرآن أنت؟ ١٠٥
- تعلموا لسـان القرآن وتدبروه ١١٠
- تدبر القرآن ١١٣
- على مائدة القرآن ١١٨
- القرآن مائدة الله ١٢٢
- مع ابن القيم حول مائدة القرآن ١٢٤
- من نفحـات القرآن ١٣١
- استذكار القرآن وتعاهده ١٣٤
- اغتباط صاحب القرآن ١٤٠

المجموعة الثالثة:

نظرات قرآنية

- نظرات فى القرآن ١٥٥
- القرآن جمـاع الفضائل ١٥٩
- دروس من سورة الجـمعة ١٦٤
- أدعية من القرآن والسنة ١٦٧
- المكر والماكرون فى كتاب الله ١٧٠
- قبسات من سورة الجمعة ١٧٧
- وعادت للحق نورانيته ١٨٢
- تأملات فى القرآن الكريم ١٨٤

- معنى فى آية كريمة «الطيبات هى الحلال» ١٨٨
- تفسير موجز لسورة الإخلاص ١٩١
- سورة الكوثر ١٩٤
- آية الحقوق العشرة ٢٠٠
- فى حضرة القرآن الكريم ٢٠٢
- الاتعاظ والاعتبار بآثار من مضوا ٢٠٥
- الحياة لا تخلو من هموم ٢٠٨

المجموعة الرابعة:

قضية جدلية فى المحكمة القرآنية

- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [١] ٢١٣
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٢] ٢٢٠
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٣] ٢٢٥
- أهل الكتاب فى القرآن الكريم [٤] ٢٣٢
- هتاف ربانى ٢٤٠
- تعالوا إلى كلمة سواء ٢٤٢

المجموعة الخامسة:

القرآن.. وأسرار ترتيبه ونزوله وقراءاته

- القرآن وضجيج الباطل ٢٤٧
- حول ترتيب السور فى القرآن ٢٥١
- تخميس القرآن وتعشيره ٢٥٥
- خذوا من القرآن ٢٥٩
- دعاء ختم القرآن ٢٦٣
- الفهرس ٢٦٩

المؤلف فى سطور:

- معوض عوض إبراهيم. ولد عام ١٣٣٢هـ ١٩١٢م فى قرية «كفر الترعة الجديد- شربين دقهلية حاليًا- غربية سابقًا» حفظ القرآن الكريم فى كتاتيب القرية ومدارسها الأولية.

- حصل على الابتدائية من معهد دمياط الأزهرى سنة ١٩٣٠ وعلى الكفاءة سنة ١٩٣٣م والثانوية سنة ١٩٣٥م من معهد طنطا الثانوى. وتخرج فى كلية أصول الدين سنة ١٩٣٩م وفى الدراسات العليا فى الدعوة عام ١٩٤١م.

- عمل واعظًا للأزهر فى أسوان عام ١٩٤٢ وفى الفيوم سنة ١٩٤٥م وفى بورسعيد سنة ١٩٤٨- ١٩٥٦م. عمل مبعوثًا للأزهر للوعظ والتدريس فى بيروت لبنان من ١٩٥٦م- ١٩٦٢م. ثم زار اليمن لعدة شهور عاد بعدها فأنشأ المعهد الدينى فى بورسعيد عام ١٩٦٤م. وعمل فى الوعظ والتدريس فى العقبة من ١٩٦٥م- ١٩٦٩م. ثم عمل مفتشًا ومراقبًا للوعظ فى القوات المسلحة ومحاضرًا فى الدراسات العليا قسم الحديث فى كلية أصول الدين حتى عام ١٩٧٣ ثم عمل مدرسًا فى كلية الشريعة فى الرياض عام ١٩٧٣ ثم باحثًا علميًا فى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء إلى عام ١٩٧٦م حيث عمل بعد ذلك مدرسًا فى كليتى أصول الدين والحديث النبوى فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، وفى عام ١٩٧٩م إلى ١٩٨٧ عمل رئيسًا لقسم الدعوة فى وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى الكويت، وزار الكليات الإسلامية فى بلاد: كراتشى وبيشاور ولاهور وإسلام آباد فى باكستان، وزار البحرين مرات، وكذلك اليمن وقطر وسوريا.

● **صدرت له المؤلفات الآتية:**

١- فلسطين وكيف نستردها عربية مسلمة.
٢- إنسانية العبادات الإسلامية.
٣- ملامح من هذا الدين.
٤- الإسلام وطرق هديه.
٥- الإسلام والأسرة.
٦- قبس من الإسلام.
٧- ركائز المجتمع المسلم فى سورة الحجرات.
٨- مع الإمام البخارى فى كتاب العلم من صحيحه.
٩- نفحات القرآن.
١٠- الرسالة والرسول فى شعر أبى طالب.
١١- مشاهد الوجود وشواهد التوحيد.
١٢- عنصر الهداية فى القرآن الكريم.
١٣- الأولاد ودائع الله عندنا.
١٤- ذلك الدين القيم.

● **وتحت الطبع والإعداد:**

١- التقوى والمتقون فى ضوء القرآن والسنة.
٢- من أدب النبوة.
٣- فلسطين وفقه النصر والتمكين.
٤- الصوم فى ضوء القرآن الكريم.
٥- رجال ونساء فى مجال القدوة.
٦- من رحيق الإيمان «ديوان شعر».
٧- جوانب من دعوات المرسلين.
٨- دراسات فى اللغة والأدب.
٩- أوراق داعية.
١٠- خطب الشيخ معوض عوض إبراهيم.
١١- الداعية الرحالة معوض عوض إبراهيم (حياته وآثاره فى رحاب الدعوة).